

THE.WHAT?

ذوات

الرواية العربية: التحول والتحدي

1

مجلة ثقافية إلكترونية

العدد ٢٠- ٢٠١٥ - السنة الأولى



مجلة ثقافية إلكترونية

تصدر عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»

العدد ٢٠ - ٢٠١٥

المشرف العام

د. أحمد فايز

رئيسة التحرير

سعيدة شريف

تدقيق لغوي

د. عبد السلام شرماط

تصميم وتنفيذ

رنا علاونه

المراسلات:

تقاطع زنقة واد بهت وشارع فال ولد عمير، أكدال،
قرب مسجد بدر
الرباط، المغرب
ص.ب: ١٠٥٦٩
تلفون: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٩٩٥٤
فاكس: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٨٨٢٧
رئيسة تحرير مجلة "ذوات" الإلكترونية:
mag@thewhatnews.net
سكرتير تحرير مجلة "ذوات" الإلكترونية:
mag2@thewhatnews.net
www.mominoun.com



كلمة
هذا العدد

بصدور العدد العشرين من «مجلة ذوات» الثقافية الإلكترونية، الصادرة عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، تكون هذه المجلة قد أتمت عامها الأول، وحققت جزءا مهما من مشروعها الإعلامي التنويري، حسب شهادات العديد من الباحثين والكتاب العرب، الذين يتتبعون أعدادها بشغف وإعجاب كبيرين.

الفضل كل الفضل لمؤسسة مؤمنون بلا حدود التي وضعت ثقتها في فريق إعلامي «صغير جدا»، ولم تبخل بالتوجيه والمساعدة والدعم، ولفريق العمل وللزملاء في المهنة من خارج المؤسسة، وللكتاب والباحثين العرب الذين وجدوا في هذه المجلة «المتنفس الفكري والثقافي»، والمجال الأرحب المفتوح في وجه كل المثقفين العرب بدون استثناء، من المغرب العربي، إلى المشرق، وإلى أوروبا وأمريكا ونيوزيلندا، وغيرها من الدول والقارات، التي يقطن بها الكتاب والباحثون العرب الشغوفون بالكتابة والتجديد، والمهووسون بإشعاع الفكر التنويري.

عام كامل من العطاء تناول فيها فريق «مجلة ذوات» مجموعة من المواضيع الشائكة: الظاهرة الداعشية، حرية المعتقد في الإسلام، هوية المرأة العربية، الحوثيون، الإسلام والمستقبل، التطرف الديني، الفتاوى وفقه الأزمة، الترجمة في الوطن العربي، المرأة وقضايا التجديد في الفكر الإسلامي، الرواية العرفانية، أحاديث الفتن، التعليم العالي، الإعلام الديني، المعرفة الدينية، رُهاب الحرية، أزمة العقل الفقهي، المرأة العربية والمشاركة السياسية، العرب واقتصاد المعرفة، وما بعد الإسلاموية، وغيرها من المواضيع الثقافية والفنية، والتربوية، وقراءات في الكتب، أغنت المجلة، وجعلتها تحظى بالاهتمام، ويتابعها إلكترونيا الباحث والكاتب الكهل قبل الشاب، داحضة بذلك أطروحة أن كل ما هو رقمي لا يتابعه إلا الشباب.

قراء «مجلة ذوات» متنوعون يرون فيها كما يقول الكاتب والمترجم المصري شوقي جلال، الذي تعذر إدراج شهادته في سؤال ذوات لوصولها متأخرة نسبيا، «التجربة الجديدة المناسبة تماما لعصر المعلوماتي، والأداة العربية الجامعة أو البرلمان الثقافي الذي يتيح الحوار العربي الشفاف والجاد البعيد عن التصنع والمجاملة»، كما يرون فيها حسب ما اقتصرنا عليه من شهادات (٣١ باحثا من مختلف البلدان العربية)، في باب سؤال ذوات لهذا العدد، والذي خصصناه للمجلة نفسها، «أداة فاعلة في المقاومة الثقافية ضد كل الأشكال العدوانية الآتية من غياهب التاريخ أو المعيش، ومجلة ترى أن النحت في خراب العقل العربي أمر ممكن».

إن أكثر ما يثلج الصدر، هو أن مجهودات أكثر من عام من العمل الدؤوب والمضني أحيانا، لم تذهب سدى، حيث جاءها الاعتراف من الخارج والداخل، وراقت القراء شكلا ومضمونا، وحققت ما لم تستطع بعض المجلات تحقيقه في وقت قصير، ومع ذلك ما زال الدرب أمامها طويلاً، فالمجلة تحتاج إلى المزيد من المجهود، ومن التعديلات حتى ترقى إلى المستوى المطلوب، وتصبح مجلة كل المثقفين العرب، والمجال الأرحب لاحتضان

الأقـلام المتمـيزة الـتي تسـتطيع الـرقي بذائقـة القـارئ العـربي، وتقديـم المـادة الثقافيـة والفكريـة الرصينـة والبسـيطة والشـيقة في آن، والـتي تثـير الاهتمـام، وتجعـل الثقافـة رهانهـا الأكـبر في زمـن العولمـة والتكنولوجيـا المتطـورة.

وبفضـل اهتمـام القـراء وملاحظاتهـم القيمـة، وإلحاحهـم في طلـب تحويلهـا إلى مجلـة ورقيـة، سأسـعى رفقـة فريـق العمـل والمؤسسـة طبعـا، إلى إخراجهـا في حلـة ورقيـة، نـزولا عنـد طلـب القـراء والكتـاب والمهتمـين، مرتكزيـن عـلى ملاحظاتهـم القيمـة الـتي نشرناهـا كمـا هـي في سـؤال ذوات، حرصـا منـا عـلى الموضوعيـة والنزاهـة الـتي نلـزم بهـا أنفسـنا قبـل الآخريـن.

ولأن المناسـبة شرط، فقـد خصصنـا ملـف هـذا العـدد السـنوي الأول، لموضـوع الروايـة العربيـة، وحرصـت مصممـة المجلـة الأسـتاذة رنـا علاونـة، عـلى إضفـاء مسـحة جماليـة وإبداعية مشـكورة عليهـا، كمـا حـرص كل فريـق العمـل مـن إعلاميـين، ومدقق، ومنسـق، وتقنيـين، على أن يحظـى هـذا العـدد بالاهتمـام الـلازم، وأن تـبرز مجهـودات كل واحـد. وبهـذه المناسـبة أقـول لـكل فريـق العمـل، وعـلى رأسـهم المديـر المبـاشر للمجلـة والمديـر التنفيـذي بالمؤسسـة، الدكتـور أحمـد فايـز: شـكرا، وألـف شـكر.

ويضـم ملـف «الروايـة العربيـة: التحـول والتحـدي»، الـذي أعدتـه الكاتبـة والناقـدة المغربيـة زهـور كـرام، والـذي جـاء مـن أجـل إلقـاء مزيـد مـن الضـوء عـلى أشـكال التحـولات، سـواء المتعلقـة بالنظـام الداخـلي للروايـة، أو الـتي لهـا علاقـة بالتحـول الـذي يعرفـه النقـد الـروائي في التجربـة العربيـة، أربعـة تصـورات نقديـة حـول راهنيـة الروايـة العربيـة، وشـكل التحـول وطبيعـة التحديـات، الأول للناقـد والكاتـب الجزائـري، الدكتـور عبـد القـادر شرشـار بعنـوان «الروايـة العربيـة: مسـار مثقـل وتحديـات كـبرى»، والثـاني للناقـد والباحـث العـراقي، الدكتـور نجـم عبـد الله كاظـم بعنـوان «المتغـيّرات والتجديـد في الروايـة العربيـة المعـاصرة»، والثالـث للناقـد والكاتـب المغـربي، الدكتـور عبـد الرحيـم جـيران بعنـوان «نمذجـة الروايـة في العالـم العـربي: أفـكار أوليـة»، والتصـور الرابـع للناقـد والباحـث والكاتـب السـوري هيثـم حسـين، المقيـم بأدنـبرة / بريطانيـا، بعنـوان «الروايـة العربيّـة في مهـبّ التحـوّلات التاريخيّـة». أمـا حـوار الملـف فهـو مـع الروائيـة والمترجمـة العراقيـة لطفيـة الدليمـي، الـتي تـرى أن الروايـة العربيـة أصبحـت لهـا سـياقات واضحـة ومتعـددة، وأثبتـت أنهـا نـص الحـاضر والمسـتقبل، وأنهـا جـزء أثـير في حركـة الحداثـة المحـاصرة في بلداننـا العربيـة، فهـي «تقاتـل وتتحـدى وسـط أنـواء التراجـع والتخلـف المجتمعـي».

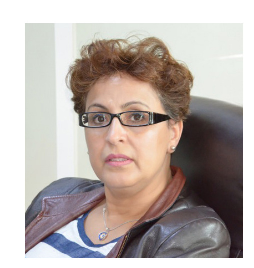
ويتضمـن بـاب «رأي ذوات» مقـالاً للكاتـب والباحـث المغـربي عـادل حدجامي بعنـوان «في مسـألة القـراءة: ضـد الرؤيـة الأخلاقيـة»، ومقـالا ثانيـا للكاتـب والناقـد العـراقي رسـول محمـد رسـول بعنـوان «الروايـة العربيـة وجماليـات الاسـتجابة إلى متغـيرات الواقـع»، والثالـث للباحـث والكاتـب الأردني سـعود الشرفـات بعنـوان «إدارة التوحـش كنمـوذج إرشـادي لفهـم التطـرف الديـني الإسـلامي والإرهـاب»؛ ويشـتمل بـاب «ثقافـة وفنـون» عـلى مقالـين: الأول للكاتـب والشـاعر الفلسـطيني غـازي الذيبـة تحـت عنـوان «العمـود الشـعري.. مقـبرة دفنـت تعدديـة الفضـاء الشـعري العـربي وتنوعـه»، والثـاني للكاتـب والباحـث المغـربي الشريـف آيـت البشـير بعنـوان «الكتابـة والتطريـس: في الحاجـة إلى الخيـام، في الحاجـة إلى أم كلثـوم».

ويقـدم بـاب «حـوار ذوات» لقـاء مـع الخبـير التربـوي الأردني، حسـني عايـش، أجـراه الكاتـب والإعلامـي الأردني مـوسى برهومـة، ويقـترح «بورتريـه ذوات» لهـذا العـدد صـورة للكاتبـة



والروائيـة الفلسـطينية حُزامـة حبايـب، أبـدع في رسـمها الشـاعر الأردني عمـر شـبانة، والـذي قـال عـن تجربتهـا الإبداعيـة السَّـرديّـة، بأنهـا تمثـل نمطًـا يمكـن اعتبـاره، وبـلا أيّ تحفُّـظ، فريـدًا في السـاحتين الفلسـطينية والعربيـة، لجهـة الترابـط الشـديد والعميـق بـين الإبـداع والحيـاة، بـين إبـداع حزامـة وحياتهـا، بـين مـا تعيشـه ومـا تكتبـه، وكأنّ كتابتهـا مـرآة لروحهـا، وتجسـيد صـادق لروحهـا وجوهرهـا ومعاناتهـا.

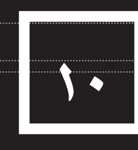
ويضـم بـاب «تربيـة وتعليـم» مقالـة للباحـث التربـوي المغـربي محمـد حمـدي حـول «أهميـة اللعـب في حيـاة الطفـل»، فيمـا يقـدم الكاتـب والناقـد الأدبي الأردني غسـان إسـماعيل عبـد الخالـق، قـراءة في مؤلفـات المفكـر الفلسـطيني الراحـل إدوارد سـعيد، خاصـة كتابـه «الاسـتشراق»، تحـت عنـوان «إدوارد سـعيد إذ يثبّـت صـورة الاسـتشراق في المـشرق العـربي»، وذلـك في بـاب «كتـب»، والـذي يتضمـن أيضـاً تقديمـاً لبعـض الإصـدارات الجديـدة لمؤسسـة «مؤمنـون بـلا حـدود للدراسـات والأبحـاث»، إضافـة إلى لغـة الأرقـام الـتي نطلـع فيهـا القـراء عـلى العنـف الـذي تتعـرض لـه النسـاء عـبر العالـم.



دامت لكم متعة القراءة ...

سعيدة شريف



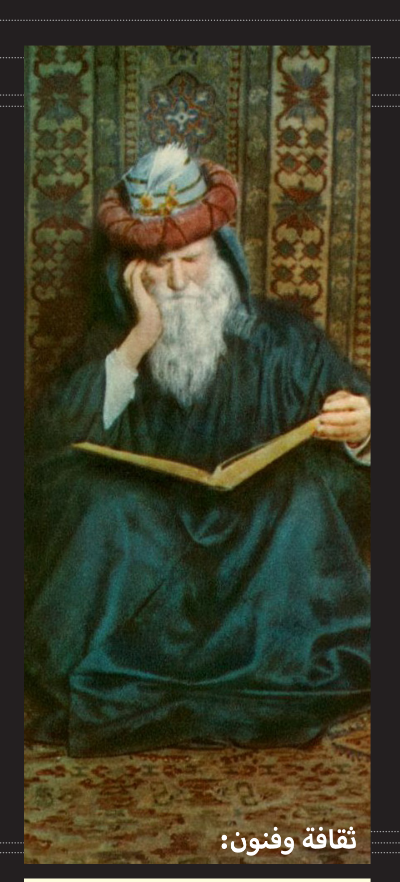


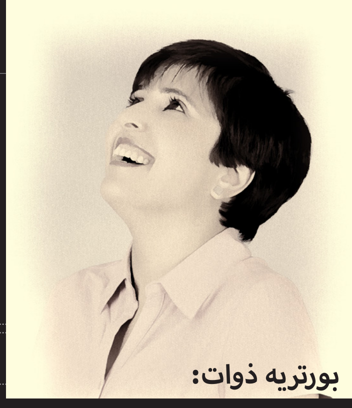


صورة الغلاف
بعدسة: رنا علاونه

في كل عدد:









الداخل ...


ملف ا
الرواية ا
التح
والتح


لعدد:
لعربية:
ول
دي

الرواية العربية:
التأسيس لحالة ثقافية جديدة



إعداد: د. زهور كرام

روائية وناقدة وأكاديمية مغربية



عـندما نتأمل المشهد الإبداعي العربي، في طريقة تدبيره للأشكال التعبيرية، ونوعية اهتمامه بالأجناس الأدبية، سنلاحظ اهتماما وانشغالا بالرواية، باعتبارها أكثر الأشكال الرمزية التي تحظى باهتمام - بدرجات متفاوتة - من قبل النقد من حيث المتابعة والقراءة، والنشر بفعل العدد الكبير الذي باتت تعرفه الساحة العربية من إصدارات في جنس الرواية، ثم الانشغال الكبير للجوائز الأدبية بالرواية، وإعطائها السبق في التنافس الإبداعي.

وعلى الرغم من كوننا نلاحظ اهتماما بأنواع سردية موازية أخرى، مثل القصة القصيرة والقصيرة جدا من خلال تنظيم لقاءات وملتقيات، وإصدار كتب نقدية مع إصدارات كثيرة للنصوص القصصية، غير أن الرواية باتت تُؤسس لحالة ثقافية عربية، تُحفز الدراسات للبحث في أسباب هذا الاهتمام المتزايد، الذي جعل الأغلبية تختار الكتابة من خلال الرواية، والتعبير عبر نظامها، وحمست المبدعين في حقول إبداعية أخرى، مثل الشعر والقصة لتجريب التعبير بالشكل الروائي. فهل هو اهتمام وظيفي بدور الرواية في المجتمع؟ وهل لهذا الانجذاب علاقة بثقافة الوعي بأهمية الرواية في مرافقة التحولات التاريخية التي تعرفها بلدان العالم العربي، والإيمان بدور الرواية في إنتاج وعي بما حدث ويحدث؟ وهل هيمنة هذا الجنس تعبير عن تحولات المدينة العربية، والتي أصبحت الرواية شكلها التعبيري؟ هل للنقد دور في التجربة العربية في هذا الاهتمام والانجذاب؟ وهل اقترابه من طبيعة الرواية العربية، وتفكيك منطقها، ورصد مظاهر تحولاتها، يُغري الكتاب العرب للكتابة من خلالها؟ وهل تحظى الرواية بنسبة عالية من القراءة، وعدد النسخ المطبوعة تُباع بسرعة؟ وهل ارتفعت مبيعات الروايات العربية، وارتفع إيقاع الطبعات، ونجحت الرواية في تقليص أزمة القراءة في العالم العربي؟ هل الرواية أصبحت مطلبا ثقافيا، وحاجة مجتمعية، وعنصرا فاعلا للتنمية،

أم أن المسألة ذات علاقة مُباشرة بتفضيل دور النشر طبع الرواية على باقي الأشكال التعبيرية، وعلاقة هذا التفضيل بالجوائز الأدبية؟

تلك عيّنة من الأسئلة التي نقترح التفكير فيها، من أجل الوعي بهذا الانجذاب بالشكل الروائي في التجربة العربية الراهنة، ولاشك أن مقاربة هذه الأسئلة، من شأنه أن يُقدم تصورات حول موقع الرواية في الوعي الإبداعي أولا، ثم النقدي ثانيا. وبعيدا عن سؤالي الاهتمام والانجذاب، فإن الرواية العربية باتت تقترح في راهنيتها مجموعة من التحديات الكبرى على النقد وخطابات تلقيها من جهة، ومن جهة أخرى على المؤسسات الثقافية والأدبية. ولعل من بين أهم مظاهر هذه التحديات، التي تجعل الاقتراب من الرواية العربية يتطلب إعادة النظر في مختلف التصورات التي انبنى عليها الوعي الروائي في التجربة العربية، أن التجارب الروائية العربية تتميز بالتعدد في التركيب السردي، والتنوع في نظام التشخيص الروائي، وتختلف في طريقة البناء، وطبيعة سرد المواضيع، ولهذا، بتنا نلتقي بوضعيات مختلفة ومتنوعة للرواية العربية، التي لم تعد تستقيم للتصور المألوف حول هوية الرواية العربية، وباتت تُعبر عن قدرتها على تشخيص الاختلاف العربي، تبعا لاختلاف السياق، وطبيعة الأسئلة، ونمط التحول، وحركة التطور، إلى جانب الاختلاف في ترتيب القضايا التي تهم المجتمعات العربية، إذ ما يُعتبر قضية جوهرية في مجتمع، يراه مجتمع آخر قضية ثانوية، وما يوضع في علبة المسكوت عنه، تُقصيه الرقابة إن هو تجرأ، وانفلت من العلبة، نجده في تجارب عربية أخرى، وقد أصبح موضوعا مألوفا في التداول الاجتماعي، والنقاش السياسي، ومن ثمة، يستقبله الأدب الروائي بدون حرج، ينعكس هذا الوضع المختلف في التعامل مع القضايا على خطاب التشخيص من لغة وسرد وصيغ تحميل المكان والزمن روائيا، ولهذا فالتقنية السردية التي تُؤشر على تحول بنيوي في رواية مجتمع عربي، تُعد تقنية مُتجاوزة في تجربة رواية مجتمع آخر.

لم تعد الرواية العربية تتشكل من المُشترك، والمرجع الواحد، بقدر ما أصبحت ذات علاقة بسياقها الذاتي، وتحولات مجتمعها، وحراك أسئلتها؛ ولهذا، لم يعد واقع الرواية العربية يسمح بإدراجها ضمن منظومة واحدة ومنسجمة من التلقي، وقراءتها وفق المنظور السابق، أو المألوف، والذي تعود النظر إلى الرواية العربية، باعتبارها خطابا سرديا قادما من نفس المرجع، وتعبيرا أدبيا ينشغل بنفس الأسئلة التي تهم كل المجتمعات العربية، ويصوغها بنفس الطريقة، وشكلا إبداعيا يروم نفس الأفق.

وإذا كانت مجموعة من المعطيات التاريخية والفنية قد تحكمت في هذا التصور، بناء على خلفية تأسيس الجنس الروائي في التجربة العربية، واعتماد مفهوم المرجع الواحد، مع تبني مبدأ المركز من أجل الوعي بالتجارب العربية الأخرى، فإن هذه المعطيات قد تغيرت، أو أن واقع الرواية العربية تجاوز تصورها، فأصبح المجيء إلى الرواية العربية مجيئا إلى التعدد والاختلاف والتنوع. يسمح هذا التصور الجديد الذي يستوعب الرواية العربية ضمن تعددها المختلف، وتنوعها الفسيفسائي، إلى الوعي بحركية التحول التي تعرفها المجتمعات العربية، من خلال حركية الأبنية الروائية، والتي تضع النقد الروائي في التجربة العربية أمام تحديات كبرى.

ولهذا، يأتي ملف «الرواية العربية: التحول والتحدي» ليُضيء أشكال التحولات، سواء المتعلقة بالنظام الداخلي للرواية، أو التي لها علاقة بالتحول الذي يعرفه النقد الروائي في التجربة العربية. نحن إذن، أمام شكلين من التحول، أو على الأقل، أمام نمطين من الوعي، من جهة، الوعي بتحولات الخطاب الروائي، ومن جهة ثانية، الوعي بتحول خطاب التلقي، وهي إضاءة نقصد من ورائها الوعي بنوعية تحديات الرواية العربية، سواء في علاقة بما يحدث في العالم العربي من هزات تاريخية، وتآكل للجغرافيا، وتدمير للتاريخ، وفوضى في مفاهيم ألفها الفرد العربي، فإذا به يرى الدلالات وقد انفلتت من المفاهيم، واللبس وقد عم الأفكار، ثم في علاقة الرواية بما تعرفه تجربة الزمن التكنولوجي من تمظهرات جديدة للتجلي الإبداعي عبر الوسائط التكنولوجية، خاصة مع الأدب الرقمي. نلتقي في هذا الملف مع أربعة تصورات نقدية حول راهنية الرواية العربية، وشكل التحول وطبيعة التحديات.

يقترح الناقد والكاتب المغربي، الدكتور عبد الرحيم جيران، في ورقته «نمذجة الرواية في العالم العربي أفكار أولية» نمذجة للرواية العربية، منطلقا من تصور معرفي يجعل انتماء الرواية إلى العالم، أكثر منه إلى وطن محدد «موطن الرواية هو العالم»، لأن الرواية منذ تكونها كسرت الحدود الأجناسية والجغرافية والمعرفية. منطلقا في تحديد النمذجة من المفاصل الكبرى الكامنة خلف النمذجة، ومن السياق التاريخي



الرواية باتت تُؤسس
لحالة ثقافية عربية،
تُحفز الدراسات للبحث
في أسباب هذا الاهتمام
المتزايد

لم تعد الرواية العربية
تتشكل من المُشترك،
والمرجع الواحد،
بقدر ما أصبحت ذات
علاقة بسياقها الذاتي،
وتحولات مجتمعها



لنشوء الرواية، والتي يعتبرها نتاجا للازدواجية الناتجة عن التوتر بين التاريخ-الميراث، والهوية الأجناسية لفن الرواية.

أما الناقد الجزائري، الدكتور عبد القادر شرشار، فيتعرض في ورقته «الرواية العربية: مسار مثقل وتحديات كبرى» إلى التحولات الفنية التي عرفتها الرواية العربية وعلاقتها بالتحولات التاريخية، خاصة ذات البعد السياسي، مما أثر في مفهوم الكتابة، والشكل الروائي. والرواية اليوم، تواجهها عدة تحديات خاصة مع المد الرقمي، إلى جانب إعادة طرح أسئلة الهوية والوطن والمواطنة والعدل والديمقراطية، ومختلف الشعارات التي خرج الشعب العربي يطلبُها.

ويرصد الناقد والباحث العراقي، الدكتور نجم عبد الله كاظم، مظاهر «المتغيّرات والتجديد في الرواية العربية المعاصرة»، بدءا من المضامين التي تعرف تحولات، سواء بالنسبة إلى المضامين المألوفة، والتي تُعيد الرواية العربية طرحها بتناول ورؤية جديدين، أو مضامين جديدة تقترح الرواية التطرق إليها، بكل جرأة خاصة مع التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي تعرفها المجتمعات العربية خاصة مع التحولات السياسية؛ إضافة إلى المتغيرات في الشكل والتقنيات.

لقد شكلت الثورات العربية بؤرة تحول للرواية العربية، حسب الناقد والكاتب السوري هيثم حسين في دراسته «الرواية العربية في مهب التحولات التاريخية»؛ فالروائي العربي يستثمر، برأيه، الشكل الروائي لقراءة ما يحدث، وإنتاج وعي مما حدث. أما الروائية العراقية لطفية الدليمي، فترى في حوار هذا الملف أن الرواية العربية أصبحت لها سياقات واضحة ومتعددة، وأثبتت أنها نص الحاضر والمستقبل، وأنها جزء أثير في حركة الحداثة المحاصرة في بلداننا العربية، فهي تقاتل وتتحدى وسط أنواء التراجع والتخلف المجتمعي.

وتشير الروائية العراقية إلى أن «الاستسهال يطغى على مشهد كتابة الرواية بسبب وفرة الجوائز، وميادين التنافس حتى صار من الممكن أن يكتب أي شخص رواية دون أن يكون متوفرا على المعرفة والخبرات السردية والقدرة اللغوية المتجددة والوعي. وأغرقت السوق بأعداد هائلة من الروايات التي لا تخضع لأي مستوى من التقييم؛ لأن أصحابها يدفعون مبالغ مالية للناشرين، فتحولت عملية النشر إلى تجارة مربحة يتشاركها الناشر وبعض هواة الشهرة».

إن الرواية العربية بوضعياتها المتعددة والمتنوعة، وبتحولاتها البنيوية التي تمس المضامين والأشكال والتقنيات، تضع النقد باعتباره خطاب التفكير في الإبداع الروائي أمام تحدٍّ كبير.

فهل النقد الروائي في التجربة العربية في مستوى هذا التحدي؟



إنَّ الكتابة الإبداعية ثورة ساعدت/وتساعد على كشف حقائق الحياة التي تتوارى خلف جزئيات اليومي والمألوف، والرواية بالذات ليست في النهاية كما يزعم البعض شغبا، ولا مشاكسة، ولا نصوصا ماكرة، ولكنها- وبكل بساطة - إفراز فني، يجعل من العرضي والزائل لحظة خالدة في ذاكرة الشعوب، مهما اختلفت ألوانها وعقائدها ولغاتها. ولعله لهذا السبب، يعتبر رولان بارت «الكتابة شكلا من أشكال تحويل المعرفة إلى احتفال دائم، حيث تجعل من العرضي الزائل لحظة خالدة في التاريخ الإنساني». فهل مسار الرواية العربية المثقل والمتعثر - أحيانا - يؤهلها لتكون جزءا من هذه الذاكرة الإنسانية؟ وما نوع التحديات التي تواجهها على مستوى بنيتها ومنطق اشتغالها الفني، وما يهددها في ظل تنامي عصر الرقمنة إن هي لم تجدد أدواتها..؟

التحولات الكبرى للرواية العربية:

عرفت الكتابة الروائية، باعتبارها ظاهرة أدبية وثقافية، تحولات بنيوية كبرى في مسارها المثقل بأزمات متنوعة، شأنها في ذلك شأن كل ظاهرة اجتماعية أو فنية تعرف نموا مطردا، وقد انعكس هذا التحول على طبيعة الرواية ذاتها، باعتبارها جنسا شديد الحساسية، لا يستقر على حال، يمكن به الوقوف على

الرواية العربية: مسار مثقل وتحديات كبرى

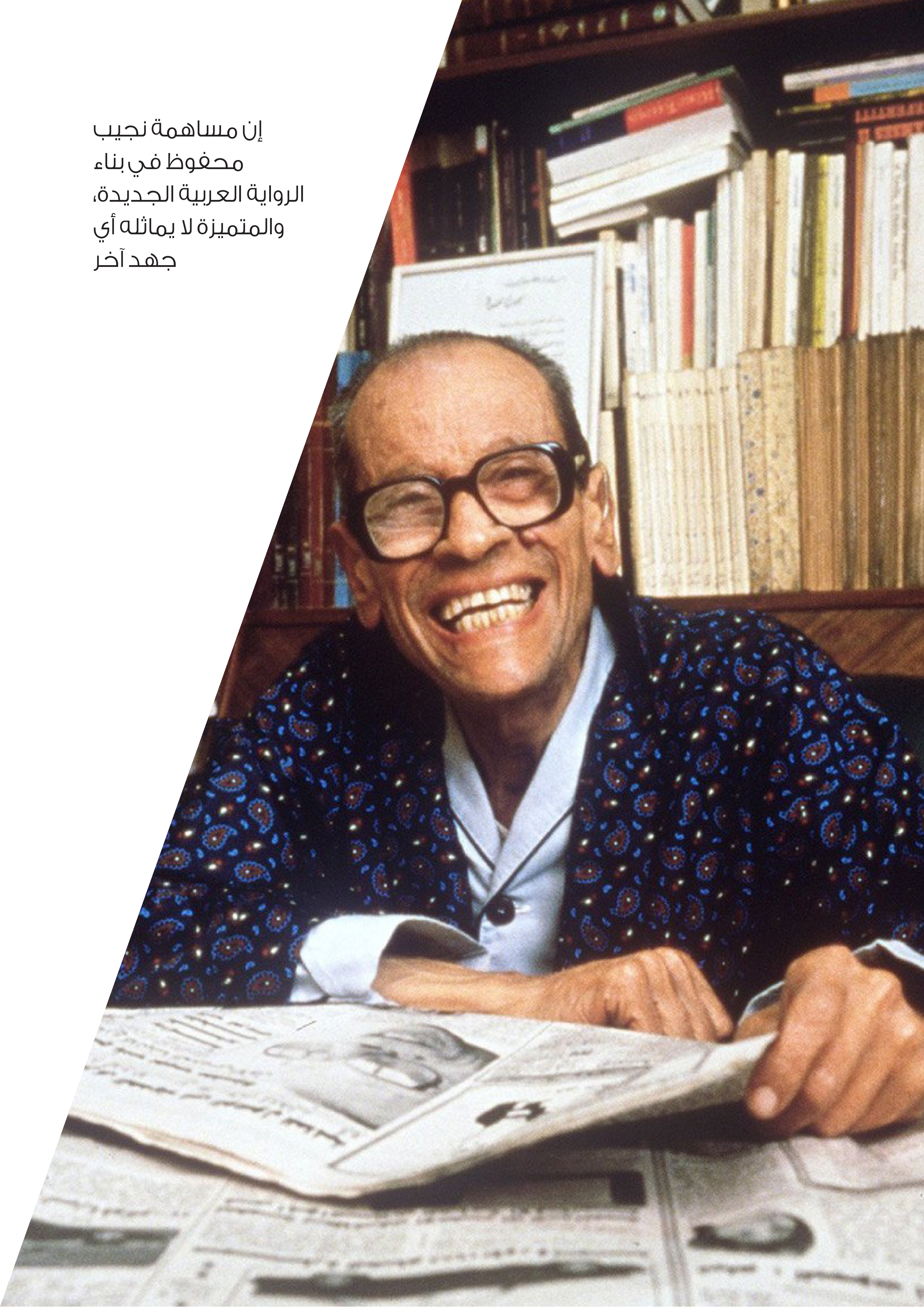


بقلم: د. عبد القادر شرشار

كاتب وناقد جزائري



استفادت الرواية العربية
عبر فترات تطورها في
العقود الماضية، من
التطور الكبير الحاصل
في الرواية الغربية



إن مساهمة نجيب
محفوظ في بناء
الرواية العربية الجديدة،
والمتميزة لا يماثله أي
جهد آخر

مدى ملاءمة هذه الكتابات للحظة الحضارية الآنية، بما يحكمها من قوانين سياسية، اقتصادية، اجتماعية، نفسية وفنية.

ولعل ما يبرر- في نظر البعض- هذا التحول، تسارع انتشار الرواية العربية لارتباط نصوصها المتنوعة بمختلف التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي شهدها العالم العربي على الأقل منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى اليوم، أبرزها: موقع التخييل الروائي ضمن منظومة الخطاب الثقافي وقيمة الرؤية النقدية التي تربطه بالواقع المعيش. وقد نتج عن هذا الوضع ظهور تحديات باتت تواجه الرواية العربية، لا سيما وأنها اشتغلت منذ أكثر من ستة عقود أو يزيد برصد تحولات المجتمع العربي، وتصوير هشاشته أمام حركة الآخر المتسارعة، وإفراط في الدعوة إلى التجديد الشكلي، وممارسة أضرب التجريب بمختلف مظاهره، وتقنياته.

استفادت الرواية العربية عبر فترات تطورها في العقود الماضية، من التطور الكبير الحاصل في الرواية الغربية، من حيث الشكل والمضمون، وهو الذي ألقى بتبعات كثيرة على فن الرواية بوصفها رواية مدينية معنية برصد تحولات المجتمع والنقلات السريعة في البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل عام. وقد عرف مسارها سيرورة معقدة من اللحظات الجمالية الإبداعية المتشابكة والمتوترة، يمكن التمييز فيها بين الرواية العربية قبل وبعد نكسة يونيو/ حزيران ١٩٦٧، باعتبارها لحظة سياسية واجتماعية وفنية فارقة، لأنها جسدت بحق إيقاع الحياة في أكثر من فضاء عربي (قرى، أحياء شعبية، مدن، ساحات عمومية، فضاءات تاريخية..) بكل نغماتها واتجاهاتها ومفارقاتها، والتي لا حد لامتداداتها، بالإضافة إلى الفضاءات التخييلية المستوحاة من التراث الشعبي والموروث العالم.

يُعد التحول الذي عرفته الرواية العربية قبل النكسة من الرومانسية إلى الواقعية -بسبب ما طرأ على المجتمع العربي من تغييرات سياسية، واجتماعية، وثقافية- مرحلة جد مهمة في تطور الرواية العربية. فقد ظهرت في هذه المرحلة أصوات روائية كثيرة، مثل الطيب صالح، ونجيب محفوظ، وعبد الرحمن منيف، وحنا مينة، والطاهر وطار، وغسان كنفاني، وحيدر حيدر، وأميل حبيبي، وسهيل إدريس، وسحر خليفة، وغيرهم كثير. وظلت هذه الرؤية الواقعية مسيطرة على الإنتاج الروائي حتى حدوث اللحظة التاريخية الفارقة، نكسة يونيو/ حزيران ١٩٦٧، في الوقت الذي كانت فيه هذه الواقعية تحتضر في بعض الآداب التي خلقتها مثل الأدب الفرنسي والإنجليزي، وهي واقعية نقدية حسب (طه وادي)، «تعنى بنقد المجتمع من أجل الإصلاح والنهضة والتقدم من خلال تقديم نماذج إنسانية مأزومة، تعكس حركة المجتمع.»[١] وهذا يعني حسب ذات الناقد أن «المذاهب والأشكال الأدبية لا تستورد، ولا تنشأ في مجتمع من المجتمعات، إلا إذا كانت هناك ظروف اجتماعية وفكرية وفنية تسمح بوجودها.»[٢]

وقد أُطلق على شكل الكتابة الروائية بعد النكسة (الواقعية السحرية)، تميزا لها عن (الواقعية التقليدية)، ومن «خصائص الرواية في إطار هذه الواقعية الجديدة، الاعتماد على المفارقة الجادة، والسخرية الشديدة في تصوير البسطاء الذين يعيشون في الأحياء الشعبية، التي تمثل قاع المجتمع، أفراد هامشيون من صغار الموظفين، واللصوص، والنساء العاهرات، وتجار المخدرات، ومدمنوها..»[٣]

إن الميل إلى تصوير الواقع المحلي في القرى والأحياء الشعبية من المدن، واختيار نماذج إنسانية مسحوقة، تعيش على هامش المجتمع، وتفوق الوعي الأيديولوجي على الوعي الجمالي، واستلهام بعض تقاليد القص والحكي العربي القديم، بعدما سيطر الشكل الأدبي الوافد من نتاج الأجيال الواقعية السابقة، كان من السمات البارزة في مسار الرواية العربية.

وتُمثل رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ مرجعية مهمة في مسار الرواية العربية، نظرا لكونها أول إنجاز روائي له بعد ثورة يونيو/حزيران، «استطاعت اختراق الزمن وإذهال القارئ بموضوعها الديني فائق الحساسية وبنائها الفني الرمزي المؤسس على نقدية رمزية مغايرة عن أسلوبه الواقعي، حيث تحتفظ الذاكرة العربية بسجالات وتعليقات صاخبة حولها».[٤]

إن مساهمة نجيب محفوظ في بناء الرواية العربية الجديدة، والمتميزة لا يماثله أي جهد آخر، فبعد كتاباته الأولى، وكانت حول تاريخ مصر القديمة،

١- وادي طه، الرواية السياسية، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٩٤، ص: ٧٨
٢- المرجع السابق، ص: ٧٨
٣- نفسه، ص: ٧٣
٤- محمد العباس، كلاسيكيات الرواية العربية، جريدة القدس العربي (١٢ أوت ٢٠١٥)، الرابط:www.alquds.co.uk/



اكتشف المنجم الحقيقي: الحي الشعبي، والحياة الشعبية، وظل ملازما لهذا المناخ، مع تنويع غني، وتجديد مستمر، وبذلك وضع الأسس الحقيقة للرواية العربية.

أما رواية «وكالة عطية»؛ فهي من أعمق ما كتب خيري شلبي، يرصد فيها لواقع مجموعة من المهمشين، ويعرض علينا تناقضاتهم، ويرسم حيواتهم بدون ألوان أو أصباغ، وبمهارة لا يدانيه فيها أحد. كما قدم لوحات فنية رائعة لحارات وأزقة المدينة القديمة (دمنهور)، ومقابر وأحياء القاهرة، امتزج فيها الواقع بالخيال.

يقدم خيري شلبي من خلال نصوصه الروائية، وبخاصة» وكالة عطية» وقائع لا يخبرها إلا هو، أحداثا لم تسرد إلا عبر هذا التاريخ الشخصي الذي يقدمه. كما يصرح أحيانا - في بعض نصوصه - أن ذلك جزء من سيرته الذاتية، ويلمح في كثير من الأحيان إلى ذلك. وتبقى في الحالتين تجربته ومعرفته وخبرته هي المعول عليها في صنع الرواية.

وتُعدّ رواية «سابع أيام الخلق» للروائي العراق عبد الخالق الركابي، إضافة نوعية مهمة للرواية العربية، لما تمتاز به من خصائص فنية على مستوى البناء والسرد. استثمرت جملة من المعارف، كالأسانيد التراثية، والمعارف الصوفية، وتحديدا نظرية وحدة الوجود، بالإضافة إلى استثمار الموروث الشعبي لبعض مناطق العراق، مما جعلها نصا مكتفيا بذاته دون إحالات إلى ما سبقها من أعمال.

وتحضر أسماء مهمة كإبراهيم نصرالله وسحر خليفة وإميل حبيبي ورشاد أبو شاور وجبرا إبراهيم جبرا وغيرهم، عند الحديث عن القضية الفلسطينية، والصراع العربي الصهيوني، إلا أن القارئ العربي يجد ضالته عند غسان كنفاني، على الرغم من الوعي بالبعد الإنساني، والنضج الفني الكبير في روايته «عائد إلى حيفا»، «إلا أن روايته «رجال في الشمس» الصادرة عام ١٩٦٣ تبدو أكثر حضوراً وتأثيراً، إذ ما زال صدى العبارة الشهيرة «لماذا لم يطرقوا جدران الخزان؟» يتردد عند القراء والنقاد كأشهر جُملة في الأدب الفلسطيني وأكثرها قابلية للتأويل، لدرجة أنها تخضع بين آونة وأخرى لقراءات تحليلية تعيد للرواية وهجها، فهي رواية تطرح تأثيرات النكبة وعذابات «الدياسبورا» الفلسطينية، ويمكن اعتبارها بمثابة الصرخة التي تتردد أوجاعها من بين خيام التشرد، وهو الأمر الذي يدعو القراء والدارسين إلى اعتبارها مرجعية لوعي جوهرانية القضية الفلسطينية.»([٥])

تقع أغلب النماذج المذكورة أعلاه ضمن إطار زمني معاصر للنكبات والهزائم المتتالية التي عاشتها المجتمعات العربية منذ نهاية الستينيات إلى اليوم، تغير فيها مفهوم الكتابة، ومفهوم التلقي، كما طرحت فيها أسئلة كثيرة، لعل أهمها: مغامرة الشكل الروائي بكل ما تحمله هذه المغامرة من دلالات الاختراق والتهديم المستمرين؛ وفق مبدأ» التجريب» في إطار العلاقة بين الذات والكتابة، ومساءلة القيم الجديدة للغة، وتحديد علاقة الرواية بالمرجع، وعلاقة الرواية بالتراث. وأفضت جملة التحولات التي عرفتها الرواية العربية في هذه المرحلة إلى تناسل العديد من التوجهات الفنية الجديدة التي طرحت بدورها أسئلة كثيرة على فعل الكتابة، لاسيما وأن أغلب هذه النماذج تجاوز رهان الكتابة الذي تحكمت فيه شروط المعرفة المتاحة في تاريخ الوطن العربي، والتي كانت تستمد مقوماتها من الأنساق الفكرية والأيديولوجية المتصارعة آنذاك؛ كالماركسية والوجودية والليبرالية، وإن كانت بعض الآثار بقيت مترسبة في بعض النصوص.

وهكذا؛ شكلت هذه النصوص الروائية، مدونة، لا يمكن الاستغناء عنها لكل باحث يريد التماس المسار الفني والموضوعاتي في المنجز الروائي، وإن كان ذكرها ورد بإيجاز شديد، لأن التفصيل والتمثيل لهما أمران لا تتسع لهما هذه العجالة. وربما تتيح هذه النماذج - على قلتها- إمكانية مناقشة راهن الكتابة السردية في الوطن العربي، كما تعكس عمق التحولات الفنية، وطبيعة المتخيل الذي تشتغل عليه.. لذلك، فإن قراءتها - من جديد - تمكن من تكوين فكرة حول تطور الفكر العربي، لأن الرواية ليست مجرد شكل أو تقنيات، بقدر ما هي وجهة نظر حول الذات والعالم المحيط بها. وهذا يعني من وجهة نظر الناقد محمد العباس أن «الرواية تتخلّد عندما تتوالى القراءات عليها وتتراكم عبر أجيال وأمزجة ومتغيرات زمنية وجمالية وموضوعية، فتكون كل قراءة بمثابة اكتشاف لمكمن جوهري في الرواية...تتوطن في الذاكرة الجمعية العربية كمرجعية أدبية بعد أن تتخطى بموضوعها وتأثيرها الإقليم الذي تولدت فيه».([٦])

٥- مرجع سابق، الرابط:www.alquds.co.uk/

٦- مرجع سابق، الرابط:/www.alquds.co.uk/





الرواية كما هو حال كل
نص إبداعي آلة مولدة
للتأويلات، وعلى الروائي
أن يموت لكي لا يشوش
على مصير نصه



إن طبيعة الأسئلة التي يطرحها الخطاب الروائي العربي في الظروف الراهنة من تاريخنا الاجتماعي والثقافي والسياسي قاسية في أغلبها

وحسبي أن ما هو أساسي في استطلاع وتقفي هذه الظاهرة في مختلف أطوارها، وعبر مسارها المثقل، لا يقود إلى هذه التجربة في ذاتها، ولا إلى مادتها، ومضامينها، وتأويلاتها الممكنة، والمستحيلة أحيانا. إن ما هو أساسي يعود إلى التصور الإبداعي الذي يجعل من النص فرجة معرفية لا تنتهي، أو يحوّل المعرفة إلى وضعيات إنسانية ترق إلى تجاوز اللحظة العرضية الزائلة على حد تعبير أمبرتو إيكو.(٧)

وربما نستبق القول حول هذه «الظاهرة الفنية والثقافية»، فنزعم أننا لا نعثر في نصوص الرواية العربية ومسارها المثقل بالأزمات على مفاتيح تفيدنا في فهم وتوضيح ما استغلق منها. ولذلك، لا ندعي أننا نقدم قراءة خاصة أو تأويلا صحيحا ووحيدا لهذه الطفرة النوعية التي تشهدها الرواية العربية اليوم، وما صاحبها من نقاش كبير بين المهتمين بهذا الجنس الأدبي من نقاد الأدب وسيكولوجيين وحتى بعض رجال الفكر الديني، وعلماء التاريخ والسياسية، وغيرهم من ذوي الاختصاصات ذات الصلة بحدود هذا الجنس الأدبي ومحدداته الفنية الذي أصبح يستقطب اهتمام كثير من التخصصات في العلوم الإنسانية. وادعاء مثل هذه المعرفة أمر مستهجن، وهو في جميع الحالات أمر يرفضه المنطق، أحرى أن يقبل به دارس مهنته هي التأويل. فالرواية كما هو حال كل نص إبداعي «آلة مولدة للتأويلات، وعلى الروائي أن يموت لكي لا يشوش على مصير نصه،» كما يزعم أمبرتو إيكو في حاشيته على اسم الوردة.(٨)

يشير كثير من نقاد السرديات العربية الحديثة والمعاصرة إلى أن الرواية العربية عرفت تحولات كبرى في الألفية الجديدة، خصوصا ما تعلق منه بالتحول البنيوي داخل منطق الجنس الروائي الذي عرف تطورا في بنائه وتكونه الداخلي، كما حدثت تحولات أخرى على صعيد المنجز الكمي للإصدارات ونسبة المقروئية. ولعل ما يبرر- في نظر البعض- هذا التحول، تسارع انتشار الرواية العربية لارتباط نصوصها المتنوعة بمختلف التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي شهدها العالم العربي على الأقل منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى اليوم، أبرزها: موقع التخييل الروائي ضمن منظومة الخطاب الثقافي وقيمة الرؤية النقدية التي تربطه بالواقع المعيش. وقد نتج عن هذا الوضع ظهور تحديات باتت تواجه الرواية العربية، لا سيما وأنها اشتغلت منذ أكثر من ثلاثة عقود أو يزيد برصد تحولات المجتمع العربي، وتصوير هشاشته أمام حركة الآخر المتسارعة، وإفراط في الدعوة إلى التجديد الشكلي، وممارسة أضرب التجريب بمختلف مظاهره، وتقنياته.

لم تكن الرواية العربية التي شغلت الأوساط الأدبية والفكرية في العالم العربي زهاء عقدين، أو ينقص أو يزيد عليه قليلا منذ (أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١) إلى اليوم تيارا أو مدرسة أو حركة بالمعنى التقليدي للمصطلح، إذ لم تخضع نفسها على غرار ما درجت عليه المدارس الأدبية في السابق لمبادئ أدبية أو فلسفية أو أخلاقية، أو حتى أيديولوجية سياسية كـ(الواقعية الاشتراكية والأدب الملتزم وغيرهما)، بل على العكس من ذلك، شكلت الرواية العربية لحظة انفلات وانعتاق من الأشكال التي غالبا ما كانت تنتهي إلى تقييد الكتابة في أصول ومبادئ تقيم حدودا وحواجز للإبداع الأدبي والخيال. فالظاهرة التي نتحدث عنها لا تعكس بالضرورة الخصوصية التي تطبع كل عمل روائي، ولكن يوجد قاسم مشترك بينها، وهو التمرد على الجذور الفنية والقيود، لعل هذا ما يفسر ذلك الكم الهائل من كُتّاب الرواية. وينظر بعض نقاد الرواية اليوم بسلبية كبيرة إلى هذا الجيل من كتاب الرواية، فيزعم أحدهم أن هذا الجيل «لا ينتمي إلى سلالة أدبية، ولم يتأسس ضمن مدارات إبداعية بقدر ما استأنف الكتابة من منصة الحداثة الاجتماعية التي لا تخضع لمرجعية النص باشتراطاته الأدبية، وثقل قضاياه الموضوعية، إنما تتجاوب مع مقتضيات التعبير عن الذات والوجود الشخصي».(٩)

ومن جهتنا، نعتقد أنها أحكام قيمة (متسرعة)، لا تشمل بالضرورة كل المنتوج الروائي، لأن الواقع يؤكد غير ذلك، إذ تشهد اليوم (رواية الجيل الجديد) اهتماما متزايدا، ليس -في أغلبه- كتابة وإصدارات، وإنما دراسة ونقدا ومتابعة، الأمر الذي أغرى الكثير من المبدعين الشباب للانخراط في الكتابة الروائية، ودفع ببعض الشعراء المتمرسين في كتابة الشعر إلى تغيير مجال اهتمام كتاباتهم.

التحديات الكبرى:

٧- Umberto Eco, Apostille ou «Nom de la rose», P ١.

٨- أمبرتو إيكو، حاشية على اسم الوردة، آليات الكتابة، ترجمة وتقديم، سعيد بن كراد، ص: ٣٠

٩- محمد العباس، (سقوط «لاهوت» الرواية)، جريدة القدس العربي، ٢ سبتمبر ٢٠١٥، الرابط: www.alquds.co.uk/

إن طبيعة الأسئلة التي يطرحها الخطاب الروائي العربي في الظروف الراهنة من تاريخنا الاجتماعي والثقافي والسياسي قاسية في أغلبها، وباعثة على الكثير من الأسى والحزن، «يبدو معها المجتمع العربي سجين يقينيات ماض مليء بالانكسارات ومستقبل يصنعه المجهول. لم تتحول أوضاع مجتمعنا العربي من قرن إلى قرن اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، ولأن سؤال الأدب من سؤال المجتمع(؟)، فإن الحدود النظرية التي تستدعيها هذه العلاقة تفرز بدورها عدة مفارقات توحي بوضع قلق يكاد يشكك من حين لآخر في جدوى الأدب وفضائله بالنسبة إلى مجتمع لا يتقدم ولا يتطور، ويجازف بكل القيم النبيلة أمام انتشار الأمية، وانحصار تداول الكتاب، هذا عدا تضييق مجال الحريات وانتهاك حقوق الإنسان، وافتقاد الديمقراطية، وبروز خطاب التعصب وانحصار خطاب التعقل».[١٠]

وأحسب أننا لا نبتعد- بهذه الوجهة النقدية - عن فرضية علاقة الأدب بالأبعاد السياسية والفكرية والإنسانية، ولكن هذه العلاقة ليست آلية، ولا متوازية، إنها علاقة مركبة، معقدة، متعددة الأطراف، تؤدي إلى محصلة ثقافية تشارك هي نفسها في الصراع، على اعتبار أن الأدب ليس عالما سحريا مغلقا، بل هو جزء من الثقافة الإنسانية يتميز بخصائصه التي ينفرد بها. ومهما كانت طبيعة الأدب ووظيفته، فإن ذلك لا يمنع من أن يرتبط بالخلفيات التي أسهمت في تكوينه مهما كانت نسبة تأثيرها، فهي في مجموعها تشكل الوجدان الذي يمتح منه المبدع لا على الصورة التي يتمايز بها الأفراد والمجتمعات، ولكن وفق الصورة التي يصوغها الروائي، وهو في لحظة الإبداع.[١١]

تنتظر الرواية العربية تحديات كثيرة، تحدد وضعيتها، وتستشرف أفقها، من خلال علاقتها بالنقد الأدبي. وفي هذا السياق، تطرح الناقدة المغربية (زهور كرام) أسئلة في غاية من الأهمية، تكشف من خلالها التحديات التي تواجه راهن ومستقبل الحوار التفاعلي بين النقد الأدبي ومستجدات الكتابة الروائية، ويتعلق الأمر في ما تطرحه بـ «مدى قدرة النقد على مواجهة الكتابات الجديدة بأسئلة مختلفة ومناهج جديدة، وإلى أي حد يمتلك النقد الجرأة الفكرية والفلسفية والمنهجية على تطويع نظرياته، وتطوير آلياته ومفاهيمه وتصوراته، من أجل حوار تفاعلي مع مستجدات الأدب، حتى لا يكون علة أمام تطور الأدب، أو عائقا أمام تحرر الكتابة من الأشكال المألوفة.»[١٢]

ومن جهة أخرى، وفي إطار صياغة جديدة لمنطق التلقي خارج ثقافة الاستقبال الروائي المألوف، تعرف الرواية العربية الراهنة تحديات جديدة، تفرضها الثقافة العصرية، وما تعلق منها بآفاق التجريب في الرواية ومدى استثمار التكنولوجيا (السرد الرقمي) لتطوير المنجز السردي العربي. وفي هذا السياق بالذات، يطرح الناقد المغربي (سعيد يقطين) رؤيته حول التحديات الجديدة التي يتوقعها لمستقبل الرواية الجديدة على مستوى بنيتها، واشتغالها الفني، وما يهددها في ظل تنامي عصر الرقمنة، إن هي لم تجدد أدواتها، ويعتقد أن «الروائيين العرب لم ينخرطوا في تجريب «كتابة» جديدة تستفيد من المنجزات التي تقدمها الوسائط المتفاعلة مع الحاسوب الموصول بالفضاء الشبكي، فكان تعاملهم معها باعتبارها «وسيلة» فقط، وليس فضاء للإنتاج والتلقي، فانحسرت التجربة، ولم تتطور لتصبح واقعا يجعلنا نتحدث عن «رواية رقمية» عربية بالملامح التي نجدها في الروايات الأجنبية التي استفادت من هذه التكنولوجيا».[١٣]

ويبقى على الرواية العربية أولا وأخيرا«أن تواجه نفسها من جديد، وتعيد صوغ وعيها للذات وللعالم، أن تطرح سؤال الهوية من جديد بعدما تهاوت النظريات والأيديولوجيات القومية وغيرها. عليها طرح أسئلة الوطن والمواطنة، أسئلة الصديق والعدو، أسئلة الشعارات التي خرج الشعب يصرخ بها من عدالة وحرية وديمقراطية، أسئلة الهوية الجديدة التي يجب أن تُصاغ وفق ما يخدم الإنسان والوطن..».[١٤]

١٠- مجموعة من الباحثين، أبحاث في الرواية العربية، تنسيق: شعيب حليفي وعبد الفتاح الحجمري، منشورات مختبر السرديات، ٢٠١٥، (مقدمة الملف)

١١١١- عبد القادر سرشار، خصائص الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي- الصهيوني، دراسة تحليلية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (٢٠٠٥)- ص: ٢٩

١٢- زهور كرام، تحديات النقد: نجيب محفوظ والقراءة الجديدة، جريدة القدس العربي، (٢ فبراير ٢٠١٥)، الرابط: www.alquds.co.uk/

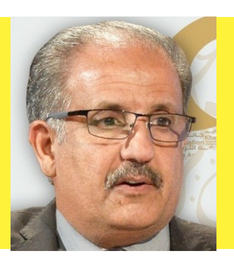
١٣- سعيد يقطين، واقع الرواية العربية ومشكلاتها في ندوة بالدوحة، الموقع الإلكتروني: http://www.aljazeera.net/news/cultureandar(٢٠١٥/٠٥/٢٠)

١٤- سوسن جميل حسن، الرواية السورية أمام تحديات الراهن، جريدة الحياة (٣٠ يوليو/تموز ٢٠١٤) http://alhayat.com/Articles




صدر حديثا

المتغيّرات والتجديد في الرواية العربية المعاصرة



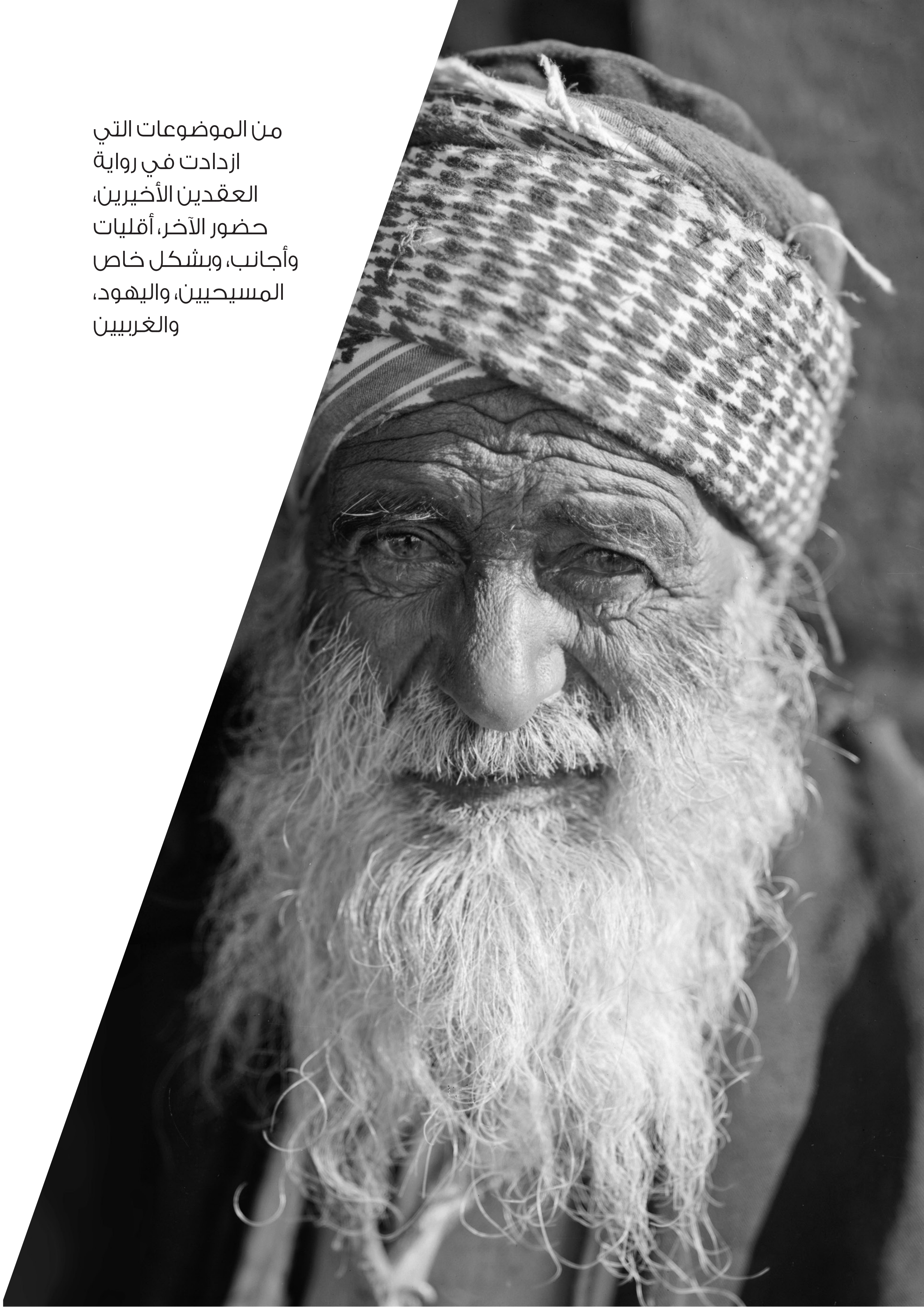
بقلم: د. نجم عبدالله كاظم
ناقد وأكاديمي عراقي

مَعروف أن الرواية هي فن المدينة، ولما كان مجتمع المدينة بطبيعته أكثر أنواع المجتمعات تجدّداً وممارسة للتغيير واستجابة للتحوّلات، فقد كان من الطبيعي أن تُعنى الرواية بهذه التجدّدات المدينية والمتغيّرات والتحوّلات فيها. والرواية العربية ليست استثناءً من هذا التعميم الصحيح إلى حد كبير، فهي كانت دوماً مستجيبة لذلك، وخصوصاً لما شهده المجتمع العربي، من تحولات ومتغيّرات، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية والخمسينيات ولحد الآن. ولأن هذه المتغيرات والتحولات المدينية التي تستجيب لها الرواية، هي موضوعات أولاً وأساساً، فقد كان أكثر ما وقع من متغيرات في الرواية العربية خلال السنوات القليلة الأخيرة، هو ما جرى على المضامين، وهو برأيي الأهم أيضاً ما بين المتغيرات المختلفة.

وقد توزّعت هذه المتغيرات على التوسع في موضوعات موجودة أصلاً؛ وموضوعات موجودة أصلاً بدورها، ولكنها معالَجة بأشكال جديدة؛ وموضوعات جديدة كلياً أو شبه جديدة. ولتداخل هذه الموضوعات فيما بينها، فإننا سنتناولها معاً. أما أهمها، فهي ما شملها خرق التابو أو المسكوت عنه، في السياسة وأكثر من ذلك في الدين، والأكثر في المرأة والجنس. ففيما يتعلق بالمرأة والجنس، من المفيد أن نقرّ بأن هذا مما قدّمته الرواية العربية من قبل، ولكنه غالباً ما كان يتم بشكل خجول من غالبية الروائيين. أما أهم من يعود إليهم فضل الريادة في خرقه عربياً بسعة وبمعالجات صريحة وجديدة، خصوصاً حين يكون جاداً وليس رخيصاً أو مثيراً، هما كاتبتان مهمتان إحداهما فاطمة المرنيسي، ولأن نشاطها لم يشمل كتابة الرواية، لسنا معنيين بها هنا. أما الثانية، فهي نوال السعداوي التي تنوّع نشاطها كثيراً وشمل، من ضمن ما شمله، كتابة الروايات التي اقتربت من العشرين. المهم أن الاثنتين تبنّتا وجهة النظر الأنثوية التي تبنتها حركة النساء الجديدة التي ظهرت نهاية الستينيات. وكما يقول هشام شرابي، «قامت نوال السعداوي بمواجهة جريئة في كتابها (المرأة والجنس)، فلم تُثر النواحي الاجتماعية والاقتصادية لتحرر المرأة فحسب، بل عالجت أيضاً النواحي الجنسية»، مما انعكس في رواياتها وبعضها يعود إلى المدة التي ندرسها، مثل رواية «إنه الدم» - ٢٠١٤ - ولكن ما قد تختلف فيه جزئياً هذه الرواية وروايات أخرى عن روايات سابقة أنها قدمت امرأة لا من ناحية الجنس، بل من ناحية رفضها للأبوية بأنواعها. فـ (فؤادة) مثلاً صحفية متمردة لا توافق على الانحناء للآخرين، كما قد يفعل غيرها نساءً ورجالاً. ويقترب من هذا موقف وفعل بعض نساء رواية العراقي برهان الخطيب «ذلك الصيف في إسكندرية» - ١٩٩٨ - ولاسيما (بهية) التي تقوم بما هو تعبير انتفاضي عن موقف أنثوي لامرأة تحس أنها مسلوبة الذات والهوية وربما الوجود، فتثور على




يعود
فضل الريادة
في خرق التابو عربياً
بسعة وبمعالجات صريحة
وجديدة، لنوال السعداوي
وفاطمة المرنيسي



من الموضوعات التي
ازدادت في رواية
العقدين الأخيرين،
حضور الآخر، أقليات
وأجانب، وبشكل خاص
المسيحيين، واليهود،
والغربيين

التدجين والتهميش والتغييب ونزع الهوية بوصفها امرأة، وتنجح في إقناع زوجها بموقفها، وفي النتيجة ستنجح في فرضه على الآخرين. وتقترب من بطلتي هاتين الروايتين، (منى) في رواية المصرية منى الشيمي «بحجم حبة عنب» - ٢٠١٤. أما المصرية رشا سمير، فتنحاز، في روايتها «جواري العشق» - ٢٠١٤ - للمرأة، وهي تكشف زيف ادعاء الرجل بالتحرر والتحضّر، وكل ذلك عبر إبحار وبنَفَسٍ طويل في التأريخ وعبر أجيال من الرجال والنساء، تتنقل عبرهم المواقف من المرأة والحرية.

لكن ما فعلته نوال السعداوي وهؤلاء الروائيون، لم تفعله هي وكاتبات أخريات وكتّاب آخرون في أعمال أخرى، حين اخترقوا مساحة الجنس، سواء (المتاحة) منها أو غير (المتاحة)، إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير، وبغرض التعبير عن الموقف أحياناً، وبغرض الإثارة المجردة أحياناً أخرى. فمن روايات القسم الأول، نعني التي اخترقت المحظور الجنسي والمسكوت عنه بغرض التعبير عن الموقف وبنضج وتبرير موضوعي وفكري، وفي النتيجة حققت الإقناع نذكر «أشجار البراري البعيدة» - ١٩٩٤ - للقطرية دلال خليفة، التي استطاعت أن تتخطى بعض محظورات العرب بوعي ونضج حين قدمت علاقة حب ما بين بطلتها العربية (نورة) والإنجليزي (دونالد) وكل ذلك بدون اضطرار للتعامل مع الجنس المكشوف، كما فعل البعض. ومن الروايات الأخرى التي فعلت هذا أو اقتربت منه «الطلياني» - ٢٠١٤ - للتونسي شكري المبخوت، وإلى حد ما «الميراث» - ١٩٩٧ - للفلسطينية سحر خليفة، و«حلم وردي فاتح اللون» - ٢٠٠٩ - للعراقية ميسلون هادي، و«مملكة الفراشة» - ٢٠١٣ - للجزائري واسيني الأعرج. وقد لا يتوقف بعض الكتّاب في تعاملهم مع الجنس عند حدود، ولكن متى ما وجدوا في ذلك ما يصب في فائدة الرواية، أو متى ما كان هو بحد ذاته مادتها أو موضوعها، وهو ما نجده في روايات؛ مثل «الفشل في النوم مع السيدة ن» - ٢٠١٤ للمصري ممدوح رزق.

أما تعلّقاً بروايات القسم الثاني، نعني التي اخترقت المحظور الجنسي والمسكوت عنه بسطحية أو بغرض الإثارة، وغالباً ما حققتها، فهو برأينا يكون بفعل دوافع وعوامل منها: طبيعة شخصية الكاتب، والهوى والرغبة في البروز، وتقليد أعمال غربية تعاملت مع الجنس المكشوف، والرغبة بالفوز بالجوائز والترجمة والوصول إلى الغرب. من هنا رأى أحد النقاد محقّاً عن رواية «بنات الرياض» - ٢٠٠٥ - للسعودية رجاء الصانع، مثلاً، فإن ما حققته هو ضجيج إعلامي لرواية ساذجة فنياً، مثلها في ذلك مثل رواية «برهان العسل» - ٢٠٠٨ - للكاتبة السورية سلوى النعيمي؛ بل نحن لا نستبعد حتى بعض ما أظهرته حنان الشيخ من قبل في «حكاية زهرة» - المنشورة عام ١٩٨٠ - وغيرها مما أثار هوساً من الرجال وتطبيلاً من النقاد الذكور، بينما تنزوي روايات، مثل «أشجار البراري البعيدة» لدلال خليفة المذكورة آنفاً التي هي باعتقادي كانت أجرأ من حنان الشيخ، ولكنها أكثر تأنّياً في معالجة موضوعها وأكثر إقناعاً وجمالية، ولم تُضطر إلى أن تفعل ما فعلته الكاتبة السابقة. هو الهوس الذكوري الأبدي، أو ربما هي الغريزة، أو هو مرض الرجل العربي، الذي إذ لم يستهدفه، مثلاً، العراقي فؤاد التكرلي مع أنه كان صريحاً في تعامله مع الجنس في غالبية أعماله، فإن آخرين فعلوا ذلك مثل العراقي الآخر زهير الهيتي في رواية «الغبار الأمريكي» - ٢٠٠٩ - الذي يبدو الراوي الروائي فيها مهووساً بالجنس والجسد وتعرية المرأة، والتونسي الحبيب السالمي «عواطف وزوّارها» - ٢٠١٣ - الذي نحسه يتعامل مع الجنس بما يقترب من الهوس وتحديداً حين لا تكون له من فائدة فنية ومضمونية للرواية.

أما أحلام مستغانمي، فهي لم تضطر إلى فعل الكثير من هذا، بل هي وجدت السبيل إلى تحقيق الإثارة والانتشار وإقدام الشباب على (شراء) رواياتها، أقصر وأسهل من التضحية بالنص وجدّيته، حين لجأت إلى العنوان، فكانت «عابر سرير» - ٢٠٠٣، وقبلها بعشر سنوات «ذاكرة الجسد»، بعناوين نكاد نتخيّل كيف أسالا، وهما لكاتبة أُنثى، لُعابَ آلاف القراء العرب. ولا تبتعد عن هذا كثيراً ما فعلته السعودية رجاء العالم مع عنوان روايتها السابقة «بنات الرياض.»

(١)

من المتغيّرات التي نرصدها في بعض روايات العقدين الأخيرين، ويتعلقان بالمسكوت عنه ولاسيما الجنسي، الرجوع إلى التاريخ القديم والحديث وحتى المعاصر واستلهامه، ولكن ليس من خلال المعلن والمكتوب الرسمي منه بوصفه تاريخاً، ولكن بالبحث عن المسكوت عنه، نساءً وجنساً، وديناً، وهو ما فعله كتّاب مثل العراقي علي بدر في عدة رواياته، ومنها «الجريمة، الفن، وقاموس بغداد» - ٢٠١٠ - التي تعيدنا إلى بغداد العصر العباسي، وتحديداً من خلال ما تُسمى «الطائفة الخواجية»؛ واليمني حبيب سروري في روايته



«ابنة سوسلوف» - ٢٠١٤ - التي استحضر فيها التأريخ المعاصر لليمن، ووظف ما يبدو أنهُ تخيّلَهُ مسكوتاً عنه سياسياً؛ والمصري أحمد مراد في رواية «١٩١٩» - ٢٠١٤ - التي يستحضر فيها ثورة ١٩١٩ مع توغل في ما لم يُعنَ به التاريخ الرسمي من الحياة الخاصة لبطلها سعد زغلول؛ والفلسطيني علاء حليحل الذي ذهب، في روايته «أورفوار عكا» - ٢٠١٤ - إلى الجانب الدموي في بعض تأريخ فلسطين؛ والسوداني حمور زيادة في روايته «شوق الدرويش» - ٢٠١٤ - التي انتقى فيها، من ضمن ما انتقاه من التأريخ السوداني، بعض المسكوت عنه المتعلق بالآخر والعلاقة به؛ واللبنانية جنى فواز الحسن في روايتها «طابق ٩٩» - ٢٠١٤ - التي تجرّأت على الدخول في عمق العلاقة ما بين الفرد اللبناني والفرد الفلسطيني في ظل ما انطوى عليه من سلبيات ودم في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي؛ والجزائري واسيني الأعرج في روايته «مملكة الفراشة» - ٢٠١٣ - التي تشكّل عندنا صرخة على ما شهده التأريخ الحديث للجزائر ولم يُسجَّل تماماً؛ والمغربي محمد برادة، في روايته «بعيداً من الضوضاء، قريباً من السكات» - ٢٠١٤ - التي ينكشف فيها الكثير من مسكوت السياسة والجنس.

ويحاول المغربي عبد الإله بن عرفة، في روايته «ياسين قلب الخلافة» - ٢٠١٣ - أن لا يرجع إلى التأريخ فقط ولا إلى كشْف المسكوت عنه، بل توظيف ذلك، ليسوّق لعودة دولة الخلافة الإسلامية. أما لينا الحسن، فهي، في روايتها «ألماس ونساء» - ٢٠١٤ - ذهبت بعيداً في تعاملها مع التأريخ، حين سعت إلى كشف الغطاء عن جميع أنواع المسكوت عنه والممنوع والمحظور و(المعيب) فيه، من أحداث ساسة وسياسة وخفايا اجتماعية وحياة نساء وشخصيات أخرى، أطلقتها من محبسها الكتابي والتاريخي والوثائقي، وقد استوعبته في متخيّل انبنت عليه الرواية.

من الموضوعات التي ازدادت في رواية العقدين الأخيرين، حضور الآخر، أقليات وأجانب، وبشكل خاص المسيحيين، واليهود، والغربيين. فمن الروايات التي تناولت الأقليات عموماً رواية «أيوب شاهين» - ٢٠١٠ - للعُماني سالم آل تويّه التي التمّت فيها جل طوائف سلطنة عمان وأقلياتها القومية. ومن الروايات التي قدّمت المسيحيين «يا مريم» - ٢٠١٢ - للعراقي سنان أنطون التي عالجت أوضاع المسيحيين في عراق ما بعد الاحتلال الأمريكي واستهدافهم من الجماعات المتطرفة، و«أعالي الخوف» - ٢٠١٤ - للأردني هزّاع البراري التي حضر فيها المسيحي بقوة حين كان إحدى شخصياتها الثلاث الرئيسة التي قامت الرواية عليها، و«جحيم الراهب» - ٢٠١٤ للعراقي شاكر نوري، الذي وضعنا فيها في عالم الرهبان. بينما قدمت روايات عديدة أخرى اليهود والشخصية اليهودية، وربما تكون إحدى أبرزها رواية المصرية فاطمة العُريض «سِفْر الترحال» - ٢٠١٣ - التي قدمت فيها عائلة يهودية مصرية عبر أكثر من جيل، وبما يبدو أنها أرادت فيها أن تتخطى صورة اليهود السلبية النمطية، إلى صور أخرى هي أقرب إلى الوطنية؛ والعراقية نيران العبيدي التي رسمت في روايتها «منعطف الصابونجية» - ٢٠١٤ - إحدى أجمل الشخصيات اليهودية في الرواية العربية متمثّلة بشخصية (كرجي)، ولاسيما من خلال علاقة حب تربطه بالعراقية المسلمة (بدرية)، وهي العلاقة نفسها إلى حد بعيد التي رسمتْها السورية لينا الحسن في روايتها «ألماس ونساء» - ٢٠١٤ - ما بين اليهودي (يوسف زليخا الدمشقي) والمسلمة (رومية) وزواجهما.

أما الآخر الغربي، الذي تعاملت الرواية العربية معه من أولى مراحل تأريخها، فقد ازداد حضوره في الرواية العربية بعد الستينيات، ثم بشكل كاد يشكل ظاهرة في المدة الممتدة من بداية التسعينيات، أو منتصفها إلى الوقت الحاضر. فضمن اشتغالنا على موضوعة (الآخر) في كتب ودراسات عديدة، أحصينا ما يزيد على مئة وخمسين رواية تعاملت مع الآخر الغربي في المدة المعنية، ولعل أكثر الكتّاب تعاملاً معه العراقيتان ميسلون هادي وعالية ممدوح، واللبنانية حنان الشيخ، والمصريان صنع الله إبراهيم وعلاء الأسواني، والفلسطينيتان سحر خليفة ورضوى عاشور، والسورية هيفاء بيطار، وغيرهم كثيرون.

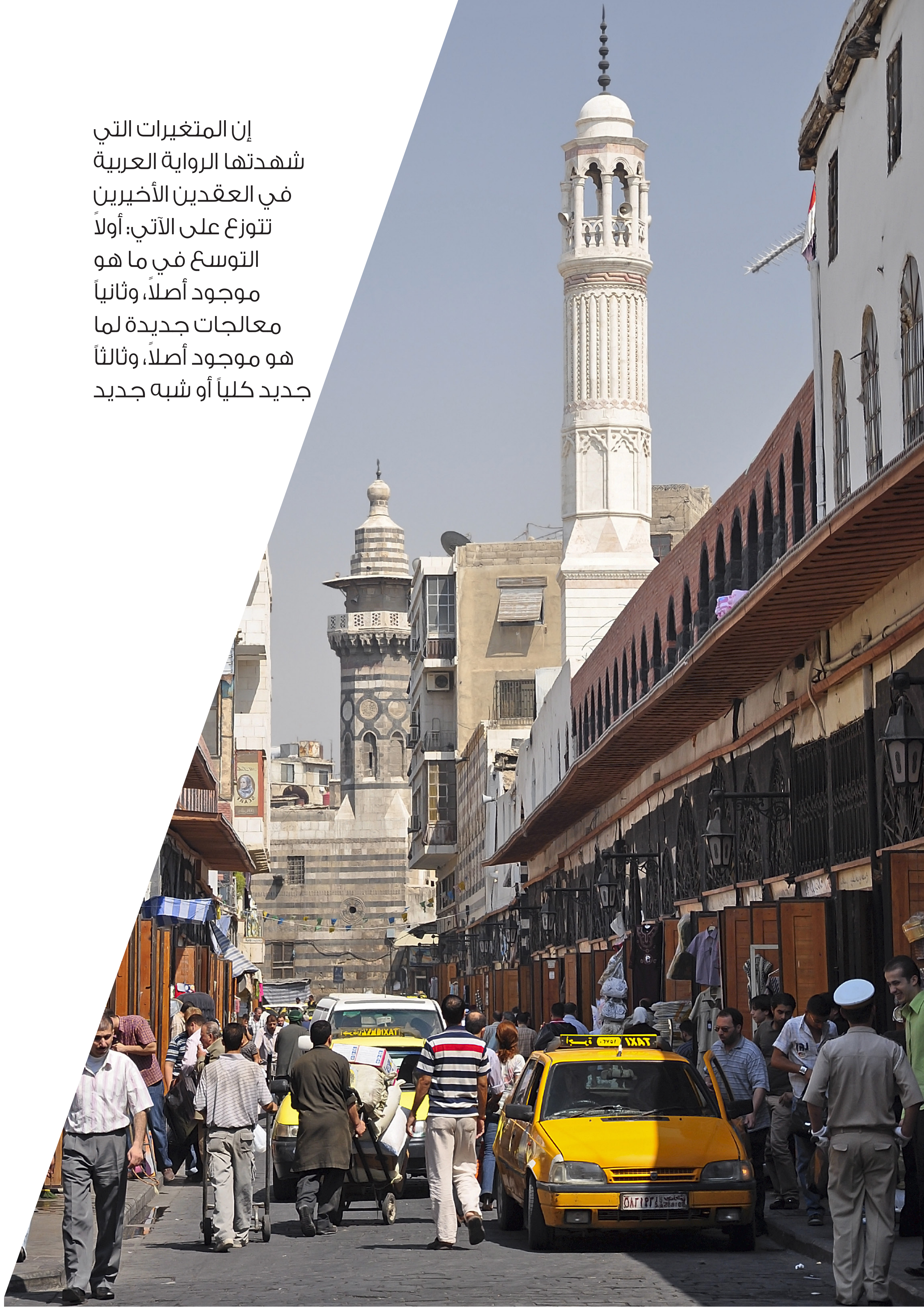
بقي أخيراً من الموضوعات التي تكاد تكون جديدة كلياً، ببساطة لأنها لم تكن موجودة على أرض الواقع أصلاً، موضوعات النت والتواصل الاجتماعي، لكن حضورها برأينا لم يكن قوياً وناضجاً ومقنعاً بما يكفي ليكون ظاهرة.

(٢)

انتقالاً إلى متغيرات في الفن والشكل، أي ما كان منها في البناء والتقنيات وما يتعلق بها من أنساق بنائية وتنويعات تقنية. ومن الطبيعي أنْ كانت هذه المتغيرات أقل منها في الموضوعات، بل غالبية ما يمكن أن نضع اليد عليه منها هنا، هي إما أن تكون موجودة أصلاً، وتمّ التوسع فيها أو تطويرها، أو هي مست



من الموضوعات التي
تكاد تكون جديدة كلياً،
ببساطة لأنها لم تكن
موجودة على أرض
الواقع أصلاً، موضوعات
النت والتواصل
الاجتماعي، لكن
حضورها برأينا لم يكن
قوياً وناضجاً ومقنعاً



إن المتغيرات التي
شهدتها الرواية العربية
في العقدين الأخيرين
تتوزع على الآتي: أولاً
التوسع في ما هو
موجود أصلاً، وثانياً
معالجات جديدة لما
هو موجود أصلاً، وثالثاً
جديد كلياً أو شبه جديد

السطح الخارجي، إنْ صح التعبير. فمن الأولى يحضر ما يُدعى بتشظية السرد أو تشظي المسرود أو المحكي، والمقصود به أنْ تتشظ القصة المحكية سردياً ولا تبقى على وضعها المتسلسل، سواء أكان ذلك عبر تيار الوعي الذي يحضر فيه كل جزء من القصة وفقاً لحالة وعي الشخصية، أو أن يكون ذلك بسبب رواية القصة، وغالباً غير كاملةٍ تفصيلاً، من أكثر من شخصية راوية. نعتقد أن هذا النوع من البنى بتقنياته قد انتشر كثيراً جداً في العقد أو العقدين الأخيرين، ولكن مع ميله إلى أن يكون ضمن ما يُسمى بالبناء المتداخل، وأحياناً ضمن ما يُسمّى بالبناء المتوازي. وإذا كان المتداخل والمتوازي، وضمنهما بنية التشظّي، موجودة كلها من قبل، فإن الجديد أو المتغير هنا هو في هذا التداخل بينها. ومن روايات هذه البنى المتداخلة «فيرجوالية» - ٢٠١٢ - للعراقي سعد سعيد، و«شوق الدرويش» - ٢٠١٤ - للسوداني حمور زيادة، و«تغريدة tweet» - ٢٠١٤ - للفلسطيني أثير صفا، وإلى حد ما «بيت على نهر دجلة»- ٢٠٠٦- للعراق مهدي عيسى الصقر، و«طيور التاجي» - ٢٠١٤ - للكويتي إسماعيل فهد إسماعيل.

آخر المتغيرات في الفن والشكل هو توظيف تقنيات النت والتواصل الاجتماعي. والحقيقة أن هذه التقنيات لم تكن، بحضور النت في الرواية موضوعاً، لتبقى تقنياته بعيدة، بل أكثر من ذلك أنّ بعض الروايات قد بُنيت كاملةً عليها، كما هو الحال في رواية «فرجواليه» - ٢٠١٤ - للعراقي سعد سعيد.

تبقى هناك متغيرات أخرى قد يكون لبعضها علاقة ببعض ما سبق، بينما قد لا يمتّ بعض آخر منها بالنص الروائي بصلة أصلاً، بل بالمؤلف وبتقاليد التأليف أو بنشر النص وبتقاليد النشر، مما يجعله مرتبطاً بالأنساق الثقافية في مجتمع الرواية أكثر منه بالرواية ذاتها وبالنقد الأدبي، كما سنأتي إلى ذلك. وأولى هذه المتغيرات هي تلك التي طرأت أو تعزّزتْ في كُتّاب الرواية من حيث العمر، والانتماء القطري، والهوية الأدبية، وأخيراً الجنس، والأخير هو الذي قد يستحق الإشارة إليه. فأهم ما نلحظه مما يقترب من الجديد في الكتّاب من الناحية الأخيرة هذه هو موجة الرواية النسوية. فبعد أن بقيت نسبة النساء بين كُتاب الرواية العربية منخفضة حتى السبعينيات والثمانينيات، ارتفعت هذه النسبة كثيراً في العقود التالية، ولاسيما في العقدين الأخيرين ليصير حضورها ملفتاً جداً، بل ربما ظاهرة، ولعل ما تكشف عنه قوائم الروايات المشاركة في جائزة البوكر العربية يؤيد ما نقول به، فبلغت هذه النسبة ٢٠ بالمئة تقريباً من الروايات المشاركة، و٣٠ بالمئة تقريباً من روايات القائمة الطويلة، وأكثر من ٣٣ بالمئة من القائمة القصيرة. وهذا ما يشكل متغيّراً لا في النص الروائي، بل في كتّابه، كما قلنا.

بقيت ما نسميها متغيرات شكلية خارجية، وهي أيضاً ليست لها علاقة بالنص، بل بالنشر والسلوك الثقافي المتعلق بالرواية، وهي غالباً ما كانت بسبب الجوائز والسوق. وأهم هذه المتغيرات التي تشكل بمجموعها ظاهرة سلبية في السلوك الثقافي: الغلاف والإخراج الفني؛ والنشر وتعدّد الطبعات. ولا نجد من أهمية كبيرة للمتغير الأول، بل للمتغير الثاني في ظل ترسخ ما نجدها تقاليد سلبية تتسلل إلى الأنساق الثقافية أكثر منها إلى النقد الأدبي أو الكتابة الروائية، ونعني بها الادعاء بما نشكّك بصحته من تعدد الطبعات كما يُثبّت على أغلفة الروايات. وللتدليل على هذا، وجدنا ضمن الروايات المشاركة في جائزة البوكر العربية، ستّاً ادّعى كتّابها وناشروها طباعتَها أكثر من طبعة خلال بضعة أشهر وكانت واحدة منها متميزة، وأخرى متواضعة بينما كانت الأربع المتبقية بين أضعف الروايات باتفاق أعضاء لجنة التحكيم. أكثر من هذا أن ضمن الروايات الأضعف واحدة ادّعى مؤلفها وناشرها أنها قد طُبعت أكثر من عشر طبعات. نحن لا نرى في هذا إلا ممارسة لتقليد سلبي ومعيب أسست له، على ما نظن، رواية صدرت قبل عشر سنوات وأُثير حولها، وبشكل مرسوم، ضجيج حين ادّعى مؤلفها وناشرها هكذا طبعات خلال أشهر معدودة، وهو الأمر الذي يصعب تصديقه إلا بافتراض أن عدد نسخ الطبعة الواحدة لا يزيد على المئة نسخة.

في النهاية، لا بأس في أن نكرر القول إن المتغيرات التي شهدتها الرواية العربية في العقدين الأخيرين تتوزع على الآتي: أولاً التوسع في ما هو موجود أصلاً، وثانياً معالجات جديدة لما هو موجود أصلاً، وثالثاً جديد كلياً أو شبه جديد.



لا يعد العنوان الذي ارتضيناه لهذه الدراسة من باب اللغو أو الاصطناع، بقدر ما هو ضرورة دالة ينبغي أخذها بجدية تامة، ومن الأكيد أنه يحيل إلى إشكال نظري لا محيد عن مطارحته، فلا توجد رواية منبتها وطنٌ ما، لأن موطنها الأصيل هو العالم؛ فهي جنس حكائي حمل في تكوينه - منذ ولادته - حتى ذراته الأكثر مجهرية، تكسير الحدود، سواء أكانت هذه الحدود ذات صلة بهويته في علاقته بما يجاوره من أجناس أدبية تغايره، أم كانت حدودَ إنتاجٍ وتلقٍ، أم حدودا جغرافية؛ فالرواية جنس مرتحل في تاريخ التخييل، وفي الزمان والمكان؛ فهي لم تنشأ لتكون مميزة لهذا البلد أو ذاك، وإنما لتكون منتمية إلى العالم أجمع. وينبغي فهم انتمائها هذا، وتبريره بفعل عنصرين: ا- موضوعها الذي يرتبط بالحياة الجارية وبما هو mondain[1]، ب- ارتباطها بالمجتمع البورجوازي في توسعه الاستعماري، فهي تشبهه، لذلك فهي جنس غاز لقيط، ولأنها تنتمي إلى الإنتاج الثقافي استطاعت أن تظل مقيمة، فالجنود انسحبوا مع الاستعمار، أما هي فسلمت أسلحتها عن طواعية للأهالي. لكن الرواية وهي تستوطن العالم حملت معها، لا إمكاناتها التعبيرية، وصيغ تخييلها الخاصة فحسب، وإنما أيضا الأرضية التي يتوتر فوقها تاريخ الشعوب الثقافي في علاقته بهويتها الإجناسية اللقيطة[2]. وهذا التوتر يصاغ في هيئة سؤال حول الذات، لا بوصفها حضورا أنطولوجيا في العالم فحسب، وإنما أيضا بوصفها حضورا تاما قياسا إلى ميراث تخييلي وفني يشكل نزوعها الأصيل إلى فهم العالم من حولها. فكل شخصيات الرواية المُنمذِجة تأتي إلى العالم الروائي انطلاقا من ميراث فني، أو مقروء فني (دون كيخوطي- مادام بوفاري- راسكول نيكوف- جوليان سوريل...إلخ).

ينبغي إذن، فهم نمذجة الرواية في العالم العربي في هذا السياق التاريخي لنشوء الرواية، ولطموحها في أن تكون التعبير النموذجي عن العالم خارج منشئها الأصلي بفعل كونها لقيطة. لكن لا بد من أن يحدث سوء فهم في علاقة الوافد (الرواية) بالأرض التي يرتحل إليها. وقد يكون سوء الفهم هذا مزدوجا، حيث يكون وَجْهَا ازدواجه ماثلين في: نزوع الذات المحلية إلى إلباسه لباسا محليا (التبني انطلاق من منحه هوية المحل)، أو انبهارها المفضي إلى تقليده، بجعله أبا

١- يعني هذا الاصطلاح مفهومات عدة، منها ارتباطه بالصالونات، لكننا سنأخذ منها هنا ما له صلة بالرواية، ومن ضمن ذلك ما يرتبط بالحياة اليومية في مظاهرها الاجتماعية من متع، ومن فكاهة، ومن علاقات العيش، وما يرتبط بالسمت البورجوازي المتحذلق والسطحي على مستوى العلاقات الاجتماعية واللسان، هذا فضلا عن كونه يشير إلى ما ينتمي إلى الحياة الجارية في تعارضه مع الدين، وأحيانا يشير إلى ما هو نموذج حياة مرفهة في تقابل مع الحياة الشعبية،

٢- انظر:
Marthe Robert: Les origines du roman et le roman des origines, ed

نمذجة الرواية في العالم العربي

أفكار أولية*



بقلم: د. عبد الرحيم جيران

أكاديمي وكاتب وناقد مغربي

* هذه دراسة مطولة، لا يمكن نشرها كما هي، لذلك سنقتصر على الإطار النظري، وتقديم نظرة موجزة حول نموذجين فقط.


LESSING
KANT

يمكن عد الرواية
العربية نتاجا للتوتر بين
التاريخ– الميراث والهوية
الأجناسية لهذا الفن



غيريا محل الأب الأصلي. وكلا الوجهين هما تعبير، لا عن النقص تجاه الغير، وإنما عن رغبة في التساوي، لكن هذه الرغبة مضطربة تتوس بين اختيارين كلاهما يؤدي إلى تناقض غير محلول؛ فإما أن تنزع نحو مساواة الوافد من طريق جعله مماثلا للذات، وإما أن تفعل ذلك من طريق جعل الذات مماثلة له؛ وفي كلتا الحالتين لا تخلق الذات نفسها إلا في ضوء ظل، عبر مضاعفة الغير، ولا تولد إلا حاملة في داخلها علاقة الازدواج المذكورة آنفا.

١. المفاصل الكبرى الكامنة خلف النمذجة:

يمكن عد الرواية العربية انطلاقا من التوصيف أعلاه، نتاجا لهذه الازدواجية التي هي نتاج التوتر بين التاريخ- الميراث والهوية الأجناسية لهذا الفن. ولم يكن أمام تأسيس ذاتها إلا أن تحمل في طياتها هذا الازدواج الذي يحدد نمذجتها التي تأسست صيرورتها على توتر ثنائية الشكل والمحتوى[٣]، وما لابسها من مماثلة ذات توجهين: تبني الوافد التعبيري الجديد[٤]، أو تقليده. وقبل الشروع في هذه النمذجة، لا بأس من أن نذكر بأن عملنا لن يأخذ بالتنوع الذي يأتي من جهة النصوص، أو من جهة التعين داخل مسير كتابي محدد، أو من اختلاف التيارات الفنية، وإنما يأتي مما يتعالى عليها، ويشكل مفاصل كبرى تتعين داخل مقولات جامعة. وفي هذا السياق، علينا أن نفكر في هذه المفاصل انطلاقا من مسألة الازدواج التي أتينا على ذكرها بمراعاة معيارين: أحدهما فني، والثاني له علاقة بما هو أنطولوجي؛ حيث مبدأ الهوية حاضر بكل قوة. ويمكن تحديد هذه المفاصل في ثلاثة أنماط رئيسة[٥]:

أ. إلباس الجنس الأدبي الوافد (الرواية)- بفعل الحذر من غيريته وغرابته- لباسَ الذات (روح الأمة) شكلا ومحتوى؛ فقد حدث- على مستوى الشكل- تبني لقاطته بتمريره من خلال شكل المقامة، وحدث- على مستوى المحتوى- إكسابه محتوى أخلاقيا ذا نبرة فجائعية تتسم بالتحسر على ماض قيمي مجيد[٦]. ولم يكن اختيار الأسلوب المقامي اختيارا حرا، بل كان نتاج سمت كان مهيمنا في إنتاج النثر وتلقيه، وبخاصة الفني منه، فقد كان البديع معيارا محددا لقيمة كل قطعة نثرية فنية. فلم يكن الأمر يتعلق بتعدد لغوي[٧]، وإنما بوعي أسلوبي، يرتبط بِسَمْتَيّ الإنتاج والتلقي كما هما متطلبان في العصر. وهذا الوعي الأسلوبي كان ماثلا في تكييف الصبغة اللغوية، كلما حدث الانتقال من خطاب نصف أدبي إلى خطاب أدبي. وهذا ما يفسر الاختلاف حين ينتقل محمد المويلحي من الخطاب التاريخي إلى الخطاب الفني في نصه «حديث عيسى بن هشام»[٨].

ب. تبني شكل الجنس الأدبي الوافد (الرواية) أسلوبا وبناء، مع إلباسه محتوى ذاتيا، ولم يكن هذا المحتوى قيميا فحسب، بقدر ما كان هوياتيا صرفا ذا صبغة تقويمية أو استشفائية، وهي تقوم على استعادة الماضي، إما في اتجاه التاريخ، أو في اتجاه الشخصية القيمية الضائعة. وظهر هذا الاتصاف في الرواية التي اتخذت من التاريخ مادة لها، وفي رواية الشخصية العاطفية. فما كان يكمن خلف تمثيل المادة التاريخية- سواء أكانت إسلامية عربية (جورجي زيدان) أم كانت مصرية فرعونية (محمود تيمور- نجيب محفوظ)- ماثلٌ في استعادة مجد زائل، أو في جعله رمزا لبعد قيمي يرتبط بالعصر. وكيفما كانت هذه الاستعارة؛ فإنها تقدمت خطوة نحو الوعي بالخاصية الأسلوبية للرواية. والتاريخ هو محلي- ذاتي يوفر المادة اللازمة لتطويع الأسلوب الوافد؛ نظرا لأن الخطاب التاريخي كان يتوافر له الأسلوب السردي الذي يقترب

٣- لا بالمفهوم الهيغلي؛ حيث يساويان الروح والمادة، ولا بالمفهوم الإيديولوجي - الاجتماعي كما هو مصوغ عند أرنست فيشر في كتابه ضرورة الفن، أو بالمفهوم اللوكاتشي حيث يعبر الشكل عن العلاقة بين الذات والعالم، وإنما بالمعنى الأنطولوجي منظورا إليه في ضوء تحولاته في الزمن.

٤- المقصود بالتبني هنا الاقتناع بأهمية الوافد، بيد أن مماثلته تحدث بموجب آلية استبدال، حيث تعطى للمماثَل هوية المماثِل، ومحتوى هذه الهوية كان قيميا مسجلا في السجل اللساني الهوياتي الخاص، بوصفه روح أمة تتعرف ذاتها في موروثها اللساني.

٥- ينبغي التفكير في هذه المفاصل خارج التعاقب، وخارج التصنيف الثابت، فهي مبادئ منظمة، تكاد تحضر متفاوتة في الزمن، وتتكرر وفق مناخ فنية مختلفة، وتعمل على توجيه تجارب نصية مختلفة من حيث التوجهات الفنية للكتاب.

٦- المقصود هنا النصوص الحكائية التي كانت بمثابة إحياء نثري يتمثل روح السجع، والبديع، وينبغي في هذا الجانب عدم الاقتصار على «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي، فهناك نصوص أخرى مماثلة تشترك مع روايته في التوجه نفسه، كما هو الحال بالنسبة إلى إبراهيم اليازجي، وبطرس البستاني.

٧ ليس التعدد اللغوي بتعدد في الأسلوب، بل له صلة بتداخل الاستعمالات اللفظية داخل لسان معين، وهذا التداخل يحمل في داخله الأوعاء الإيديولوجية المتعارضة، ولا يمكن البحث عن هذا التعدد في لسان سارد يتصف بكونه يفرض رؤيته على العالم. ولا في لغة كتابية رسمية قائمة على التسوية، فهما تغيرت فهي تظل منفصلة عما هو حيوي في الحياة، وهذا الحيوي هو الذي بإمكانه أن يعبر عن الأوعاء اللسانية، ولا يمكن العثور عليه إلا في اللغة اليومية المستعملة؛ لذلك يعد ما ذهب إليه فيصل دراج من تعدد لغوي في حديثه عن محمد المويلحي غير وارد البتة. راجع في هذا الباب:

- عبد الرحيم جيران: «حين تفكر اللغة فينا»، القدس العربي، عدد ٥ يونيو (حزيران) ٢٠١٥

راجع في ما يخص التعدد اللغوي كما فهمه فيصل دراج في صدد نص «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحي.

ـ فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ١٩٩٩

٨- يتنبه فيصل دراج إلى هذه الخاصية، لكن لم يربطها بوضعية الإنتاج والتلقي الفنية المهيمنة في عصر محمد المويلحي، المرجع نفسه، الفصل الخاص بنص «حديث عيسى بن هشام».

من أسلوب الرواية. ويسمح بتقبل أسلوب نثري مغاير بفعل تعود المتلقي على الأسلوب التاريخي. إذن، لم تكن الرواية ذات المحتوى التاريخي إلا نوعا من التمرين الذي كان لا بد منه، لكي يلج الأسلوب الروائي إلى مجال التلقي. أما في ما يخص المادة العاطفية، فقد كانت رواية زينب نموذجا للانتقال بالشكل الروائي نحو روائيته شكلا لا محتوى، وهي تجمع داخلها بين التبني والتقليد، فهي تقلد الشكل الروائي الغربي، بيد أنها كانت تضر به نتيجة كونها كانت تمرره من خلال إلباسه محتوى متأت من جهة لا الموضوع (الحب)، ولكن من جهة وظيفة النثر، وتصور متكلمه في علاقته بوضعية تلفظ لم تقطع بعد مع الصوت الوحيد الذي كان يصاغ انطلاقا من الأخلاقي، فكان الوعظ هو الخاصية الفنية التي ميزت المحتوى، ومن ثمة سحبت تقليد الشكل نحو منطقة التبني على مستوى التلفظ الروائي. فتدخل صوت الروائي مكشوف في تواز مع تمجيد القيمي الماضي على المستوى الخلقي، استجابة لمراعاة المحلي.

ج. الانتقال من العلاقة المتوترة مع الوافد التعبيري (الرواية) إلى الذوبان في نموذجه الغربي عبر الحسم في تقليده شكلا ومحتوى. فلم يعد المحتوى ذو الطابع الشخصي أو التاريخي مبررا لإدخال الأسلوب الروائي الصرف إلى رحاب السرد، بل حلت محله الفكرة بوصفها رؤية إلى ما ينبغي أن يكون. وكان النموذج في هذا الاتجاه ثلاثية نجيب محفوظ[٩]. وقد حدث هذا التحول بفعل تحول في رؤية الروائي إلى علاقته بالمجتمع والزمن، ونتيجة تحول ناجم عن تغير في الأطر المعرفية، التي غلب عليها الانفتاح على الأفكار الفلسفية الغربية الجديدة، وما تحقق من جراء ذلك من تغير في الأطر الفكرية التي تفسر العالم. وهكذا سيؤدي تسرب الفكر الوضعي المرتبط بالليبرالية بنزعته الإنسانية الوضعية إلى الحقل الثقافي إلى نقل الاهتمام من الحساسية المفسرة القائمة على الأخلاق إلى الحساسية المفسرة القائمة على فهم الأسباب الكامنة وراء الاتصاف الاجتماعي، ومن ثمة تبنى النص الروائي العربي الأسس التي قامت عليها الرواية في القرن التاسع عشر في الغرب. وستتأثر الرواية في العالم العربي بكل الميراث الليبرالي المعرفي والفني في تحولاته الكبرى. أما الميراث المعرفي المادي الاشتراكي، فلم يتعد تجريب الواقعية الاشتراكية، لكن لم يكن لهذا التجريب صدى قويا بإمكانه أن يعطي نصوصا قوية تسمح بتكوين توجه نموذجي مؤثر. وينبغي هنا الإشارة إلى أن تقليد الفكرة لا يعني تقليد الفكري بوصفه محتوى موجها فحسب، وإنما أيضا الشكل الفني أيضا بوصفه فكرة موجهة للمحتوى والشكل معا.

إن مفصل التقليد التام لم ينته بعد، لأن النص الروائي العربي لم يجد بعد حلا مقنعا لحضوره في العالم بوصفه نصا ذا خصوصية مضيفة إلى جسد الرواية، كما هو الشأن بالنسبة إلى الرواية في أمريكا اللاتينية، وفي اليابان. سيستمر التقليد شكلا ومحتوى إلى يومنا هذا، لكن ما تغير هو خفوت الوجهة المعرفية التي تتحكم في الأنماط المُقلِّدة، والتي تشكل نماذج دالة على تحولات كبرى، وهذا الاستمرار يتخذ مظهرا إشكاليا؛ إذ يتبدى في هيئة رفض لكل نمذجة كبرى، ورغبة في التحرر من تبعات الوصفات، لكن هذا التطلع لم يتعد التقليد؛ لأنه غير الوجهة من مضاهاة النموذج إلى تقليد النصوص المفردة لكتاب معينين. ففي مفصل الفكرة كان التقليد يتجه إلى كاتب معين، ومن خلفه إلى نموذج فني. أما اليوم، فالتقليد لا يطول كاتبا غربيا معينا، وإنما نصا مفردا ناجحا؛ فما سنبلوره في هذه الدراسة هو البحث في تحولات الرواية في العالم العربي من دخل التقليد.

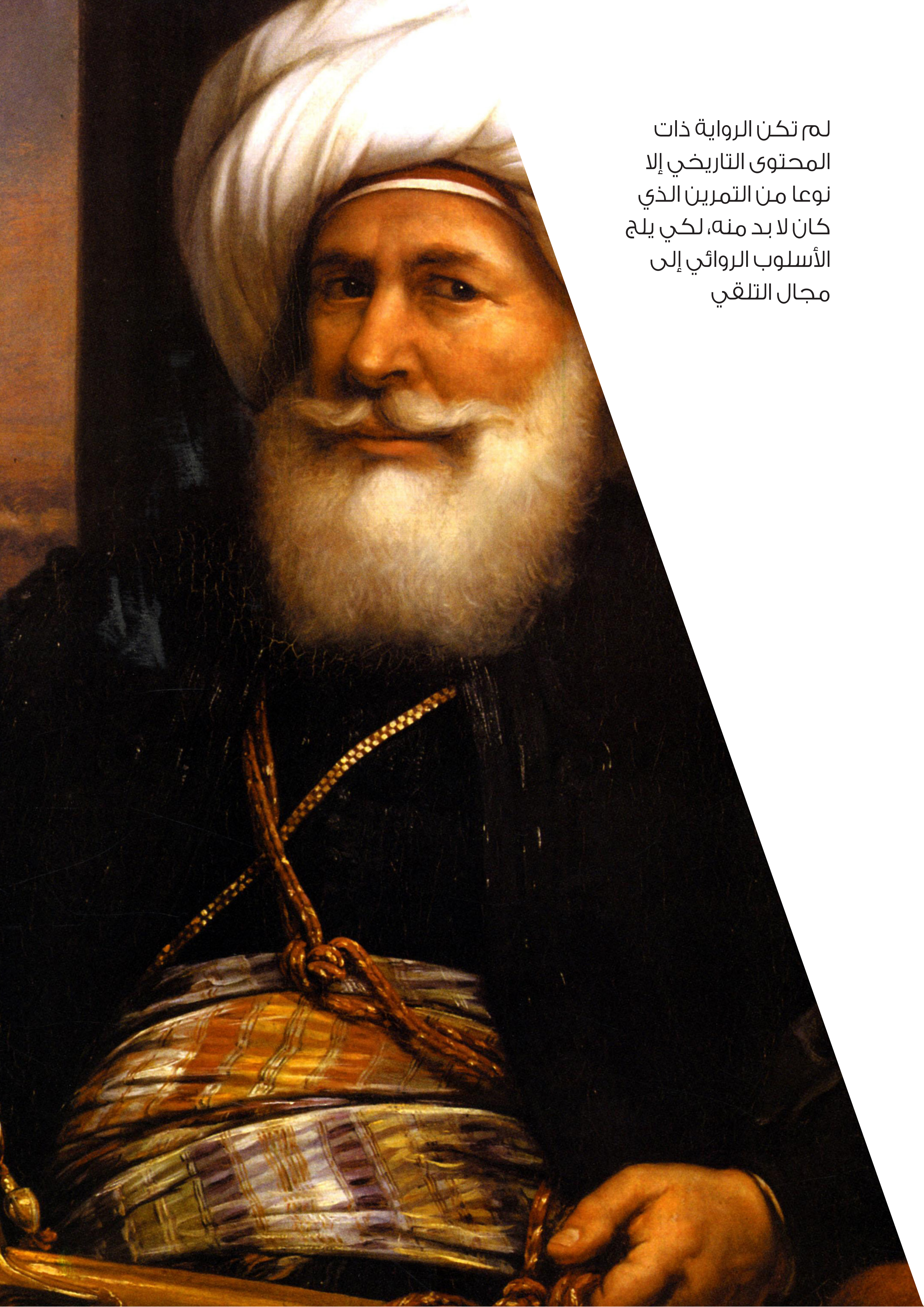
٢- النمذجة الروائية:

تسمح لنا هذه المفاصل الثلاثة المذكورة بتبين أشكال النمذجة الكبرى التي يمكن بموجبها تنظيم المتن الروائي في العالم العربي. ونحددها في: الانبثاق المتعثر- رواية الفكرة- رواية البحث- رواية التكوين- رواية الشكل- رواية التوه والتفكك. وسنعمل في هذا المقال المقتضب على ذكر خصائص عامة لهذه النمذجة من دون ذكر التفاصيل، فعملنا هنا لا يتعدى تحديد خارطة طريق لعمل مستقبلي.

- نص الانبثاق المتعثر:

استفاق العالم العربي في نهاية القرن التاسع عشر على اتصال بعالم آخر، كان يجاوره، لكن حضوره كان مجهولا، عالم له رؤية أخرى، ووسائل تعبير مغايرة؛ فبدا المألوف التعبيري الخاص غير كاف، بل فقيرا قياسا إلى الوافد الجديد البراني، ونجم عن

٩- هناك اختلاف بين الروايتين في هذا المستوى، ويتمثل في عدم قدرة الأولى على التحرر من الإرث اللساني التراثي على مستوى الوظيفة (الوعظ)، فكانت الفكرة تعاني منه. ويمكن عد رواية «زينب وسيطا مهد للانتقال من مفصل التقليد (الشكل) والتبني (المحتوى) إلى مفصل التقليد التام.



لم تكن الرواية ذات
المحتوى التاريخي إلا
نوعا من التمرين الذي
كان لا بد منه، لكي يلج
الأسلوب الروائي إلى
مجال التلقي


لم يشأ قدر النص
الروائي العربي أن ينبني
على نسق فكري خاص
به، فلا نسق إلا ما تأسس
في التراث من أفكار
حول العالم والذات

ذلك إعجاب حذر بهذا الوافد[١٠]، وهذا الحذر متأت من جهتين: هيمنة وضعية تلفظ نثرية تراثية المنزع، وعدم الاقتناع بملاءمته الهوية، فكانت العودة إلى تراث الذات التعبيري، وهذه العودة كانت نوعا من البحث عن أسلوب قديم هوياتي من أجل مضاهاة الأشكال التعبيرية الوافدة، وبخاصة الرواية[١١]، فإلى جانب تعريب الروايات الغربية، والتصرف فيها، بدأ التقليد يعبر عن نفسه بطريقة مواربة، ولعل سؤال امتلاك الموازي فنيا للرواية من قبل التراث كان واردا، وإن لم يعبر عنه نقديا إلا في مرحلة متأخرة. وما يهم في هذا أن المويلحي في نص «حديث عيسى بن هشام» يعبر من داخل التوجه اللساني التراثي، وشكل المقامة[١٢]، عن مسألة إمكان الانبعاث التي تمثلها عودة الباشا[١٣]، وهذا دال على الثقة في التاريخ بوصفه وعدا. ومن ثمة، فهذا الوعد بالأحسن يتضمن ما ينبغي تجاوزه، لكن كان ينظر إلى التجاوز باعتماد وسيلة أخلاقية وشكلية غير ملائمة[١٤]. ولا يمكن النظر إلى مسألة التجاوز هاته بمعزل عن الزمن، وينبغي فهم هذا الأخير في سياق السؤال عن الأصل، بما يعنيه من تقابل بين الماضي والحاضر، لكن هذا التقابل يتوسط التوجه نحو المستقبل، ونحو ممكن التاريخ، ومن ثمة فهو نتاج أيضا لموضعة البراني من حيث هو هوية غيرية على مسافة؛ بمعنى عدم اقتباس هذه الهوية، وإنما مضاهاتها بما فقد فعاليته؛ أي هوية ميتة. ولهذا، كان من المفروض أن يسافر الباشا إلى «باريس» حتى يُجسِّم الإعجاب بالوافد في محله، لا في محل الهوية الخاصة. وتبغي الإشارة هنا إلى أن تقبل الآخر التعبيري بوصفه مجرد حافز ليقظة الميت كان في طياته عوامل تفكك الشكل التعبيري القديم، وهذا التفكك كان يحمل في داخله عوامل نشوء الجديد، أو يمهد له، فليس الأمر في الانفتاح ثابتا في التاريخ الأدبي، ولا متماثلا فيه؛ ففي مرحلة التكون الأولي لأي جنس أدبي نكون أمام سديم يتشكل من دون مركز، حيث يكون الجنيني مهيمنا، ويكون الاسم لاحقا على المسمى، والمفهوم على الماصدق، وأشير في هذا الصدد إلى مسألة تكون الرواية في العالم العربي[١٥]. وينبغي- هنا- عدم إغفال علاقة التكون والتحول بثنائية (الهجنة/ والنقاء)، وعلاقتها بالهوية والذاكرة الإجناسيتين، والحدود المسورة التي لها صلة بتاريخ من العزلة داخل أنماط ثقافية متماهية ومتطابقة مع مصيرها التاريخي، ومع ذات متعالية تتعرف نفسها في ضوء وحدة أشكال منتجاتها الرمزية، وصيانتها باستمرار من أي دخيل، بما في ذلك اللغة.

تدعو الحاجة أيضا- لفهم رواية الانبثاق- تبين تشكل المكان فيها وكذلك الزمان. فهي رواية اللامكان، لكونها تنبع من مكان لغوي وتخييل قديم[١٦]، من أجل تمثيل مكان اجتماعي راهن، وهي في ذلك تفتقر إلى إبستيمي أدبي محايث يمنحها المكان الحداثي المناسب، والمفهومات الأدبية المسعفة؛ فغياب هذه الأخيرة لها دور حاسم في تشكيل الرواية في العالم العربي إلى يومنا هذا. أما بالنسبة إلى المكان المادي الفيزيائي؛ فتضعه مسبقا في حيز القياس، وتجعل أثره منفصلا عن حقيقته. فيبدو الزمن تبعا لذلك في هيئة انحراف مزدوج عن الأصل: انحراف عن أصل هوياتي محلي موضعه الماضي، وانحراف عن الأصل البراني. فلم يكن السفر ممكنا إلا في الراهن لتمثيل أصل الوافد، ولم يكن محققا في اتجاه الماضي لتمثيل أصله سرديا. فقد كان الباشا في «حديث عيسى بن هشام» وافدا، وأثرا تم كمظاهر التمدن الوافدة إلى المحل. فمفهوم المرآة وارد هنا بكل تأكيد، لكنه قائم على المقارنة بين الصورة التي تعكسها

١٠- بدا هذا الإعجاب أول ما بدأ بتعريب الروايات الغربية، والتصرف فيها، وهذا التصرف كان ممهدا لتقليدها على مستوى الكتابة.

١١- لا يمكن التنظير لهذه المرحلة من دون النظر إلى وضعية التلفظ التي تحدد إنتاج وتلقي التعبير الفني، وهي وضعية غير منفصلة عن الميراث اللساني، وميراث التذوق، والألفة في تعرف النصوص. وقد كان التجديد- في هذا السياق- يتمثل في العودة إلى أصول هذا الميراث، لا تدميره كلا، وهذا ما حدث في مجال الشعر أيضا؛ حيث كانت العودة إلى الأساليب الشعرية- الأصلية القديمة ضرورة، لكن هذه العودة لم تكن بغاية تقليد وافد شعري، لأن الشعر كان يعد فنا أصيلا غير مستحدث، بل مكونا من مكونات هوية الذات التعبيرية.

١٢- فقد أوصلت الترجمة والاقتباس الرواية الأوروبية إلى العالم العربي قبل سنة ١٩٠٧ بوقت يسمح وصولها إلى النخبة المثقفة. ولهذا كان اطلاع المويلحي عليها واردا، كما أن الامتداد الذي يتسم به النص يدل على وعي بحدود مدى المقامة، ومن ثمة كان هناك نزوع نحو المغايرة، وهذا النزعة مبرر من جهة السياق الاجتماعي والتاريخي، من جهة تقاليد في الكتابة بدأت تتأسس انطلاقا من نزعة إحيائية كما الحال في الشعر. فقد سبق محمد المويلحي إلى الكتابة انطلاقا من أسلوب المقامة ابوه، وإبراهيم اليازجي، والبستاني.

١٣- تعد عودة الباشا من الموت استخدام تقنية- موضوعة thème معروفة، وقد وظفت في التراث العربي من قبل في رسالة الغفران، ومن قبل القرآن الكريم «أهل الكهف»، وهي دالة على نوع من انبعاث التراث نفسه، وإمكان اليقظة مرة أخرى.

١٤- يرفض فيصل دراج أن يكون نص المويلحي مندرجا في جنس محدد، ويتعامل معه بوصفه شكلا. فله كامل الحق إذا نظرنا إلى رأيه من زاوية تمثيل الجنس الروائي على نحو مطابق له، لكن من جانب آخر يحتاج رأيه إلى إعادة التفكير، فهذا النص انكتب في ضوء وعي أجناسي، أساسه الاختلاف من داخل المماثلة، فقد أوصلت الترجمةُ والاقتباسُ الروايةَ الأوروبية إلى العالم العربي قبل سنة ١٩٠٧ بوقت يسمح الاطلاع عليها من قبل النخبة المثقفة. كما أن الامتداد الذي يتسم به النص يدل على وعي بأن مدى المقامة غير مناسب لموضوعه، هذا فضلا عن أن المويلحي لم يكن الأول الذي تبنى هذا الشكل فقد سبقه إليه غيره، مثل إبراهيم اليازجي وبطرس البستاني.

١٥- لا يقصد هنا بالمكان ما هو متعارف عليه؛ أي ما يشكل امتدادا ماديا وفيزيائيا، وإنما الوضعية التلفظية التي ينتج داخلها النص، ووصفناه باللغوي والتخييلي القديم؛ لأنه يقوم على استعادة تجربة المقامة اللغوية والتمثيلية، ونص «أهل الكهف».

١٦- وهو ما يشير إليه فيصل دراج في كتابه بلغة أخرى وفهم آخر، وأقصد بذلك قوله عدم نضج الرواية في العالم العربي أو اكتسابها ملامحها الخاصة نظرا لغياب فلسفة عربية معاصرة تمنحها الأسس اللازمة لتحقيق خصوصيتها.



وصورة لغوية للأنا، وصورة حية واقعية للغير في محله «باريس». وينبغي فهم الزمن في هذا السياق؛ فهو دال على تمزق الأصل، وتقابل بين ماض وحاضر مُوَسَّط بسؤال المستقبل، نحو ممكن التاريخ والإيمان بإمكان الانبعاث من جديد. لذلك، يكون محتوى القياس- على مستوى المكان وما يترتب عليه من تقابل زمني- دالا على صبغة نقدية تميز هذه النمذجة الروائية.

- رواية الأفكار:

ينبغي فهم رواية الأفكار في إطار رواية الأطروحة، لكن علينا فهم الأمر على مستويين: المستوى الذي تكون فيه الرواية تمثيلا لفكرة الكاتب، والمستوى الذي تكون فيه تمثيلا لتمثيل فكرة ما، أو مضاعفة لها. ففي الحالة الأولى، لم يشأ قدر النص الروائي العربي أن ينبني على نسق فكري خاص به، فلا نسق إلا ما تأسس في التراث من أفكار حول العالم والذات[١٧]. وفي الحالة الثانية، يكون الهدف ماثلا في تكييف الفكرة مع المحلي؛ أي الاقتناع بأفكار مصوغة في أنساق غيرية- غربية، ومحاولة تمثيل تمثيلها كما هو حادث في محلها الأجنبي. وقد يكون هذا التكييف كلا أو جزءا. بيد أن الموضوع الروائي الذي ظل دوما مرتبطا بالأنا منظورا إليها من خلال متاح هوية الغير كان يحمل إلى تمثيل التمثيل توترا يفضي إلى مضاعفة تمثيل الفكرة جزئيا بتكييفها مع المحل. ويمكن الرؤية إلى نموذج رواية الفكرة انطلاقا من ثلاث روايات، تختلف من حيث الصياغة الفنية، ومن حيث نماذج الفكرة الممثلة على نحو مضاعف، وهي: «زينب» لمحمد حسين هيكل، و«الثلاثية لنجيب محفوظ»، و«الحي اللاتيني لسهيل إدريس».

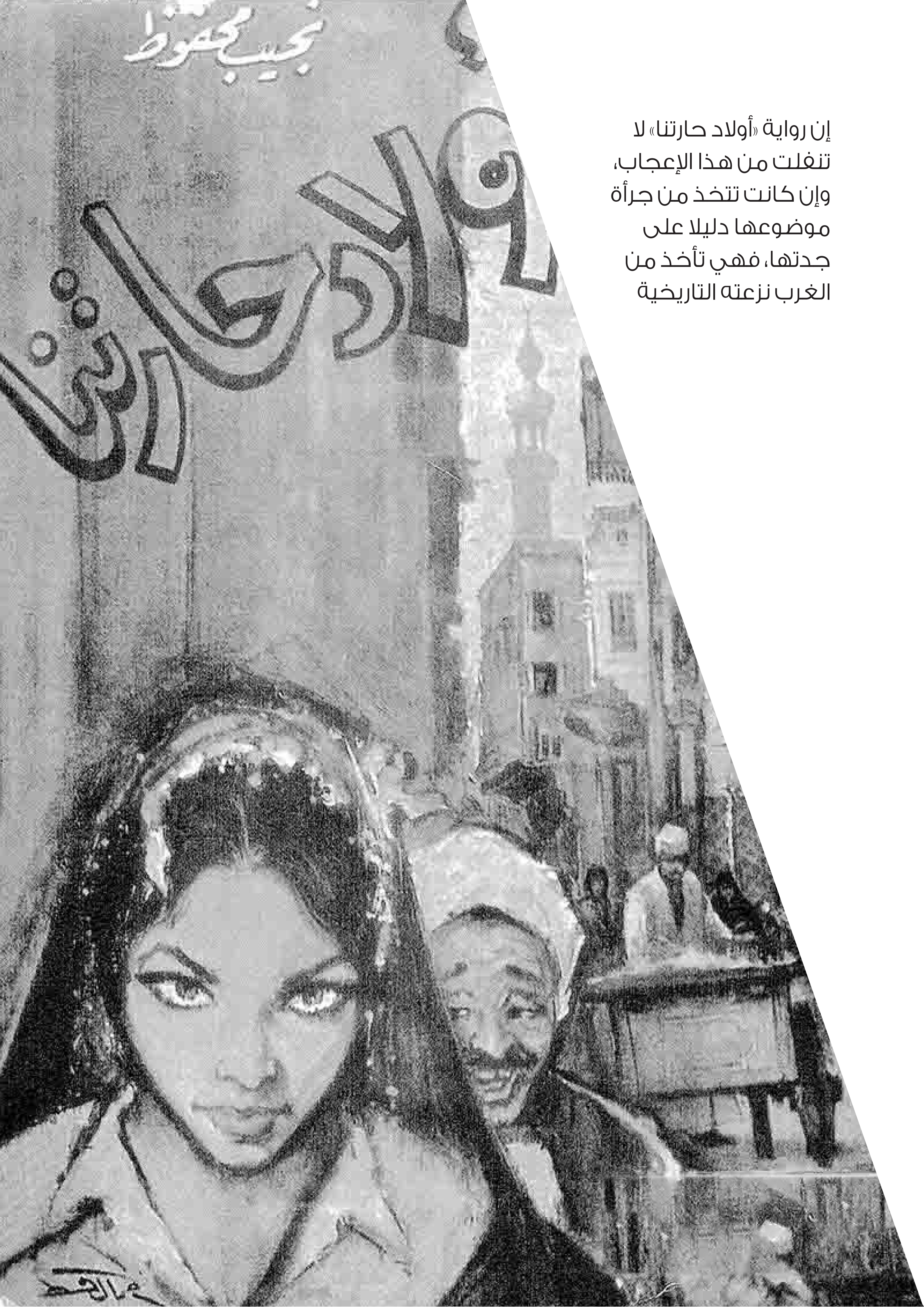
تتخذ رواية «زينب» لها موضوعا التجربة العاطفية[١٨]، لكنها تمررها انطلاقا من أفكار طبيعية رومانسية، وليست بالضرورة عائدة مباشرة إلى جان جاك روسو، وهو في ذلك يعبر عن فكرة الحب كما هي مصوغة في الفكر الغربي، لكن من خلال تكييفها مع القيمي الأخلاقي العربي. فتقليد الفكرة تماما من خلال تمثيل مضاعف، والمضاعفة متأتية من إعادة تشكيل الفكرة من زاوية التلاؤم مع ميراث عاطفي- قيمي للأنا، فالطهرانية العذرية تتحكم في إنتاج العاطفة في هذه الرواية. هذا فضلا عن كون هذه المضاعفة كانت تعاني مع عدم اكتمال الشكل الروائي، فإذا كانت رواية «زينب» قد مهدت لتحرير الشكل نسبيا من السجل اللغوي التراثي، فإنها لم تعثر على الأسلوب الروائي المتحرر من وظيفة النثر التراثي، فقد ظل الوعظ حاضرا في تواز مع تمجيد الماضي القيمي، لا الاجتماعي والسياسي. كما ظل هذا الأسلوب مقيدا بالمستنسخ من الكلام ومسكوكه. وتشكل رواية «الحي اللاتيني» تنويعا مختلفا على نموذج مضاعفة تمثيل الفكرة، فهي ترتبط بفكرة الحرية، وإعادة طرح مسألة التقاليد الشرقية التي طرحتها رواية «زينب» في علاقة الرجل بالمرأة، لكن ليس انطلاقا من الفكرة الرومانسية- الطبيعية، ولكن من خلال الفكرة الوجودية كما هي مصوغة مع ألبير كامي، لا جون بول سارتر، لأن الأول يسمح بتكييف فكرة الحرية بالتجديل بين «نعم» و«لا»، بينما الثاني كانت عنده «لا» جدرية، لا تخضع للتسوية. ويظهر تكييف الفكرة في ربط الفكرة الوجودية بالتوجه القومي. لكن تعد هذه الرواية بمثابة تقدم ملموس في إرساء الشكل الروائي المقلد طبعا في العالم العربي، إلى جانب روايات نجيب محفوظ.

وتعد رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» تنويعا متقدما على رواية مضافة تمثيل الفكرة؛ فهي تتخذ لها موضوعا مسألة ظهور الأديان، وتطورها من خلال بناء رمزي شفاف. وإذا كان الموضوع يتسم بالجرأة والجدة، فهو ممرر من خلال فكرة الغير وتمثيلها، وجعل الموضوع مجالا لتبديها تخييلا؛ إذ تمثل الأديان من خلال وجهة نظر لها صلة بفهم التحولات المؤسسة لصيرورتها في مجرى الزمن. لكن البعد الرمزي تقلص النزعة التاريخية، وتجردها، ومن ثمة تضغط على الأسلوب الذي يتجه نحو ما هو عام وتجريدي، يغيب معه الملموس الجاري الذي يحدد سمت الرواية.

إن فهم ما جرى في أفق فهم ما ينبغي أن يكون، هو ما يكمن خلف رواية الفكرة، ومن ثمة كان الماضي واضحا في كل من النصوص الثلاثة، وكان التاريخ من حيث هو نتائج واردة أيضا، وكانت الفكرة تقدم عونا للفهم؛ بيد أن تمثيلها تم بطريقتين مختلفتين: ففي رواية «زينب»، ورواية «الحي اللاتيني» كان تطلع الفكرة في علاقتها بماض محلي ذات صبغة فردانية، وتضع نفسها في صلب المجتمع. وكان تطلع الفكرة في رواية «أولاد حارتنا» ذا صلة بفهم العالم بوصفه كلمة قابلة لأن تفسر، انطلاقا من القبض على صيرورة الأنساق الدينية الكبرى، من دون وضع فعل النخبة في صلب هذا الفهم؛ حيث العلم يعد في النهاية أفقا.

١٧- يحدد محمد حسني هيكل موضوع الأدب بصفة عامة، ومن ضمنه الرواية- في التجربة العاطفية، بل يربط هاته التجربة العاطفية بالتجربة الشخصية للكاتب، ويفسر فتور الرواية في أحد أسبابه بكون الفرد يعيش تجربة واحدة في هذا الجانب؛ الشيء الذي يجعله لا يكتب سوى رواية واحدة.

١٨- محمد حسني هيكل: ثورة الأدب، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ٢٠١٣، ص ٨٦



إن رواية «أولاد حارتنا» لا تنفلت من هذا الإعجاب، وإن كانت تتخذ من جرأة موضوعها دليلا على جدتها، فهي تأخذ من الغرب نزعته التاريخية

إن هـذه النمذجـة الثانيـة تعـد تقدمـا في طريـق التأسـيس الـروائي، وقـد كان أصحابهـا عـلى وعـي حـاد بأهميـة المعرفـة، ومحـاورة الأفكار مـن داخـل نصوصهم، وكانـت الروايـة أيضـا تفكـر. وقـد عملـت الروايـة بمـوازاة مـع خاصيتهـا هـذه على تجديـد الشكل والمحتوى معـا، انطلاقـا مـن التقليـد غـير الصريـح للوافـد التعبـيري الجديـد. فـإذا كانت رواية «الحـي اللاتيني» تعـبر عـن هـذا الأمـر عـلى نحـو مـوارب مـن خـلال الإعجـاب بالثقافة الفرنسـية، وبخاصـة منهـا الوجودية؛ فالنـص الـروائي كان بـدوره يسـلم دفـة شـكله ومحتـواه لهـذا الإعجاب. كمـا أن روايـة «أولاد حارتنـا» لا تنفلـت مـن هـذا الإعجـاب، وإن كانـت تتخـذ مـن جرأة موضوعهـا دليـلا عـلى جدتهـا، فهـي تأخـذ مـن الغـرب نزعتـه التاريخيـة، وبخاصـة منهـا تلـك الـتي تسـعى إلى التأريـخ للمعرفـة. وبخاصـة منهـا النزعـة الهيغيليـة الـتي شـملت الفـن والفكـر والديـن.

وممـا يسـتحق الذكـر في هـذا الجانـب، كـون التفضيـة تعـد خاصيـة مهمـة في صياغـة نمـوذج روايـة الفكـرة، وبخاصـة التأطـير المـكاني الـذي لا نعـني بـه أبـدا التحديـد الوصفـي لـه، وإنمـا كونـه خلفيـة لا بـد منهـا لانبثـاق الشخصيـة حاملـة الفكـرة، وقـد يكـون هـذا المكـان مجـردا، وهـو الأغلـب عـلى الرغـم مـن واقعيتـه، ومـن التفاصيـل الـتي تشـمله عنايـة الـروائي. فإمـا أنـه شرق، أو متخلـف، أو شرط، أو تعـين ثقـافي. فهـو محايـث للفكـرة، لا مـن حيـث كونـه مجالهـا، فهـي آتيـة مـن سـياق آخـر، ولكـن مـن حيـث هـو شرط لمـا يتخفـى وراءهـا مـن تطلـع. ولـم يختلـف الأمـر- في هـذا الجانـب- عـن مضاعفـة تمثيـل الفكـرة، فقـد كانـت الروايـة في العالـم العـربي- خـلال هـذه النمذجـة- تصغـي لمـا يؤسسـه النقـد الأدبي مـن طروحـات في صـدد فهـم الأدب. ويظهـر هـذا في كتـاب «ثـورة الأدب» لحسـين هيـكل. وليـس مـن المتعـذر التنبـه إلى مـا مارسـه عامـل المكان مـن تأثـير في فهـم النصـوص وتفسـيرها، وتشـكيل الفكـر (الناقـد الفرنـسي «تـين»). وعـلى العمـوم، فهـذه التفضيـة المكانيـة تسـبق الشـخصية، وتفسـح المجـال لتكـون الفكـرة، وتحولهـا إلى حافـز للتطلـع. وهنـاك دومـا فاصـل بـين العالـم الخارجـي والـذات، وكل منهمـا يقيـم حيـث هـو، وتصـير المسـافة هـي المكـان النسـب للتطلـع، ومـن ثمـة تتيـح هاتـه المسـافة الفاصلـة إمـكان نشـوء التقويـم، سـواء أكان تعليقـا مباشرا عـلى لسـان الكاتـب، أم كان موضوعـا عـلى لسـان الشـخصيات. لكـن عـلى الرغـم مـن هاتـه المسـافة لـم يكـن العالـم ملتبسـا؛ فهـو واضـح بمـا فيـه الكفايـة، لأن الفكـرة موجـودة بقـوة، ومهيـأة مـن قبـل الكاتـب لأن تفسـر العالـم، وتجعلـه متعينـا داخـل إطـار ذهـني محدد. هـذا الأمـر وارد حـتى بالنسـبة إلى الروايـات الـتي اهتمـت بمـا هـو علاقـات غراميـة أو جنسـية، كمـا هـو الحـال بالنسـبة إلى إحسـان عبـد القـدوس، فقـد كانـت الفكـرة تشـتغل خلـف وضـوح العالـم مـن حيـث هـو تبعـات سـلوك، لأن المعرفـة السـيكولوجية هـي الـتي كانـت تشـتغل خلـف بنـاء النـص الـروائي.

لـم يخفـت القيـاس، وكذلـك لـم تكسر المـرآة، في روايـة الأفـكار؛ فقـد ظـلا يشـتغلان ولكـن بطريقـة مختلفـة. فـإذا كانـت روايـة «الحـي اللاتيـني» تشـتغل عـلى موضوعـة السـفر، فهـي لا تضـع الأصـل في خلفيتهـا بوصفـه مفهومـا لغويـا وتخييـلا قديمـين، بـل جعلـت الـذات تـرى نفسـها في مـرآة الآخـر مـن دون موضعـة الانحـراف تجـاه الأصـل في نظرتهـا، بـل وضعـت مقابـل ذلـك التاريـخ والمسـتقبل، وتلمـس صـورة الـذات في صـورة ذات الغـير الثقـافي- لا الصنـاعـي أو السـياسي. فالزمـن فيهـا يوضـع وفـق مـكان مؤثـث بمفهومـات ليسـت ذاتيـة وإنمـا غيريـة، لكنهـا تتصـف بكونهـا أدبيـة حديثـة (المقـروء والمشـاهد الفرنسـيان). هكـذا يكـون الزمـن هـو زمـن الفكـرة، لكـن لـم ينمـح منـه القيـاس، المـاضي بوصفـه أثـرا ظـل حـاضرا (التقاليـد الشرقيـة)، لكـن يوضـع موضـع شـك؛ فالزمـن هـو مماثـل للنقيـض عـلى مسـتوى بنـاء الفكـرة، ومـن ثمـة يكـون تقابلـه بـين أفـكار معوقـة تشـكل قضيـة، ويمثـل التطلـع في هيئـة نقيـض يحـرك السرد، كمـا هـو الأمـر بالنسـبة إلى «ثلاثيـة نجيـب محفـوظ»، وهكـذا يصـير في نهايـة المطـاف زمـن روايـة الفكـرة مركبـا يمنـح ذاتـه في هيئـة لحظتـين تتقابـلان- بوصفهـا توليفـا- داخـل صـيرورة سرديـة واحـدة، ومـن ثمـة يكـون زمـن تنفيـذ موصـوف بالتعـارض؛ أي بـين زمـان تولـد الفكـرة الـتي تنشـأ مـن زمـان مركـب أيضـا (مـا كان ومـا ينبغـي أن يكـون)، وزمـان التحقـق.، فلـم يعـد التعـارض الزمـني تعارضـا ممانعـا خارجيـا، بـل صـار داخليـا بـين لحظـة الحلـم ولحظـة انكشـاف الوهـم.

إن مـا يميـز المكان الخطـابي في روايـة الفكـرة اسـتناده إلى مفهومـات أدبيـة حديثـة مسـتقاة مـن الغـرب، لكـن تجـدل مـع مفهومـات فكريـة أنطولوجيـة مرتبطـة بالمحل، ومـن ضمـن ذلـك اسـتمرار العالـم، ففكـرة انسـداد الأفـق لـم تكـن واردة، لأن الإيمـان بالتقـدم كان قويـا وممكنـا، ولذلـك كان قبـول العالـم التغيـير الحافـز وراء بنـاء الشـخصية، وصياغـة الحـدث، وكانـت الخاصيـة النقديـة الـتي ظهـرت مـع نمـوذج الانبثـاق حـاضرة، لكـن في أفـق قبـول العالـم التغيـير، بيـد أن هـذه الخاصيـة لا تسـتند إلى انحـراف عـن الأصـل، وإنمـا إلى البحـث عـن الأسـباب الكامنـة وراء عـدم تماسـك الشـخصية، وإيجابياتهـا، كمـا هـو الأمـر في روايـة «القاهـرة الجديـدة» لنجيـب محفـوظ.

صدر حديثا


مايكل ج. ساندل
العدالة
ما الجدير أن يُعمل به؟
ترجمة: مروان الرشيد
Jadawel جداول
مؤمنون بلا حدود



يُمكن توصيف المرحلة التي تدخلها الرواية العربية المعاصرة بالانعطافة الروائيّة في ظلّ الثورات العربيّة، وانطلاقاً من تأثيراتها الكبيرة والكثيرة في الوجدان والذاكرة والخيال، لما تشتمل عليه من مغامرة فنّيّة وموضوعاتيّة، عبر إحداث نوع من الصدمة في وجدان القارئ، سواء كان ذلك بإعادته إلى التاريخ وتأكيده على استمراريّة نسغ الأسى والإيلام، وصولاً إلى التفجّر الواقعيّ الراهن، وتخيّل مآلاته ومصائر أبطاله المتعاركين.

تنعكس التحوّلات الاجتماعيّة والتاريخيّة والسياسيّة التي تجتاح العالم العربيّ، على اللغة والأدب والفنّ والفكر، فتكوّن كلّ مرحلة محطة بعينها، وتشكّل علامة فارقة في خريطة التغيير التي تتبلور بالتقادم والتراكم، وتمثّل منعطفاً يمرّ به الشعب، وتمرّ به اللغة التي تكون متأثرة بما يجري، وقد تحتاج إلى إعادة تعريف بعض الكلمات، أو استخدامها في سياقات جديدة تواكب المتغيّرات الحاصلة.

تتخلّل الثقافة، كمفهوم شامل متجاوز، جميع مناحي الحياة والمجتمع، تؤسّس لقواميس لغوية وفكرية جديدة، تعيد إنتاج تعبيرات واصطلاحات وكلمات بحلل متجدّدة، ويفترض التجديد أن ينهض الأدباء - وخصوصاً الروائيّون - بدور رفد قواميس اللغة والفكر بالأنسب، عبر ممارسة ما يمكن توصيفه بالحفر

الرواية العربيّة في مهبّ التحوّلات التاريخيّة



بقلم: هيثم حسين
كاتب سوري مقيم في أدنبرة / بريطانيا





شكّلت الثورات
العربيّة ومسارتها
وانحرافاتها
والسياقات
المتشعّبة
والمتداخلة التي
أفرزتها، بؤرة تحوّل
في الرواية العربيّة
الجديدة

والتنقيب والاشتقاق، ناهيك عن توظيف ذلك كلّه في خدمة التنوير المنشود.

شكّلت الثورات العربيّة ومساراتها وانحرافاتها والسياقات المتشعّبة والمتداخلة التي أفرزتها، بؤرة تحوّل في الرواية العربيّة الجديدة، وقد تجلّى تأثّر الروائيّ العربيّ بالأحداث الكبرى التي يشهدها في أعماله، حيث سعى إلى قراءة الواقع من وجهة نظر روائية، وتقديم شهادته المعاصرة على ما يجري، وكيف أنّ تداعياته لا تتوقّف عند حدّ بعينه، بل تكمل دورة التأثير، وتحدث دوائر جديدة كلّ مرّة.

لم يعد الواقع العربيّ راكداً، ولا عاد الروائيّ منزوياً في قوقعة يوميّاته وهوامشه، بل بات الراهن بمستجدّاته ومفاجآته ضاغطاً عليه للعودة إلى التزام مأمول، وهذا ما تمّت ملاحظته في العديد من الأعمال الروائية العربيّة التي صدرت مؤخّراً، والتي حاولت أن تؤرّخ للحظة التاريخية بطريقتها الخاصّة، منطلقة من التزام الروائيّ بقضيّته التي يؤمن بها، عبر نبشه في خفايا التاريخ خبايا الواقع، مهندساً روايته التي تكمل دورة تأثيرها عبر حمولة معرفية، قيميّة، فنّيّة معاً.

عن تطوّر اللغة، والحمولة الفكريّة التي تتحرّك في محورها وفضائها الرواية، كتب الفرنسيّ فيليب دوفور كتابه «فكر اللغة الروائيّ»[١]، الذي درس من خلاله تطوّر اللغة الفرنسية إبان الثورة الفرنسية، وكيف أنّ اللغة التي استخدمها الأدباء أسّست لمرحلة جديدة في تاريخ الفكر واللغة والأدب معاً.

أكّد دوفور أنه على امتداد قرن فقدت فيه اللغة من بديهيتها، وأصبح الروائيُّ المعلق الكبير على الكلام، ويقول إنّه صحيح أنّ المعنى غير مؤكّد، لكن ثمّة الكثير ممّا يمكن سماعه في الكلمات. واعتبر أنّ الرواية تؤسّس لقواميس لغوية وفكرية جديدة، تعيد إنتاج تعبيرات واصطلاحات وكلمات بحلل متجدّدة، ويعتبر أنّها على عكس قواميس اللغة التي تهمل سياق القول، فإنّها تبني قواميسَ في الخطاب وقواميسَ في الأفكار الموروثة، فتمارس علم آثار الثقافة. ويجد أن الرواية تستوعب مسردها، وأنّ الروائيّ يبحث عن أصل الكلمات، ولا يضعه في تأويلات فقهاء اللغة. وينطلق من تساؤلات: مَن الذي يختبئ وراء الكلمات؟ مَن يتلاعب بها؟ مَن يشوّهها؟

لفت دوفور النظر إلى أنّ الكتابة تناضل ضدّ البديهيات وضدّ كلمات التعرّف، وأنّ الرواية تشير إلى الهامش الهشّ الذي يفصل قناعات اللامفكّر به من حيث تهجّن الحقيقة، لتصبح أيديولوجيا. وأبرز أنّ الرواية تنهض بهذه المهمّة بعناد، في داخل العمل الواحد ومن عمل إلى آخر، كما لو أنّ الروائيّين قد عاهدوا بعضهم بعضاً على إنجاز هذه المهمّة المشتركة، ليكونوا صنفاً آخر من الأكاديميّين، فتراهم يواصلون عملهم النقديّ على امتداد القرن.

الانعطافة الروائيّة في ظلّ الثورات:

يمكن تلمّس جانب من التحوّلات الواقعية في عدد من الروايات العربيّة الصادرة مؤخّراً، وتتلاق في تنقيبها في التاريخ في مسعى للوصول إلى اللحظة الراهنة بكلّ سخونتها و»تخبّطاتها» ومفارقاتها وتأثيراتها التي تبدو أنّها في مرحلة البداية الروائية العربيّة في مستهلّ العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين.

لربّما يمكن توصيف المرحلة التي تدخلها الرواية العربية المعاصرة بالانعطافة الروائيّة في ظلّ الثورات العربيّة، وانطلاقاً من تأثيراتها الكبيرة والكثيرة في الوجدان والذاكرة والخيال، لما تشتمل عليه من مغامرة فنّيّة وموضوعاتيّة، عبر إحداث نوع من الصدمة في وجدان القارئ، سواء كان ذلك بإعادته إلى التاريخ وتأكيده على استمراريّة نسغ الأسى والإيلام، وصولاً إلى التفجّر الواقعيّ الراهن، وتخيّل مآلاته ومصائر أبطاله المتعاركين.

سعى السوريّ فوّاز حدّاد في روايته «السوريّون الأعداء»[٢] إلى كتابة تاريخ سوريا الحديث بعد الاستقلال، مروراً بانقلاب البعث واستيلائه على السلطة، وصولاً إلى الأحداث الأخيرة التي تشهدها البلاد، وما رافق كلّ مرحلة من اقتتال واستعداء وفتن ومؤامرات، حيث إنّ التاريخ الحديث للبلد يبدو أشبه بمتاهة من المؤامرات والدسائس التي دبّرها النظام، والتي من شأنها المحافظة على بنيته القائمة وتفضيله على الوطن والدولة.

خصّص حدّاد الشطر الأكبر من روايته، لسرد الأحداث الدموية التي شهدتها مدينة حماة السورية في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين، وعاد إلى ما قبل

١- دوفور، فيليب، ت: هدى مقنّص، فكر اللغة الروائي، دراسة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ط١، ٢٠١٤م.

٢- حداد، فواز، السوريون الأعداء، رواية، دار الريس، بيروت، ط١، ٢٠١٥م.



ذلك بعقود، ليصف التدرّج الذي أوصل الأمور إلى ما آلت إليه من خراب ودمار، كما وصف أدوار بعض الشخصيات في المجريات والمهام المنوطة بها، حيث يتبدّى كأنّه يؤرّخ ما تعامت عنه الرواية الرسمية، ويوثّق روايات الشهود وحكايات الضحايا.

استعاد صاحب «المترجم الخائن» مراحل مهمة شكّلت منعطفات مرّت بها سوريا، وظلّت في ذاكرة السوريّين من دون أن تعرف طريقها إلى التوثيق أو الرواية، كما ينتقل لتوصيف الأوضاع التي استجدّت في سوريا بعد اندلاع الثورة السوريّة في مارس/ أذار ٢٠١١، وكيف تمّ اللجوء إلى الأساليب القديمة التي انتهجها النظام في حماة للقضاء على الثورة وتحويل البلاد كلّها إلى كتلة من اللهب والنار والدمار. والشعار الذي رفعه النظام «الأسد أو نحرق البلد»، وأثناء ذلك يصف الصراع المحتدم بين أركان السلطة، والمسارعة إلى تقديم الولاء عبر تقديم مقترحات إجراميّة للقضاء على التحرّكات والاحتجاجات الشعبيّة.

السوريّة سميرة المسالمة، عالجت في روايتها الأولى «نفق الذلّ»[٣] الممهّدات التي أوصلت البلد إلى حالة من التفتيت والتدمير. ركّزت على تقديم إضاءات على حياة السوريين خلال العقود الأربعة الأخيرة في ظلّ فساد كارثيّ، وكيف كانوا يجدون أنفسهم مرغمين على تخطّي اختبارات الولاء للأفراد وانتزاع حالة الانتماء المفترضة، ليتمكّنوا من الحظوة بأبسط حقوقهم. تصف جوانب من العهر السلطويّ الذي مورس بحقّ أبناء البلد، وتضيء عتمة الدوائر الضيقة التي دأبت على تعكير صفو البلاد بالمؤامرات والدسائس، ليطمئنّ المستبدّ ويُعطى مفاتيح الأمان، ويبقى المواطن «صالحاً» يلتزم بحدوده.

التقطت الرواية مفارقات التيه السلطويّ، وكيف تمّ دفع الناس نحو التفتّت والانقسام، من خلال تأميم الإثم ليكون الخراب المتراكم مرتعاً للصوص الذين يكبّلون رقاب الناس ويفرّغون جيوبهم. تصوّر تغيّر السياسات وإجماعها على تأليب الناس ضدّ بعضهم بعضاً بنوع من الضغينة المسمومة. كما تلتقط بوادر التغيير ورياحه القادمة من تونس، وكيف أنّ الثورات خلخلت بنية السلطة التي وجدت نفسها أمام أمواج من البشر الثائرين الحالمين بغدٍ أفضل، وكيف أنّ القمع غير المحدود والعنف الشرس الممارس أنذرا بدمار فظيع لاحق.

اليمنيّ حبيب عبد الربّ سروري، عاد في روايته «ابنة سوسلوف»[٤] إلى سنة ١٩٦٢، لينتقل ببطله إلى زمن الثورة، يصفه في ماضيه، وكيف كان مستمتعاً بالجوّ الطفوليّ البهيج مع أطفال البلدة في عدن، وما آلت إليه الأوضاع بعد ذلك من خلال نداءات العنف بالعنف، تلك التي من شأنها نسف بنية البلاد المتهالكة، وإحياء الثارات المتجدّدة وإبقائها جمراً تحت ركام الأحقاد المتعاظمة.

يصف الراوي كيف أنّ تمجيد العنف كان سيّد الأزمنة وظلّ كذلك، عبر الدعوات إلى الالتزام به منهجاً ثوريّاً وثأريّاً دائماً. وتراه يلتقط أصوات الباحثين عن القتل والاقتتال، يصف صوت المنادي بالعنف بأنّه زعيق جنونيّ خالص بلا لحن، موجّه ضدّ الحياة، ضدّ الإنسان، وأنّه احتفال من كباش فداء بثقافة الاستشهاد والانتحاريين، بثقافة إبادة الذات.

يجري الكاتب نوعاً من التداخل بين الكتابة الفيسبوكية التي تكون متّسمة بالاختصار والتكثيف، والسرد الروائيّ المتحلّي بالروية والهدوء، وذلك من خلال الدخول إلى كلّ فصل عبر بوّابة منشورات الفيسبوك، تلك التي تحضر في سياق التأريخ للحالات النفسيّة، بالموازاة مع التغيّرات المتسارعة، وتدعم وجهة نظر الراوي في بعض الأحداث، ولاسيّما يكون تكون منشوراته السابقة ذات صبغة استشرافيّة.

اليمنيّ أحمد زين رصد في روايته «ستيمر بوينت»[٥]، صورة مدينة عدن في توقيت مفصليّ من تاريخها الحديث، قبيل مغادرة القوّات الإنكليزيّة المستعمرة لها، وتكون تلك لحظة المواجهة مع الذات، والوعي والصدمة والدهشة معاً، والمرحلة التي تشكّل علامة فارقة في تاريخها، بين الاستعمار والاستقلال، بين التحرّر من سطوة المستعمر والبحث عن الذات في بحر من الصراعات والتناقضات، بين تعلّق بالمستعمر وتورّط قد يصل إلى حدّ الشغف في علاقة معه، وواجب البدء ببناء الشخصية العدنيّة المستقلّة.

٣- المسالمة، سميرة، نفق الذل، رواية، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط١، ٢٠١٤م.

٤- سروري، حبيب عبد الرب، ابنة سوسلوف، رواية، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.

٥- زين، أحمد، ستيمر بوينت، رواية، دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٥م.



سعى السوريّ فوّاز
حدّاد في روايته
«السوريّون الأعداء»
إلى كتابة تاريخ سوريا
الحديث بعد الاستقلال



يستعيد العراقيّ عوّاد علي في روايته «حماقة ماركيز» جروح أبنائه وضياع أعمارهم في صراعات كان من شأنها إتلاف مقدرات البلد وتدميره

أشار زين إلى أنّ عدن كانت ملتقى للحضارات والقوافل، لا ملتقى للبواخر فقط، يقصدها التجّار من مختلف الأرجاء، يمرّون بها، وقد يختارونها مقاماً، مؤقّتاً أو دائماً، يتعلّقون بها بالرغم من طبيعتها القاسية، وهي تمتاز بقدرتها على تكييف زائريها تبعاً لمزاجها الصحراويّ، وموقعها الاستثنائيّ الفريد، فتظلّ الملتقَى المبتغى والمنشود، وواحة من التعايش في محيط من الصراعات المستعرة والحروب المشتعلة.

أما اليمني علي المقري يعود بدوره إلى التاريخ من زاوية مختلفة في روايته «بخور عدني»[٦] ليستقي منه العبر والدروس، ويمارس نوعاً من الإسقاط على الواقع بكل ما يعترك فيه من تخبطات وتغيرات تكون حادة ومفصلية أحياناً، ويبرز من خلال ذلك أن تاريخ البلد والمنطقة والعالم مر ويمر بمنعطفات يسِمها العنف والتطرف، يتطاحن فيها البشر لأسباب قد تبدو، بعد عقود، بسيطة، وربما مثيرة للشفقة.

يأتي توظيف المقري للتاريخ في روايته كمحاولة منه للعودة إلى جذور الإشكالات التي تبدو مستعصية تعصف بالبلد وأهله، يستعرض الخلافات والاختلافات، والحالات التي حملت بذور الشقاق اللاحق ولغمت بنية المجتمع، وكأنه تم نزع مسمار الأمان من كثير من المفاصل الحيوية، وذلك بالتوازي مع التقاط المشتركات الكثيرة، تلك التي تشكل أرضية مناسبة لإعادة الانطلاق والبناء بعيداً عن الأحقاد والضغائن. لكن هذا ما يبدو أنه درس تاريخي لا يستفاد منه، وجرح غائر لا يتوقف نزفه.

دوّن العراقيّ عوّاد علي في روايته «حماقة ماركيز»[٧]، سيرة بلد ينزف، بنوع من الرثاء الفجائعيّ غير المباشر، وبعيداً عن البكاء على الأطلال، يستعيد جروح أبنائه وضياع أعمارهم في صراعات كان من شأنها إتلاف مقدرات البلد وتدميره، ودفعه إلى الهاوية بتسارع رهيب، ذلك أنّ الجرح يظلّ مفتوحاً، دائم النكء، ويظلّ حنين الناس إلى أمسهم المنشود بعيداً عن قيود الحرب وجرائمها، محطّ اهتمام، ومبعث أمل دائم.

انتقل علي بأبطاله من حرب إلى أخرى، وصولاً إلى بداية الاحتلال الأمريكيّ وإسقاط نظام صدّام، وما تبعه من انقسام بين العراقيين أنفسهم، ودخولهم معمعة عنف وحشيّ غير مسبوق، حيث إنّ الحرب الكبرى بين الدولة والدول المجاورة، أو بين النظام ومعارضيه، انتقلت إلى عنف متبادل بين أبناء البلد الواحد. حلّ التناحر محلّ التقارب، والتباغض محلّ التوادد، وأصبح البلد فرقاً متحاربة، انتشرت الفوضى والمحسوبية، وانتقل العراق إلى مستنقع طائفيّ بعد مستنقع الاستبداد والطغيان وكوارث الحروب.

صوّر التونسيّ علي مصباح في روايته «حارة السفهاء»[٨] بعضاً من إجرام المستبد وتعامله كسلطة احتلال مع أبناء بلده، حيث ينهب موارد البلاد ويفتك بأهلها، ويسعى إلى بثّ اليأس بينهم، ودفعهم إلى الاغتراب عن ذواتهم، وهدر طاقاتهم في صراعات لا تجدي، حيث يحتلّ تسخيف الآخر مركزية في العلاقة بين الناس، وتتمّ الاستعانة بأقوال السفهاء وتصرفاتهم التي قد تصبح مقياساً للولاء المزيف.

تقصّى مصباح في روايته سيرة طاغية منذ طفولته وحتّى شيخوخته، وكيف أن كلّ مرحلة عمرية اتسمت بخصائص مختلفة، تنوعت فيها الاهتمامات واختلفت التصرفات الغريبة، حيث يهيمن عليه كل فترة هوس ما، وغالباً ما يتّسم الهوس بممارسات عنيفة وفظاعات متعددة، ولا يعدم دوماً وجود أشخاص يساعدونه على تجميل قباحاته وتزيينها له، والسعي لإظهارها كبطولات خارقة في الإعلام الموقوف لتعظيمه فقط.

أشار مصباح إلى شرائح اجتماعية مختلفة، رسم ملامح أجيال نهبت منها الديكتاتورية أحلامها، ونغصت عليها حياتها، حيث تجد أن الهجرة أصبحت حلم جميع الشباب، والحلم بالهرب من البلد الذي لا يشعرون فيه بأيّ انتماء أو تقدير، ما يدفعهم إلى مواجهة المشقات، وتحمل الصعاب للظفر بسبل للخلاص من قيود الزعيم المستبدّ الذي يستلب كلّ شيء، ولا يبقي على أيّة بارقة أمل.

وقد حضر تجريب روائيّ آخر، من ذلك حالة إجراء تداخل بين العالمين الافتراضيّ والواقعي لدى الجزائريّ سعيد خطيبي في روايته «كتاب الخطايا»[٩]. وقارب فيها أجواء العالم الافتراضيّ الذي بات يحتلّ حيّزاً كبيراً في اهتمام الشباب، ويلعب دور تنفيسيّاً ما،

٦- المقري، علي، بخور عدني، رواية، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.
٧- علي، عوّاد، حماقة ماركيز، رواية، بغداد، ط١، ٢٠١٤م.
٨- مصباح، علي، حارة السفهاء، رواية، الجمل، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.
٩- خطيبي، سعيد، رواية، منشورات ANEP، الجزائر، ط١، ٢٠١٣م.



أو يبدو في بعض الأحيان كأنّه يعوّض عن الشريك القريب بآخر بعيد يشارك المرء همومه ورغباته، يتبادل معه الملذّات المتخيّلة بناء على صورة مُرسلة أو دردشة حيّة. وأشار إلى أنّ اللعبة قد تبلغ درجات خطيرة، وتصل إلى مراحل مؤثّرة في حياة البعض الذين يعانون فراغاً، حيث تسكنهم فراديس الوهم بعيداً عن بؤس الواقع، فيصدمون بعد ذلك بفداحة ما أوهموا أنفسهم به حين ينقطع التواصل فجأة، أو يغافلهم الواقع بالطلبات الواجبة.

ومن أمثلة خوض موضوعات مختلفة في الرواية العربية، اشتغال السورية هيفاء بيطار في روايتها الجديدة «امرأة في الخمسين»[١٠] على قضية اجتماعية مهمة، وسعت لكشف أوراق الاستلاب الذي يمارسه الرجل بحقّ المرأة، وابتزازه لها بشتّى السبل، لإبقائها رهينة رغباته وتصوّراته، وأنّها حين تحاول الاستقلال بنفسها، أو تسعى إلى الانعتاق والتحرّر من القيود والأحكام المسبقة، تجد نفسها في مواجهة عواصف من الانتقاد والتجريح والتشهير.

تحتلّ الاعترافات حيّزاً مهما في رواية بيطار، إذ تشكّل نوافذ وبوّابات لولوج عوالم يجري التعتيم عليها واقعيّاً، وذلك من باب زعم المحافظة على التماسك المجتمعيّ والأسريّ، وعدم إيقاظ الفتن النائمة، وهي التي تظلّ بؤراً مرشّحة للتفجّر كلّ لحظة، لما تستبطنه من مآسٍ وآلام، وما تتسبّب به من جرائم وآثام.

تسير الاعترافات في مختلف الجهات، تفتح جبهات على أصناف متعدّدة من الرجال، والنساء المعترفات يتحلّين بالجرأة على تقديم كشف حساب لأنفسهنّ وصديقاتهنّ، كحالة فابيولا التي تعرّضت لانتقام وحشيّ من قبل زوج كان يطمع بثروتها، وقرّر الانتقام منها ونشر إشاعة أنّه ليس والداً لابنها، وأنّ ابنها غير شرعيّ، حيث يكون اتّهامه قاتلاً للمرأة في مجتمع شرقيّ تكون السمعة فيه الأساس، ويؤخذ كلام الرجل على أنّه عين الحقيقة، من دون أن يناقش أو يطعَن فيه.

تتشعّب العوالم والفضاءات وتتقاطع لترسم اللوحة التي من شأنها تعرية الادّعاءات والمزاعم، والتصريح أنّ الواقع يحفل بالكثير من الجرائم التي تقترف بحقّ المرأة، سواء كانت الخمسينيّة أو في أيّ عمر آخر، وتظهر أنّ الخيبة تكمن في أنّ مَن يفترض أنّ الأمل ينعقد عليهم بإحداث تغيير في واقع المرأة مستقبلها، يقابلون المسألة باحتقار معيب، وبتقصير فاضح، ويجاهدون للإبقاء على حالة التبعيّة والارتهان لغايات مكشوفة ومبيّتة.

خاتمة:

يؤسّس الروائيّ العربيّ اليوم للتاريخ والذاكرة معاً، وإخلاصه المأمول للحقيقة هو إخلاص للذاكرة والمستقبل، لأنّه يضع أسس هويّة سرديّة مختلفة، تستمدّ مشروعيّتها من التضحيات الجسيمة التي قدّمتها الشعوب في سبيل تحقيق التغيير والانتقال من مستنقع الطغيان والاستبداد إلى برزخ الحلم بدول تحترم أبناءها وتحفظ كراماتهم.

يؤرّخ الروائيّ العربيّ المعاصر لزمنه، ويقع على عاتقه دور تصحيح مسار التاريخ، وإعادة الثقة إليه، ذلك أنّ القول الرائج بأنّ التاريخ يدوّنه المنتصر، يوضع جانباً حين يتصدّر الروائيّ الواجهة، وينهض بدوره في توثيق الحاضر، وهندسة الذاكرة، حيث يهندس تاريخه ويكتبه من زاوية الشاهد الموثّق لا المكلّف بالتلفيق خدمة للأنظمة والطغاة.

إن كان يقال إنّ المصدر الأوّل لمعلومات المؤرّخ هو شهادة أولئك الذين حضروا الحدث، فإنّ الوفاء للضمير والثقافة والتاريخ والمستقبل يحتّم على الروائيّ قبل غيره أن يدلي بشهادته الحيّة عن واقعه، ذلك أنّ الذاكرة الشخصية للروائيّ تؤسّس للذاكرة الجمعيّة، وتساهم بقسطها الوفية في بلورة الصورة الشاملة عن الواقع، وأيّ تردّد عن المواجهة يحمل في طيّاته بذور الارتهان، ويسيء إلى الأجيال القادمة، التي من حقّها علينا الإخلاص والأمانة.

١٠- بيطار، هيفاء، امرأة في الخمسين، رواية، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٥م.



يؤسّس الروائيّ العربيّ
اليوم للتاريخ والذاكرة
معاً، وإخلاصه المأمول
للحقيقة هو إخلاص
للذاكرة والمستقبل

الروائية العراقية لطفية الدليمي لمجلة «ذوات»:

الرواية العربية تمثيل دقيق لتداعيات واقعنا العربي

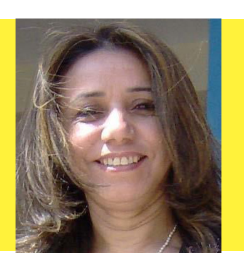


تؤكد الروائية والمترجمة العراقية، لطفية الدليمي، أن الرواية العربية تمثيل دقيق لتداعيات واقعنا العربي، وأنها في فوضاها العارمة تشبه إلى حد كبير الواقع العربي الذي أنتجها، والفكر العربي المترنح الذي لم يعد ثمة من يغنيه ويجدده، موضحة أن الرواية العربية «تمثيل دقيق لتداعيات واقعنا العربي؛ فهي لا تمتلك رؤية فكرية وفلسفية واضحة في معظمها، وتتشابه في غالبيتها، وكأنها نسخ مكررة عن بعضها».

وتبين الروائية العراقية في حوارها مع مجلة «ذوات»، أن الرواية العربية بشكل عام تفتقر إلى الحيوية المجددة للرؤية، وتعوزها المعرفة واللغة المنطوية على الحس الجمالي والتشكيل الحداثي، قائلة إن ثمة تشابهات بين الروايات العربية الراهنة، لأنها تعكس وقائع مجتمعية ونزعات متناقضة.

وتشير صاحبة رواية «سيدات زحل» مع ذلك إلى أن الرواية هي نص الحاضر والمستقبل، وجزء أثير في حركة الحداثة المحاصرة في بلداننا العربية؛ فهي «تقاتل وتتحدى وسط أنواء التراجع والتخلف المجتمعي، وتعمل بوتيرة مجتهدة لمواجهة التحولات والتحديات، والتراجع الثقافي، وانحدار مستوى القراءة، وغلبة الأعمال التجارية على السوق العربية».

ولطفية الدليمي من الأصوات الروائية العربية المتميزة، استطاعت منذ سبعينيات القرن الماضي أن تجعل اسمها غنيا بنوعية كتاباته، وحاضرا بكثافة في مجالات كثيرة؛ فهي تكتب القصة والرواية والمسرحية والدراسات المنفتحة على قضايا معرفية وأدبية والمقالة الصحفية والترجمة، إلى جانب مشاركتها في مؤتمرات ولقاءات ثقافية كثيرة. من بين مؤلفاتها في القصة القصيرة: «ممر إلى أحزان الرجال» (١٩٧٠)، «البشارة» (١٩٧٥)، «التمثال» (١٩٧٧)، «إذا كنت تحب»(١٩٨٠)، «برتقالة سمية» (٢٠٠٢)، وفي الرواية «عالم النساء الوحيدات» (١٩٨٦)، «من يرث الفردوس»(١٩٨٩)، «ضحكة اليورانيوم» (٢٠٠١)، «حديقة حياة» (٢٠٠٤)، «سيدات زحل». كما صدرت لها عدة ترجمات لروايات: «بلاد الثلوج»، و«ضوء نهار مشرق» لـ «أنيتا ديساي»، ولكتب نقدية كـ «تطور الرواية الحديثة» لـ «جيسي ماتز»، إلى جانب ترجمة حوارات لكتاب ومبدعين من العالم.



حاورتها: د. زهور كرام
روائية وناقدة وأكاديمية مغربية



*** كيف تنظرين إلى الرواية العربية اليوم؟ وكيف تقرئين تحولاتها في الأسلوب وصنعة الكتابة؟**

يطغى على مشهد الرواية العربية ذلك الاستسهال في كتابة الرواية بسبب وفرة الجوائز وميادين التنافس، حتى صار من الممكن أن يكتب أي شخص رواية دون أن يكون متوفرا على المعرفة والخبرات السردية، والقدرة اللغوية المتجددة والوعي، وأغرقت السوق بأعداد هائلة من الروايات التي لا تخضع لأي مستوى من التقييم، لأن أصحابها يدفعون مبالغ مالية للناشرين؛ فتحولت عملية النشر إلى تجارة مربحة يتشاركها الناشر وبعض هواة الشهرة، وصار من العسير فرز الجيد من الأعمال الروائية وسط هذه الفوضى العارمة التي ستكرس الهشاشة والركاكة لدى حيز واسع من القراء المبهورين بالدعاية المركزة لبعض تلك الأعمال الروائية الفاشلة، ويسهم بعض هواة النقد في الترويج للركاكة الروائية في تضافر نفعي مع الناشر والكاتب.

لا يعلم هؤلاء أن الرواية ليست لعبة شكلية أو حكاية تروى بنسق حكائي فحسب، بل هي انغماس في صيرورة الحياة وبحث في التجديد، وحس جمالي في استخدام اللغة، والقدرة على معاينة المعضلات المعاصرة، والتوفر على معارف عدة من العلوم الحديثة والفلسفة والفكر والتاريخ والفنون والاقتصاد وعلم النفس والاجتماع. برأيي إن من لا يواصل التعلم من العلوم الحديثة والفنون والفلسفة لا يتعدى كونه راوي حكايات بدائية. هناك أعمال مهمة تشير إلى تحولات جذرية نحو أساليب الرواية الحديثة، وقد وجدت ذلك في عدد من روايات هدى بركات، وربيع جابر، ورفيق شامي، ورجاء عالم بشكل خاص.

*** هل يمكن الإشارة إلى بعض هذه التحولات الجذرية؟**

ثمة اشتغالات تقترب كثيرا من متطلبات الرواية الحديثة تجاوز فيها كثير من الروائيين الأشكال التقليدية للرواية العربية التي هيمنت على الذائقة العربية في القرن العشرين من جهة بنائها التقليدي وموضوعاتها وأساليبها، فقد ظهرت روايات تستخدم البنى الحكائية المنتقاة من الموروث الحكائي العجائبي والحكايات الشعبية الشفاهية وتطوّعها للشكل الروائي الحديث، مثلما استخدم بعضها روح المقامة دون مبالغات لغوية، وعمد البعض إلى استخدام التخييل العلمي في حدود معينة لخلو حياتنا العربية من الإبداع العلمي وابتعادنا عن الممارسة العلمية في فكرنا وحياتنا، ومضى البعض إلى تعزيز المضامين الساخرة في رواياتهم، واهتم بعضهم باجتراح لغة خاصة به طبعت أسلوبه، بينما مضى آخرون إلى الاستغراق في فضاءات ميتافيزيقية شكلت أعمالهم الروائية هربا من واقع مأساوي قاس والتماسا لفضاء لا حدود تحده من الفكر الماورائي، واستعاد بعضهم استلهام الأساطير من تراثهم الحضاري الثري في بناء روايات حديثة، ولم تعدم الرواية العربية الراهنة وجود تجارب قائمة بذاتها لا تستند إلى صيغ مسبوقة، بل تقترح صيغها ورؤاها الخاصة المبتكرة، فقد ابتكر ربيع جابر في سلسلة رواياته عن بيروت تخييلا أسطوريا-تاريخيا غير مسبوق، ووظف فكرته المعاصرة ضمن فضاء غرائبي بسيط يجود بالكثير من المتعة المطلوبة في الرواية الحديثة، ومثله فعلت رجاء عالم التي غرفت من الموروث الحكائي لغة وبناء ومضامين عكست عليها ما شاءت من مواقف معاصرة، وأنجزت أعمالها بأسلوب يمثلها وحدها وينسب إليها...

ومن جملة التغيرات التي طرأت على الرواية العربية ابتعادها عن الإطناب اللغوي والبلاغة المفخمة، واعتمادها لغة معاصرة تميل إلى البساطة حينا، وتجنح إلى الشعرية في أحيان أخرى، مثلما ظهرت روايات كثيرة تمادت في تبسيط اللغة وتطويعها حتى أشبهت اللغة الصحفية اليومية، مما دفع بالكثير من هواة الكتابة إلى اتخاذها أمثولة وأنموذجا للاقتداء به، وهذا مؤشر خطير على تساهل البعض إزاء فهمهم لأهمية العمل الروائي، باعتباره عملا معرفيا وجماليا وملمحا واضحا عن حياة معاشة أو محلوم بها.

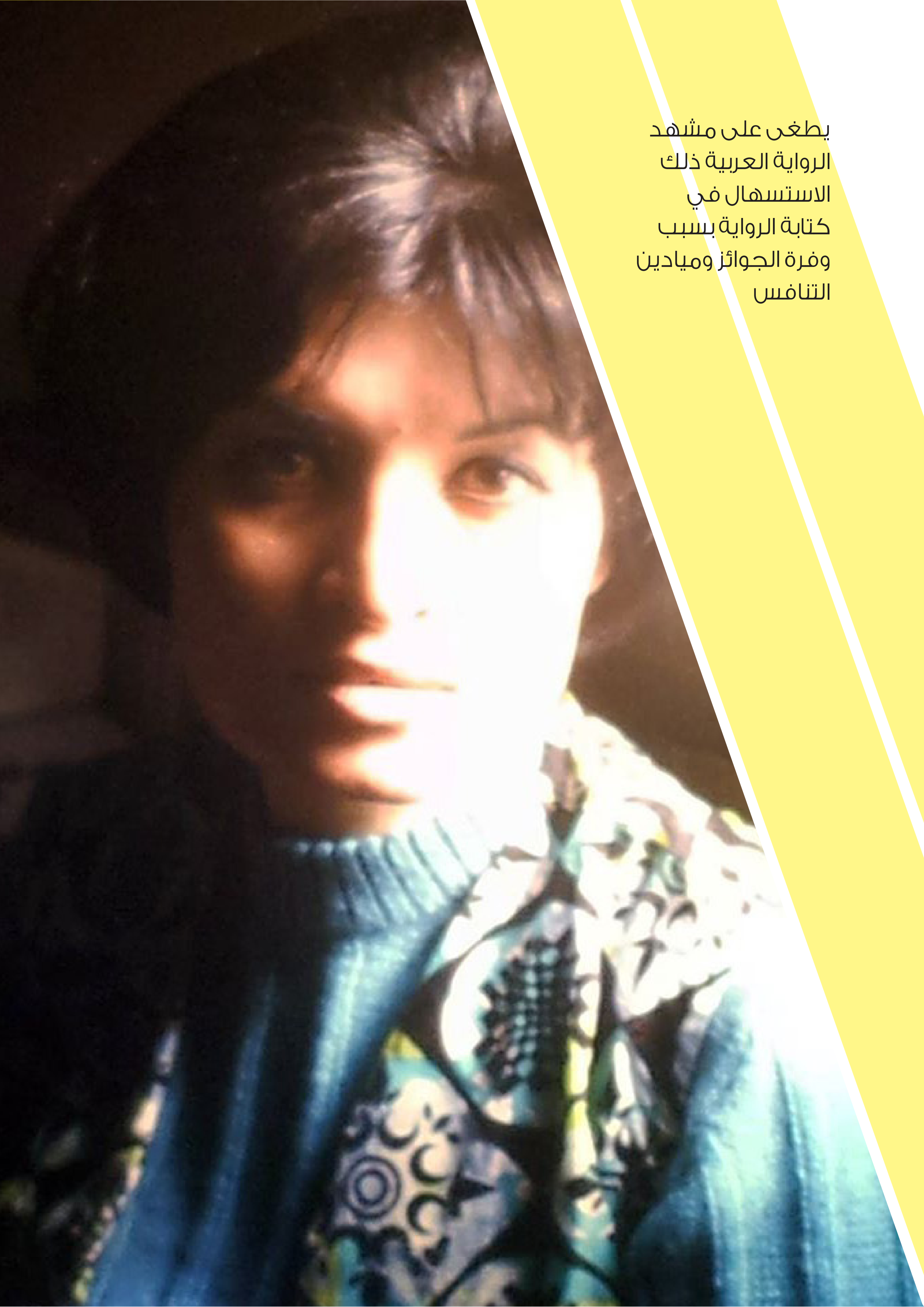
*** ماذا يعني لك التجريب الروائي؟**

التجريب هو أن تكون الإمكانات مفتوحة على عدد كبير من الاحتمالات في العمل الروائي، مثلما يتوفر على قدرة الابتكار وتطويع اللغة لأسلوب شخصي جدا لا يشبه سواه، والإيمان بالمغامرة الروائية، وولوج مستويات غير مسبوقة في البنية الروائية، والقدرة على الاستعارة الرمزية، وخلق البدائل للبنى القديمة في الأشكال الروائية التقليدية.

*** أيكفي عنصر الانفتاح على الاحتمالات في العمل الروائي لتحقيق التجريب؟**

لا، لا يكفي بالطبع، إذ لو اكتفى العمل الروائي بمحض الانفتاح على احتمالات غير محدودة في التعامل





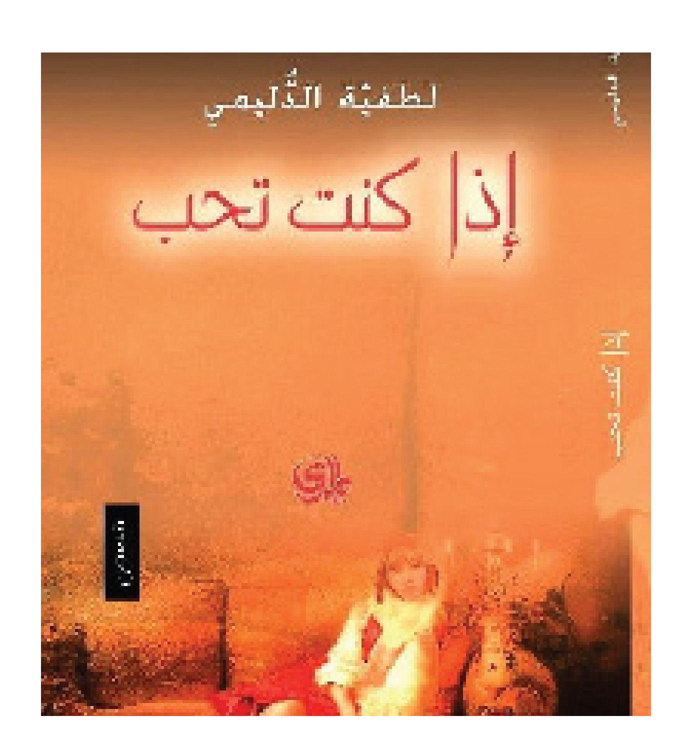
يطغى على مشهد
الرواية العربية ذلك
الاستسهال في
كتابة الرواية بسبب
وفرة الجوائز وميادين
التنافس

مع الحبكات الروائية لكنّا إزاء «الرواية الرقمية» - حتماً - تلك الرواية التي تدع القارئ يختار مسارات التطور الروائي بحسب خياراته الشخصية!! أظن أن السمة الأساسية في التجريب الروائي - إلى جانب الانفتاح على كل الاحتمالات المتوقعة وغير المتوقعة - هو الإيغال في الحفريات المعرفية، واستخدام الرواية ميداناً لتمرير الخبرات البشرية بوسائل غير تقليدية، وعلى نحو يجعل تلك الحفريات متاحة أمام القارئ العادي.

*** وهل الرواية العربية اليوم تقوم بهذا الدور؟**

الحق أن هذا سؤال عظيم الأهمية، وليس مستحسناً الإجابة عنه من غير تفصيل كافٍ، ولست أرى جواباً مناسباً له سوى ذلك الجزء المعنون «لماذا الرواية؟» الوارد في تقديمي لكتاب «تطور الرواية الحديثة» الذي فرغت من ترجمته مؤخراً، وسيظهر مطلع عام ٢٠١٦ عن «دار المدى» العراقية، ولا بأس هنا من إعادة سرد الخصائص الأساسية غير التقليدية التي تسِم الرواية الحديثة، وتجعلها ملمحاً ثقافياً لازماً للنتاج الحضاري العالمي:

لم تعدم الرواية العربية الراهنة وجود تجارب قائمة بذاتها لا تستند إلى صيغ مسبوقة، بل تقترح صيغها ورؤاها الخاصة المبتكرة



تمثّل الرواية نوعاً من الذاكرة الجمعيّة المميّزة لكلّ جغرافية بشريّة: الرواية في هذا الإطار، تصبح بمثابة (خزانة الحكايات) التي تحفظ المزايا المجتمعيّة والأنثروبولوجية لكلّ جغرافية بشريّة، ويمكن من خلالها الإطلالة على العادات والتقاليد وأنماط العيش وفنون الطبخ والأزياء والملابس السائدة في كلّ عصر، إلى جانب كلّ التفاصيل الحياتيّة الأخرى الخاصّة بالحب والزواج والصداقة والرفقة والسفر.... ومن المثير هنا الإشارة إلى حقيقة أنّ معظم المتعلّمين والخريجين الذين غادروا الدراسة الثانوية والجامعيّة منذ عقود بعيدة، قد نسوا تقريباً كلّ ما سبق لهم دراسته، باستثناء الأعمال الروائيّة التي مرّت عليهم أثناء دراستهم، مثل: روبنسون كروزوي، بلد العميان، حرب العوالم، جزيرة الكنز... إلخ، وغالباً ما يستذكرونها بنوع من النشوة العميقة كمن طاف في عالم ساحر لا نظير له. يظنّ الكثيرون أنّ الأعمال الروائيّة لعصرنا ستنهض في الألفيّات القادمة بذات الدور الذي نهضت به الرّقم الطينيّة والسجلّات الآثاريّة التي أمدّتنا بكنز لا ينضب من المعلومات حول الحضارات القديمة.

تؤدّي الرّواية في عالم اليوم الوظيفة التي نهضت بها الأسطورة من قبلُ: غدت الرواية، على الصّعيد الفرديّ، بمثابة (الفضاء الميتافيزيقيّ) الذي يلجأ إليه الأفراد للحصول على فسحةٍ من (فكّ الارتباط) مع الواقع الصلب واشتراطاته القاسية، والإبحار في عوالم متخيّلة لذيذة تشبه حلم يقظةٍ ممتدّاً، ويستوي في ذلك مبدعو الأعمال الروائيّة وقارئوها. يمكن عدّ الرّواية في هذا المجال، وفي عصر العقلانيّة العلميّة الصّارمة، البديل الأكثر جدارة وقدرة عن الأسطورة التي ساهمت - مع فنون السّحر البدائيّة - في تعزيز الصلابة الداخليّة للفرد البدائيّ، وترصين بنيانه الذهني والسيكولوجي وتمكينه من مواصلة العيش بطريقة مشرّفة بعيداً عن التخاذل والانكفاء أمام المصاعب والأهوال التي كانت شائعة مذْ وجِد الإنسان على الأرض، ومن الطبيعي للغاية القول إنّ الرواية خليقة على النهوض بكلّ المهام التي نهضت بها الأسطورة من قبلُ.

الرّواية عمل تخييلي يبدأ بالمخيّلة ويتطوّر داخل فضائها: يعدّ الخيال المجال الحيويّ الخصب الذي تعمل داخله - وفي إطاره - العناصر الروائيّة على تشكيل العمل الروائيّ بغض النظر عن تجنيس الرواية، وبهذا ينظَرُ إلى الرواية كوسيلة ترتقي بالخيال البشريّ، وتمنع انزلاقه في مهاوي الركود وبخاصّة بعد طغيان الإنجازات

العلميّة والتقنيّة التي تعمل على تنميط الحياة وتحويلها إلى سلّة خوارزميّات Algorithms محدّدة بطريقة قبليّة apriori وعلى نحو صارم، ويغدو الأمر أكثر خطورة مع عصر التقنيّات الرقميّة التي تأسّست أصلاً على مفهوم النظم المحدّدة Discrete Systems المحكومة بخوارزميات هائلة التحديد والصلابة، حيث بات الأمر يهدّد النزعة التحليليّة التي تعدّ ميزة فريدة للعقل البشريّ. يمكن الإشارة أيضاً إلى خفوت المؤثرات الحسيّة، وتبلّد الخيال البشريّ وانكفاء شعلة الشغف والإحساس بالمغامرة (الذهنيّة والواقعيّة)، وهنا صارت الرواية تخدم كنوع من ترياق مضاد لهذا الخنوع والانكفاء الذي أصابَ الخيال البَشريّ، وعطّل توهّج الحواس واندفاعتها البدائيّة الباعثة على أعلى أشكال اللذّة التي باتت اليوم مُفتقدَة على نحوٍ مُحزن للغاية.

الرواية لعبة ذهنيّة Intellectual Game في المقام الأوّل: يعمل الفنّ الروائيّ على إشاعة نوعٍ منعش من الحيويّة الذهنيّة والعبقريّة الإنسانيّة المميّزة، إذا ما نظرنا إليه كنوعٍ من ألعاب ذهنيّة ترتقي بالفعاليّات العقليّة المعروفة، ولا غرابة أن تقترن الأعمال الروائيّة العظيمة بالمجتمعات التي حقّقت أعلى درجات الإنجاز العلميّ والتقنيّ والاقتصاديّ والسياسيّ، وفي الوقت ذاته نلمح تراجع الفن الروائيّ في المجتمعات التي تعاني نكوصاً ثقافيّاً وحضاريّاً، واقتصار ذلك الفن على بعض التوثيقات التسجيليّة الساذجة والتلفيقيّة التي لا ترقى إلى مهارة وجمال وحبكة حكايات (الجدّات) و(الأمّهات) الشائعة.

الرّواية يمكن أن تكون علاجاً في حالاتٍ خاصّة: ثمّة جانب براغماتيّ مرتبط بالفن الرّوائيّ الذي يمكن أن يوفّر في حالاتٍ خاصّة علاجاً وافياً لبعض الاضطرابات الذهانيّة، وبخاصّة لتلك الحالة الإكلينيكيّة المسمّاة (الذهان الهوسي - الاكتئابي Manic - Depressive Psychosis) التي تعرَف بين العامّة بِـ (الاكتئاب ثنائيّ القطب Bipolar Disorder): تلك الحالة الكثيرة الشيوع والمدمّرة لحياة الأفراد وبخاصّة الأفراد الذين يتوفّرون على قدر عالٍ من الذّكاء والألمعيّة، والذين تتسبّب هذه الحالة في تعويق قدراتهم بطريقة خطيرة للغاية. ثمّة حالات موثّقة حكى فيها بعض كتّاب الرواية عن تجاربهم الخاصّة، وكيف ساهم انغماسهم في العمل الروائيّ على تخطّي الأطوار الصعبة من اضطراباتهم الذّهانيّة المدمّرة وبشكلٍ عجز عن إنجازه عقار (بروزاك Prozac) الذي بات الخصيصة التي تسِمُ ثقافتنا إلى حدّ صارت تدعى معه (ثقافة البروزاك The Prozac Culture). ذهب بعض الأطبّاء السيكولوجيّين إلى إمكانيّة اعتماد الكتابة الروائيّة كوصفةٍ علاجيّة - في حالات محدّدة بعينها - وربّما يكمن السبب وراء قدرة الكتابة الروائيّة على اجتراح علاج لبعض الاضطرابات الذهانيّة في الطقوس الحتميّة المقترنة بتلك الفعاليّة المدعمة بالانضباط والصرامة المعهودة في كلّ جهد روائيّ، وقد يعمل هذا الأمر على كبح التشويش الخارجيّ مع الضوضاء البشعة المقترنة به، ودفع الأفراد نحو محض التركيز على سماع أصواتهم الداخليّة الثريّة والمدفونة تحت غبار الإهمال

> أظن أن السمة الأساسية في التجريب الروائي هو الإيغال في الحفريات المعرفية واستخدام الرواية ميداناً لتمرير الخبرات البشرية بوسائل غير تقليدية





لا غرابة أن تقترن الأعمال
الروائيّة العظيمة
بالمجتمعات التي
حقّقت أعلى درجات
الإنجاز العلميّ والتقنيّ
والاقتصاديّ والسياسيّ

والتجاهل، الأمر الذي قد يتسبّب في تنشيط النواقل العصبيّة الدماغيّة (مثل السيروتونين والدوبامين) التي تتحكّم في الكيمياء الدماغيّة المكيّفة للمزاج البشريّ وتقلّباته وتدفع به نحو آفاق النشوة والإحساس الغامر بالسعادة غير المرتبطة بمؤثّرات فيزيائيّة خارجيّة، وقد تتماهى تجربة الكتابة الرّوائيّة في هذا الإطار، مع الكشوف العرفانيّة والفيوض التصوّفية المقترنة بها، والتي حكى عنها عرفانيّونا الأكابر والمعتزلة الأجلّاء، وربّما يدعم هذا الرأي كون أغلب الكُتّاب - وبخاصّة الروائيّات والروائيّين - المُجيدين والمميّزين ذوي تجارب مفارقة للوعي البشريّ العاديّ وأقرب إلى استجلاب البصيرة بطرقٍ غير مألوفة، ويمكن تعداد الكثير من الأسماء الروائيّة في هذا الميدان: هيرمان هسّه، دوريس ليسنغ، نيكوس كازانتزاكيس.... ولم يغفل هؤلاء عن توثيق تجاربهم الكاشفة القريبة من الفيوض العرفانيّة في بعض الحالات.

الرواية معلمٌ حضاريّ وثقافيّ تنهض به العقول الراقية في مختلف الاشتغالات المعرفيّة: من المؤكّد ثمّة روائيّون محترفون يكتبون الرواية ويحقّقون أعلى المبيعات، ولكنّ الغالب أنّ أفضل الروايات ليست تلك التي تحقق أعلى المبيعات لمجرّد معرفتها بشروط السوق وألعابها التجاريّة، بل يمكن - على العكس - ملاحظة أنّ كلّ العقول الراقية التي أسهمت مساهماتٍ ثوريّة في الحقل العلميّ أو التقنيّ أو المعرفيّ بعامّة ساهمت بكتابة عملٍ روائيّ أو أكثر لكلّ منها، وربّما كان الأمر يعود إلى حالة البهجة والنشوة المفارقتين للحالات العابرة والمقترنتَيْن بكتابة العمل الروائيّ الذي يمتلك خوارزميّاته الساحرة والجاذبة لكلّ عقل شغوف خبر الكتابة الروائيّة ولذّتها الفردوسيّة. أذكر في هذا المقام، مثلاً، عالم الرياضيّات العبقريّ الأمريكيّ (نوربرت واينر Norbert Wiener) (١٨٩٤ - ١٩٦٤)، واضع أسس علم السيطرة الآليّة Cybernetics، الذي كتب رواية (المُغوي The Tempter) المنشورة عام ١٩٥٩، وكذلك أذكر الفيلسوف البريطانيّ الأشهر برتراند راسل الذي نشر رواية له بعنوان (الشيطان في الضّواحي - Satan in the Suburbs)، كما أذكر البروفسور (مارفين مينسكي Marvin Minsky) أستاذ الذكاء الاصطناعيّ والروبوتيّات في معهد ماساتشوستس MIT الأمريكيّ الذائع الشهرة، و(جون كينيث غالبريث John Kenneth Galbraith) عالم الاقتصاد والأستاذ الجامعيّ المرموق، والذي عمل سفيراً كذلك: هؤلاء كلهم وآخرون كثيرون نشروا أعمالاً روائيّة مرموقة إلى جانب اشتغالاهم المعرفيّة الرائعة، ولن أنسى بالتأكيد الكثير من الفيزيائيّين الذين نشروا أعمالاً روائيّة، وسأذكر بعضاً منهم في الجزء الثاني من هذا التقديم. هنا لا ينبغي الظنّ في هذا الموضع بأن هؤلاء كتبوا الرواية في إطار رواية (الخيال العلميّ) القريبة من انشغالاتهم المعرفية، بل هم كتبوا روايات في كلّ الأجناس الروائيّة المعروفة، وما كانت أعمالهم مفتقدةً إلى الصنعة الفنيّة والحرفنة المهنيّة التي تتطلّبها الكتابة الروائيّة الخلّاقة.

الرواية جهد خلّاق يرمي إلى فتح آفاق جديدة أمام الوعي البشريّ والخيال الإنسانيّ: وصف أحد الروائيّين مرّة الرواية الرصينة بأنّها مثل آلة (إينيغما Enigma) التي استخدمها الحلفاء في فكّ شفرة الحرب الألمانيّة في الحرب العالميّة الثانية، وأظنّه كان موفّقاً غاية التوفيق في وصفه هذا؛ فالرواية باتت اليوم مصنعاً يعجّ بالخبرات التي يتعامل معها الروائيّ، ليخرج في النهاية بعملٍ يصبُّ في هدف فتح آفاق جديدة أمام الوعي البشريّ وتوصيف خارطة التضاريس التي تواجه الجنس البشريّ بكلّ معوقاتها، بل ذهب البعض إلى أنّ الرواية الجيّدة المصنوعة بشغف يمكن عدّها فرعاً من الدراسات الخاصّة بالتنبّؤ بالمستقبل (علم المستقبليّات Futurology)، وبات ينظرُ إلى الروائيّ المتمكّن كفرد موسوعيّ المعرفة تمتلئ جعبته بالكثير من العناصر المعرفيّة، حتّى غدا يمتلك بصيرة رائية ترى تضاريس المستقبل، في الوقت الذي يحكي فيه عن الحاضر، واستحال الروائيّ - على هذا النحو - مثل آلة (إينيغما) معاصرة تفكّ شفرات الحاضر الملتبسة، وتعمل على تلمّس آفاق المستقبل وبخاصّة على صعيدي الوعي البشريّ، والسيكولوجيا الإنسانيّة، وما يترتّب على تطوّرهما من تشكّلات جديدة في العلاقات بين الكائنات البشريّة، وبين البشر والبيئة، وحتى في العلاقات بين الكائنات غير البشريّة مع بعضها ومع الكائنات البشريّة معاً.

الرواية أداة «ناعمة» من أدوات العولمة الثقافية: ثمة ملاحظة في تأريخ الرواية العالمية تدعو إلى إعمال فكر ونظر كبير - إذ في الوقت الذي خدمت فيه الرواية الوعي القومي وتَشَكُّل ما يسمى (الضمير الجمعي للأمة) وبخاصة إبان نشوء مفهوم الأمة - الدولة Nation - State وبزوغ عصر الدول القومية في القرن التاسع عشر، وفي الوقت الذي كانت الرواية الناطقة بالإنجليزية توصف بـ (الرواية الإمبراطورية) تنسيباً لها إلى فضاء الثقافة الإمبراطورية البريطانية، فقد بتنا نرى اليوم اتجاهاً روائياً معاكساً يميل إلى عولمة الأفكار والثقافات والاتجاهات الروائية بدلاً من مركزتها في شكل



استقطاب أحادي اللون والنكهة الثقافية. لا تخفى بالتأكيد الجوانب الإيجابية للعولمة التي تفوق سلبياتها المدّعاة بكثير - على خلاف العولمات الاقتصادية والتجارية المتغوّلة -، كما لا تخفى القدرة الفائقة للعولمة الثقافية في نزع فتيل التأزم الروحي والعقلي (بل حتى الذهاني) الناجم عن الشعور بالدونية الثقافية وعدم نيل الفرص المشروعة، وبخاصة أمام جيل الكتّاب المنتمين إلى فضاء الثقافات الهامشية طبقاً لنظرية المركز - الأطراف الثقافية، ومن الواضح للغاية أن الرواية تشكل القاطرة الثقافية القادرة على جرّ عربة الثقافة العالمية بسبب النزوع العولمي الطبيعي للرواية في تناول مسرات الإنسان ومكابداته

تشكل الرواية القاطرة الثقافية القادرة على جرّ عربة الثقافة العالمية بسبب النزوع العولمي الطبيعي للرواية في تناول مسرات الإنسان ومكابداته على اختلاف طبيعتها وتلاوينها



على اختلاف طبيعتها وتلاوينها، وبصرف النظر عن الحقيقة الصارخة في كون الكتاب المنتمين لفضاء الثقافات المركزية يتمحورون على اشتغالات مفرطة التمركز والتخصيص، في حين أن نظراءهم الماكثين في الأطراف الثقافية غالباً ما يتناولون الهموم الجمعية ذات التداعيات السياسية والاقتصادية والسيكولوجية الناجمة عن الدونية والتهميش وقلة التمكين المادي. إن شيوع المعارض والمؤتمرات السنوية التي تُعنى بالرواية والروائيين، ربما تكون الدليل الحاسم على أهمية الدور الثقافي العولمي الذي تنهض به الرواية وبخاصة الرواية الأمريكية اللاتينية والإفريقية والأسيوية ورواية منطقة الجزر الكاريبية إلى جانب روايات الجغرافيات المركزية التقليدية - سابقاً -، ويبدو واضحاً أن الرواية - في خضم العولمة الثقافية النشيطة الحالية - ستحرز قصب السبق بالمقارنة مع سواها من الاشتغالات الثقافية في تهشيم نموذج المركز - الأطراف الثقافي وجعله إرثاً ثقافياً مركوناً على رفوف النسيان. ثمة مسألة أخرى، ترتبط بالعولمة الثقافية في الميدان الروائي: تلك هي أن الاشتغالات الروائية - إبداعاً وقراءة ومتابعة - تستلزم اهتماماً نوعياً صارماً بتعلم اللغات الأجنبية وإتقانها إتقاناً تاماً، لذا باتت الرواية توفّر الدافع الذاتي الثمين الذي يتقدم ربّما على كل الدوافع البراغماتية الأخرى في ضرورة الانكباب على تعلم حزمة من اللغات الأجنبية منذ اليفاعة وبخاصة عند هؤلاء الذين يتوسّمون في أنفسهم موهبة كتابية ويتطلعون إلى حجز مقاعدهم في المشهد الروائي العالمي، وبالإمكان إيراد قائمة طويلة من الروائيين العالميين (بينهم بعض حَمَلة نوبل)، ممّن يعملون في ميدان الترجمة الروائية.

*** انطلاقا من الخصائص التي أسهبت في ذكرها، هل يمكن الجزم بأن الرواية العربية قادرة على النهوض بدورها؟**

بشأن قدرة الرواية العربية على النهوض بالدور الذي ينبغي أن تقوم به الرواية الحديثة، استناداً لخصائصها غير التقليدية التي أسهبت في تفصيلها أعلاه، أقول الآتي: الرواية صناعة غربية ومنتج ثقافي نشأ بعد عهد التنوير الأوربي، وفي خضم الثورات الفيزيائية والفلسفية والعلمية والليبرالية والسيكولوجية، وتأثر بوتيرة التطورات المتسارعة في البيئة الأوربية، وصار بمثابة سجلّ لتأريخ الأفكار والمعرفة. أما في بيئتنا العربية، فلاتزال الرواية تدور في إطار «الحدوثة» أو «الحكاية» الطويلة المسهبة التي تهتم بالوقائع الفيزيائية أكثر من اهتمامها بالأفكار، وربما كان لجوء



بعض الروائيين العرب نحو الفضاء العرفاني والتصوفي هو السمة الوحيدة التي تشير إلى اهتمامات روائية تتناغى مع الحفريات المعرفية على مستوى التأريخ والأفكار، وفي الوقت ذاته تعكس أمرين خطيريْن يسمان الثقافة العربية: الأول هو كون العرفان والتصوف المنطقة الأكثر إضاءة في تاريخنا العربي الإشكاليّ، حيث يمكننا أن نتحدث عنها من غير استحياء أو وجل، كما نرى فيها قدرة على الإضافة الثرية للثقافة العالمية. أما الأمر الثاني، فيعكس نزوعاً نوستالجياً نحو ذلك الفضاء الروحاني المتسامي بعد أن أثقِلت الأرواح بمشاهد الحاضر الباعثة على أشدّ أشكال الأسى واللاجدوى.

*** هل نستطيع أن نقول إن الرواية العربية اليوم، تشبه الواقع الفكري العربي؟ وهل يمكن الحديث عن رواية عربية؟**

الرواية العربية في فوضاها العارمة تشبه إلى حد كبير الواقع العربي الذي أنتجها والفكر العربي المترنح الذي لم يعد ثمة من يغنيه ويجدده. نعم، الرواية العربية تمثيل دقيق لتداعيات واقعنا العربي، فهي لا تمتلك رؤية فكرية وفلسفية واضحة في معظمها، وتتشابه في غالبيتها، وكأنها نسخ مكررة عن بعضها. الرواية العربية بشكل عام تفتقر إلى الحيوية المجددة للرؤية، وتعوزها المعرفة واللغة المنطوية على الحس الجمالي والتشكيل الحداثي، ويمكننا القول إن ثمة تشابهات بين الروايات العربية الراهنة، لأنها تعكس وقائع مجتمعية ونزعات متناقضة، وثمة عجالة في الإنجاز بسبب التوق إلى الجوائز، وهناك ابتسار للغة يعود إلى أن البعض يكتب، وهو يحلم بترجمة عمله. كثير من الأعمال الروائية تقلد حبكات مرتبكة، تبدو مقحمة على واقع عربي ساكن، تعالجه الرواية وتستلهم وقائعه وشخوصه وتداعيات أحلامه، وانعكاسات التقهقر الثقافي فيه.

*** الرواية اليوم ضرورة تاريخية، أم فسحة جمالية؟**

أضحت الرواية اليوم ضرورة تاريخية للمجتمعات الحديثة؛ فهي المدونة السردية الأبرز التي يمكن تداولها بين مستويات متباينة من القراء، والتعويل عليها في دراسة مرحلة زمنية ما، أو أحداث معينة في فترة من الفترات، حتى أصبحت بعض الروايات مرجعا للباحثين في تطور المجتمعات وتماسها مع الحداثة.

لقد حلت الرواية الحديثة في حياتنا محل الأسطورة التي تحيا وتتكامل، وتترسخ في الوجدان الشعبي، حيثما كان للأسطورة تمثيلها اليومي في حياتنا ومخيلاتنا، واستطاعت الرواية على أيدي المجددين من كتابها أن تثبت هذه الحالة البديلة للأسطورة، فضلا عن كونها أمست وعاء لحفظ خزين الذاكرة الجمعية لشعب من الشعوب، ويمكن أن تكون في كثير من الحالات مبحثا أنثروبولوجيا يقدم لنا مجمل عادات وتقاليد وطقوس شعب ما، وبوسع الرواية، إضافة لكونها اليوم ضرورة تاريخية، أن تغدو تجربة جمالية متفردة. ويمكن للرواية الحديثة المشغولة بحرفية عالية لدى أساطينها أن تكون معلما حضاريا لزمننا؛ فالروائيون المتمرسون يقدمون لنا في رواياتهم وجبة ثقافية ومعرفية تتوفر على كثير من معطيات العصر الثقافية والعلمية، وبذا تصبح الرواية ضرورة تاريخية مطلوبة لتفحص وتيرة التطور والتحديث ومستويات الثقافة في مجتمع ما،

الرواية العربية في فوضاها العارمة تشبه إلى حد كبير الواقع العربي الذي أنتجها



ويمكنـني القـول إن الـضرورة التاريخيـة تتطلـب أسـاليب غـير مسـبوقة ليكـون بوسـعها التأثـير في المتلقـين، وتخصيـب الحيـاة بطروحاتهـا الجماليـة.

*** سـاهمت الوسـائط التكنولوجيـة في نـشر الأعمـال الروائيـة، فمـا حظـوظ رواياتـك مـع هـذه الوسـائط؟ وهـل تؤمنـين بـالأدب الرقمـي؟**

أجـل؛ فقـد حصلنـا عـن طريـق النسـخ الإلكترونيـة عـلى المئـات مـن الأعمـال الروائيـة الـتي قـد يتعـذر الحصـول عليهـا في المكتبـات، وأعانتـني الكتـب الإلكترونيـة كثـيرا، وأنـا الـتي فقـدت مكتبتهـا الكبـيرة في بغـداد، ومكتبـات أخـرى جمعـت كتبهـا في مـدن عديـدة، وعوضتـني النسـخ الإلكترونيـة عـن كثـير ممـا خسرتـه مـن كتـب فكريـة وفلسـفية أساسـية وروايـات عالميـة وعربيـة. لـم تدخـل رواياتي وكتـبي مجـال النـشر الإلكـتروني إلا في حـدود ضيقـة، بسـبب حقـوق النـشر الـتي تحتكرهـا دار النـشر. أمـا عـن الأدب الرقمـي فلـم أتعامـل معـه، ولا أراني أؤمـن بـه.

> نجحت في تجاوز أعمالي مرة بعد أخرى، إذ وضعت أمامي مسألة غاية في البساطة والأهمية، وهي ضرورة تقديم المختلف في كل مرة



*** بـدأت بكتابـة القصـة القصـيرة منذ السـبعينيات، ثـم اتجهـت إلى الروايـة مـع بدايـة الثمانينيـات، وظلـت القصـة القصـيرة حـاضرة بقـوة، غـير أنـك عُرفـت في المشـهد النقـدي العـربي كروائيـة أكـثر مـن قاصـة؛ فهـل الروايـة تصـل أكـثر مـن القصـة، أم أن رواياتـك نجحـت في اخـتراق القـارئ والنقـاد؟**

قـد يصـح هـذا القـول فعـلا؛ فالروايـة هي الـتي رسـخت اسـمي عربيـا منـذ روايـتي «مـن يـرث الفـردوس» الـتي نـشرت للمـرة الأولى مسلسـلة في مجلـة «الدسـتور» العربيـة الـتي كانـت تصـدر في لنـدن، ثـم صـدرت عـن الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب، وقررتهـا وزارة التعليـم في عـام صدورهـا لدراسـتها في مرحلـة التوجيهـي بمـصر. ظهـرت رواياتي متواتـرة مـع مجاميـع قصصيـة، ويبـدو لي أن الروايـة لهـا سـحرها الخـاص لـدى القـارئ العـربي كوريـث لألـف ليلـة وليلـة، ولكـن في ظـني أن وهـج القصـة القصـيرة لـن يخبـو، رغـم انشـغال الجميـع وافتتانهـم بالروايـة، وإن بـدا أن الاهتمـام بهـا قـد تراجـع قليـلا. لاقـت قصـصي القصـيرة والطويلـة في العـراق نجاحـا مميـزا، ووصلـت إلى القـراء منـذ أول مجموعـة قصصيـة، وهـي: «ممـر إلى أحـزان الرجـال»، حـتى مجموعـة «عالـم النسـاء الوحيـدات»، و«إذا كنـت تحـب»، و«مالـم يقلـه الـرواة»، و«موسـيقى صوفيـة»، و«برتقـال سـمية». وأعـترف هنـا دون تـردد أن الروايـة أزاحـت القصـة القصـيرة عـن مكانتهـا المتقدمـة في المشـهد الثقـافي العـراقي والعـربي، وتصـدرت المشـهد لعوامـل كثـيرة اسـتجدت، وقـد نالـت رواياتي، وبخاصـة روايـتي الأخـيرة «سـيدات زحـل» حظـوة كبـيرة لـدى القـراء والنقـاد عراقيـين وعربـاً، وكُتـب عنهـا مـا لا يقـل عـن ثلاثـين دراسـة ومقالـة نقديـة، وطبعـت منهـا ثـلاث طبعـات حـتى اليـوم. وبتصـدر الروايـة العربيـة للمشـهد الثقـافي، لـم تعـد للقصـة القصـيرة تلـك المكانـة المميـزة يـوم كان يوسـف إدريـس، وزكريـا تامـر، ومحمـد خضـير، يتسـيدان سـاحة القصـة العربيـة القصـيرة، ويختلـف الأمـر عـلى المسـتوى العالمـي؛ فالكاتبـة الكبـيرة مارغريـت اتـوود لاتـزال تكتـب القصـة القصـيرة، ومعهـا الكاتبـة الأمريكيـة جويـس كارول اوتـس المخلصـة للقصـة القصـيرة، ويـأتي تكريـم لجنـة نوبـل لكاتبـة القصـة القصـيرة الكنديـة أليـس مونـرو قبـل عامـين بجائزتهـا، لتؤكـد مـا ذهبـت إليـه مـن اهتمـام عالمـي بالقصـة القصـيرة، ولعلهـا المـرة الأولى الـتي تتـوج فيهـا القصـة القصـيرة عـلى عـرش نوبـل، عـلى النقيـض ممـا يحصـل عندنـا.

*** منذ أول رواية «عالم النساء الوحيدات» إلى آخر رواية، كيف تقرئين مسارك الروائي؟**

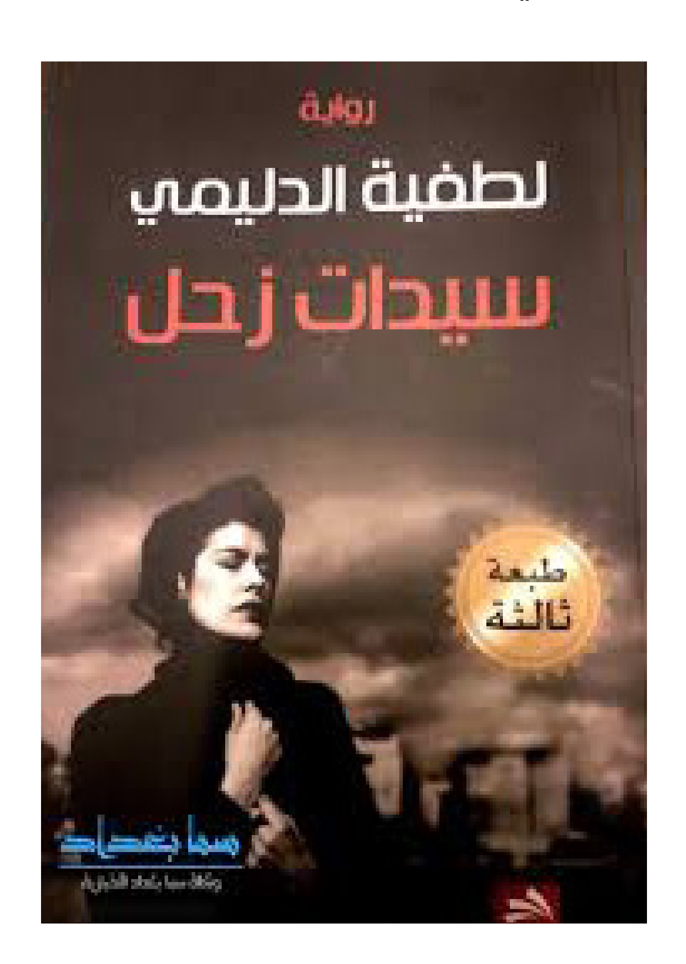
لشغفي الكبير بالرواية ومسعاي المتواصل للتجريب، سواء في القصة القصيرة أو الرواية، أجدني نجحت في تجاوز أعمالي مرة بعد أخرى، إذ وضعت أمامي مسألة غاية في البساطة والأهمية، وهي ضرورة تقديم المختلف في كل مرة، فليس ثمة مسوغ لتكرار أنفسنا في أعمال تراكمية تمتد أفقيا. وفي ظني، إن رواياتي تقدمت في خط تصاعدي عبر مسيرتي الإبداعية، بدءا برواية «عالم النساء الوحيدات» ثم رواية «من يرث الفردوس» التي تبعتها رواية «بذور النار»، ثم رواية «خسوف برهان الكتبي»، و«حديقة حياة»، وأخيرا «سيدات زحل» التي أعدها الأهم بين أعمالي الروائية، والتي تضعني اليوم أمام تحدٍ جديد لتجاوزها وكتابة رواية تتفوق عليها، أو توازيها.

*** هل أنقذتك كتابة الرواية من آلام الحرب؟**

تعلمين أن الرواية الحديثة تعد في بعض توصيفاتها محايثة للحياة أو مفسرة لها، وتمتلك في الوقت ذاته، وعيها الخاص بالزمان والمكان، وعلى هذا سوف يصبح بإمكانها التعاطف مع الحدث، مما يجعل كتابتها مصحوبة بحالة من الأسى والأحزان الخفية. عندما كتبت روايتي الأخيرة «سيدات زحل» كنت أهدم المشهد التقليدي الروائي المتعارف عليه، وأعيد بناءه برؤية شخصية جدا معززة بالقوة التي أواجه بها الخراب والحرب. بدا بناء روايتي للبعض أمراً مربكا؛ فهم لم يألفوا هذا التشظي المتواتر والمقصود، وهو أسلوب فرضته طبيعة الموضوع وتنوع تفاصيله: كنت أهدم صورة الحرب وأنشرها كشظايا حارقة وجارحة في الرواية، مثلما تشظّت لدي الحبكة الواحدة متحولة إلى حبكات بعدد شخوص الرواية، واشتغلت في مجاورة يومية للخراب، فكان علي أن أرصد الألم وأتعرف إلى مصادره المختلفة وأعاين أسبابه ونتائجه وانعكاساته عليّ، جعلتُ من مواجهة الألم ومعرفته وسيلة ناجعة لتجاوزه؛ فالمعرفة بحد ذاتها تمنحنا قدرات مفاجئة للتعامل مع الألم وتشد من أزرنا وتدفعنا للبحث عن خلاصنا في عمل نحبه وننجزه؛ فتخفف من شحنات الوجع وتحولها إلى مشاهد ومقاطع تغادر واقعيتها إلى حالة رؤيوية خالصة.

أسهمت «سيدات زحل» في علاج ألم التغرب والهجرة والوحشة، وهي بتفردها بين أعمالي لا تشبه أيّاً من رواياتي السابقة في البناء الفني وأسلوب السرد ولغته وتشكله على طبقات زمنية ومكانية متراكبة وتواتر الأصوات المتعددة فيها، وإن بدا لغير المدقق والقارئ المتعجل أنه صوت الحكاءة الساردة (حياة البابلي) حاملة إرث العراق العاطفي والعرفاني والتاريخي، وهي التي قامت برواية أحداث بعض كراسات الشخصيات، وأتاحت لشخصيات أخرى أن تروي كراساتها بلغة سرد مغايرة؛ فكتاب الشيخ قيدار يرويه الشيخ بلغة عرفانية ورؤى مثالية رومانسية فيها أنفاس من مواقف الزهاد والمتصوفة، تكشف لنا موقفه من العالم والحياة والحب والعدالة والجسد والمرأة، وفي كراسة مدينة الأجراس يعتمد معظم السرد على الأسلوب الحكائي شبيه القصص الشعبي فتروي البطلة للصبي إبراهيم، الناجي من الخطف، حكايات عديدة متداخلة الأحداث، وتقول له: «نحن نروي الحكايات لنستطيع

> عندما كتبت روايتي الأخيرة "سيدات زحل" كنت أهدم المشهد التقليدي الروائي المتعارف عليه، وأعيد بناءه برؤية شخصية جدا معززة بالقوة التي أواجه بها الخراب والحرب



تحمل الزمان». تخبره عن المدينة والناس والإمبراطور الذي حرم طرح الأسئلة ووضع إجابات لكل ما يطرأ على بال البشر، وأطلق مقولة صارت دستورا للعلاقة بينه وبين الشعب (السكوت مقدس والنطق مدنس والرؤية إثم والشم محظور والفكر كفر والسؤال زوال والحلم خيانة)، بينما روت الساردة وقائع كتاب الحب التي عاشها العاشقان في زمنين متباعدين، وبأسماء وشخصيات مختلفة تفصل بينهما نحو مئة وثلاثين عاما، روت وقائع العشق بلغة حسية ترتقي بالحب والإيروتيكا إلى مصاف الانشغال الجمالي الصرف للرد على القبح والخراب والألم والموت الذي كان يحاصر ذاكرتها ومخيلتها ووجودها على امتداد الزمان.

تتمثل خصوصية «سيدات زحل» في كونها اشتغلت كمصدٍ للألم على امتداد فصولها إلى جانب امتلاكها رؤية أنثوية خالصة للعالم بعد أن قُمع صوت الأنثى في الواقع ومتون الكتب طوال العصور، إذ لطالما كُتبت المرويات والقصص والروايات - حتى تلك التي كتبتها النساء - بصوت ذكوري يسقط رؤيته على الشخصيات والأحداث. تروي الساردة ببصيرة الأنثى وحدوسها وحسيتها وشغفها بالأمكنة والطبيعة قصص العشق والألم والأحلام، لتكشف عن أحوال المجتمع العراقي وأوضاع النساء منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا، لتقول لنا إن الخراب ليس سوى محصلة لتراكمات تاريخية بدأت لحظة تأسيس بغداد على جذر النار، ثم تواصلت بحرب الأمين والمأمون، وتمضي قدما لتكشف عن أوضاع المدينة الكارثية في اضطراب القرن التاسع عشر تحت حكم الوالي المملوكي داود باشا حين دمرها الفيضان الذي صاحبته موجتا طاعون كبداية لانهيار الدولة العثمانية وصولا إلى الاحتلال البريطاني الذي حضر عبر شخصية (المس غرترود بيل) صانعة الملوك، وتركز الرواية على إحدى أهم حقب التاريخ العراقي الحديث المتسمة بالعنف والقسوة والدموية، وهي امتداد لدموية الحقب السابقة؛ فكان أن صارت هذه الرواية بجميع تفاصيلها علاجا ناجعا لأوجاعي التاريخية والحاضرة، ومثلت لي البلسم الشافي، وأنا أواجه الفقدانات وتدمير الذاكرة العراقية وخراب القيم وتدهورها.

*** أنت متعددة المجالات: تكتبين الرواية والقصة القصيرة والمسرح والمقالة والدراسات الثقافية، وتكتبين في الصحافة وتترجمين، كما ساهمت - خاصة في بغداد - في تأسيس مؤسسات ثقافية وكنت عضو هيئات تحرير مجلات وصحف.**

كيف تتواجدين في كل هذه الحقول؟ وهل لها أثر على كتابتك الروائية أسلوبا ومعرفة؟

أسهم تنوع انشغالاتي الإبداعية إلى جانب التجارب الحياتية والقراءة في إغناء المعرفة وترسيخ التجربة وتحفيز الوعي وتكثيف الرؤية الإبداعية. لم أتواجد في هذه الحقول ضمن فترة زمنية واحدة، بل كنت أتفرغ لضرب من الكتابة كالقصة القصيرة وأنجزها ثم أغادرها إلى سواها، كنت مخلصة للقصة القصيرة، وأنا أكتبها مثلما كنت متفرغة لكتابة عدد من مسرحياتي في فترة لاحقة. أما الرواية، فلا يمكن الشرك بها إذ تتطلب توحدا وتفرغا وشحذا للمخيلة، وخوضا للتجربة المغايرة، لذا أجدني قد استفدت من تنوع اهتماماتي، وكرست تلك المعطيات لخدمة وإثراء عملي الروائي. خوض المواقف المختلفة والتجارب المتنوعة عزز مسعاي الإبداعي، فلم أكن جليسة البيت أمارس التأمل والتخييل وحده، بل خضت ميادين التحدي والمواجهات على الأرض، مما كان له الأثر البيّن في بلورة تجربتي الروائية وترسيخها.

كتابة الرواية ضرب من تحدي النفس لاكتشاف القدرات الإبداعية، أما عن تنقلي بين عالمي القصة والرواية، فلا أرى ثمة اختلافا كبيرا بينهما، فكتابة الرواية والقصة طريقتان لتقديم ما نفكر ونحلم به حول العوالم والشخصيات والحكايات التي نبتدعها: قد نكتب ما نحب كتابته بصيغة مقالة أو دراسة، وقد يفرض موضوع ما شكله السردي، وفي أحيان كثيرة يؤدي اختيارك لمكان الحدث وموضوعه وشخصياته إلى فرض جنسه الكتابي، فيكون رواية أو قصة أو نصا مفتوحا أو مسرحية أو مقالة إبداعية، سأذكر لك مثالا عن تغير النظرة إلى الأشكال السردية وبناء الرواية في القرن الحادي والعشرين عبر ما قدمه الروائي (جي. إم.كوتزي) الكاتب الجنوب إفريقي الحائز على جائزة نوبل للآداب، فقد أصدر كوتزي بعد فوزه بنوبل للآداب روايتين مهمتين أثارتا كثيرا من الجدل في الأوساط الأدبية العالمية: رواية «إليزابيث كوستيلو» عن روائية أسترالية مسنة تطرح آراء فلسفية صادمة في الأدب والسياسة والحياة في محاضراتها، وقيل إن كوتزي طرح أفكاره على لسان بطلته كوستيلو، وتحفّظ النقاد التقليديون على وصفها بالرواية لكونها مزيجا من المقالات والدراسات والكتابة الروائية، حتى أن كوتزي وضع عددا من فصول الرواية في كتب نشرها كدراسات نظرية مثل فصل «الواقعية»، و«حياة الحيوانات»، و«الرواية في إفريقيا»، و«الفلاسفة والحيوانات»، ثم



أصدر روايته الأخرى «يوميات عام سيء» التي ابتكر فيها شكلا غير مسبوق متحديا البنية التقليدية للرواية في إصرار تام على حريته في الأداء السردي الذي يتجاوز التنميط والمحددات النقدية القارّة؛ ففي روايته «يوميات عام سيء» يشطر الصفحات الأولى إلى نصفين، بينما تتبعها صفحات قسمت إلى ثلاثة أقسام، يسرد علينا في كل منها موضوعا مختلفا؛ فالجزء العلوي تحتله مقالات الكاتب بعنوان (آراء تتضح قوة) عن كتابة الرواية والموسيقى والفنون، ويتضمن متن المقالات قصصا قصيرة أيضا، وتحتل القسم الثاني من الصفحة كتابة ذاتية عن مشاعر البطلة آنيا وأهوائها وتطلعاتها، وفي القسم الأسفل من الصفحة يكتب عن علاقة المؤلف ببطلته آنيا، المؤلف الذي يطلق أخيلته الجامحة عن معاشرة النساء، وهو الشيخ الكبير، ويتطلب هذا التقسيم بالتأكيد طرقا مختلفة للقراءة والتلقي واستيعابا مركبا للرواية المركبة، لقد انتهى عصر المحددات الكلاسيكية، ومن هنا تداخلت لدي الطرز الأدبية مع بعضها قصة ومقالة وشعرا وسردا روائيا، وأجدها أسهمت في تطوير أدائي الإبداعي واختلاف نصوصي.

*** كتبت عن المرأة والأنثى ولغة المرأة ومواضيع ذات علاقة بالمرأة، هل تعتقدين أن المجتمعات العربية ما تزال في حاجة إلى التفكير والكتابة في هذه المواضيع؟ وكيف تنظرين إلى المرأة العربية والعراقية اليوم؟**

شاركت في أربع ملتقيات متخصصة بموضوعة كتابة المرأة والخطاب النسوي، وقدمت رؤيتي الشخصية عن هذا الموضوع. حضرت ملتقى كتابة المرأة في آسفي في المغرب، وملتقيين في سوسة - تونس، وملتقى في الأردن، ووجدت أن مصطلح كتابة المرأة أمر ملتبس تماما في ميدان النقد العربي الذكوري بخاصة، وفي كلا الملتقيات الأربعة لم يتوصل المشاركون إلى توافق أو اتفاق حول الخطاب النسوي؛ فقد لبثت مصطلحات النقد التي تدور حول كتابة المرأة غائمة وغير محددة وقابلة للنقض، إذ تختلف الطروحات النقدية النسوية الفرنسية عن معطيات النقدية الأمريكية والإنجليزية، وينسحب عدم استقرار المصطلح على المعنيين بالنقد النسوي العربي والعالم ثالثي، ويركن الكثيرون من المعنيين بالنقد النسوي إلى الطروحات النقدية الواضحة إلى حد ما بخاصة لدى الناقدتين الإنجليزيتين: بام موريس، وإيلين شوالتر التي أطلقت مصطلح الأدب النسوي، وإلى حد ما إلى ما طرحته قبلهما فيرجينيا وولف. لابد من التعرف على التيارات النسوية للوقوف على تطورات النقدية النسوية من خلالها، فهناك التيار النسوي الليبرالي الذي ينادي بالمساواة التامة بين النساء والرجال على الصعد كلها، وفي مقدمتها الأدب وضروب الإبداع والقوانين، ثم التيار الراديكالي النسوي المتعصب في أمريكا، والذي دعا للانفصال عن الرجال لإيجاد مجتمع نسوي خالص (أمازوني)، وأدى انغلاقه وتطرفه إلى فشل فادح وانحسرت أنشطته منذ التسعينيات، والتيار الماركسي الذي يعتمد البعد الاقتصادي في التقسيم الجندري، ثم التيار النسوي ما بعد البنيوي الذي يقول بأن التميز بين الجنسين كامن في اللغة: فاللغة هي التي تملي قوانينها في التذكير والتأنيث، وخير من يمثل هذا التيار، الفرنسية هيلين سكسوس، وجوليا كريستيفا، وهناك تيار النسوية السوداء التي تعنى بالنساء الملونات ونسوية العالم الثالث، وتميل إلى تبني المنظور البنيوي الذي يدعو إلى الاعتراف بكل ما هو مختلف دون إقصائه، وتركز على الاختلافات الثقافية في المجتمعات.

شخصيا، لا أجدني معنية كثيرا بهذه التصنيفات النقدية، لكني أعرف وبعد عقود من ممارسة الكتابة السردية في القصة والرواية، أن هناك شحنة حيوية متدفقة في لغتي انبثقت من منطقة شغفي باللغة العربية وجمالياتها ووعيي بالعالم ونظرتي إليه من وجهة نظر (ذات محمولات معرفية وفكرية)، وليست محض نسائية بالضرورة، وأزعم أنني أقترب من تيار النسوية الليبرالية الداعية إلى المساواة التامة، وقد واجهت المشهد الثقافي وذكوريته بخبرة نضال اجتماعي وسياسي مبكر، ثم بقوة الأداء الإبداعي والمثابرة والبحث المعرفي، ونجحت في إرساء أسلوب سردي يخصني، ولغة تقف على التخوم الغامضة التي تفصل بين الخطاب الذكوري الصارم، المعني بالبلاغة التقليدية، وبين اللغة الرؤيوية والعرفانية التي تجسد نظرتي إلى الذات الإنسانية والذات الأنثوية الحرة ومستوياتها وموقعها من العالم، فتغدو لغتي أو خطابي الأدبي بعد هذا، حقلا فعالا ومتفاعلا من الانشغالات الفكرية والمعرفية والصراعات والمواجهات مع الخطاب العام، ذلك الذي يستند إلى موروث أبوي ذكوري يتحكم بمفاصل المجتمع، ويحجرها في أقفاص أيديولوجية وعقائدية تتشابك مع التقاليد الدينية والقبلية، ولم تعترضني معيقات ثقافية أو اجتماعية عبر مسيرتي الأدبية الطويلة، لأني اخترت التحدي الجريء والمواجهة، على الضد من حظوظ كاتبات أخريات كابدن مصاعب جمة، وواجهن حواجز

اجتماعيـة حالــت دون ازدهارهــن الإبداعــي.

أما عـن أوضاع المـرأة العراقيـة الآن، فهـي تمـر مـن أسـوأ حالاتهـا تحـت هيمنـة الأحـزاب الدينيـة المتشـددة الـتي تتعامل مع المـرأة، باعتبارهـا الجنـس الأدنى، وتفرض رؤيتهـا المتزمتـة عـلى النسـاء، بـدءا بالبنـات الصغـيرات مـن سـن ٧ سـنوات، حيـث يجـري تحجيبهـن في احتفـال ديـني لبلوغهـن سـن التكليـف الشرعـي كمـا يقولـون، ومحاولـة الأحـزاب الدينيـة فـرض قوانـين أحـوال طائفيـة عـلى النسـاء تبيـح تزويـج الصغـيرات مـن سـن ٩ سـنوات. إلى جانـب هـذه الأوضـاع المشـينة في الداخـل تعرضـت مئـات مـن النسـاء والفتيـات الأيزيديـات والمسـيحيات والمسـلمات إلى السـبي والاغتصـاب في المناطـق الـتي احتلتهـا داعـش، خـسرت المـرأة العراقيـة مكاسـب نضـال الأمهـات والجـدات في القـرن العشريـن، وحصولهـن عـلى بعـض الحقـوق في قانـون الأحـوال الشـخصية المعمـول بـه في العـراق منـذ ثـورة ١٤ تمـوز ١٩٥٨.

بشـكل عـام، تـردى وضـع المـرأة العربيـة، وتراجعـت مكانتهـا الـتي كانـت عليهـا في العقـود السـابقة بالتزامـن مـع تسـلط التشـدد الديـني والطائفـي، وتفـشي الفضائيـات الدينيـة، بعـد مـا يسـمى بالربيـع العـربي في بلـدان عديـدة، حيـث عوملـت المـرأة كعبـدة جنسـية مباحـة لجهـاد النـكاح، وتعرضـت الكثـيرات للخطـف والسـبي والبيـع كجـواري، خاصـة في البلـدات المسـيحية والأيزيديـة في سـوريا والعـراق.. خـسرت النسـاء العربيـات مواقعهـن المتقدمـة بعـد تسـلط الأحـزاب الإسـلامية المتطرفـة عـلى الحكـم، وهـن بحاجـة اليـوم إلى ثـورة عارمـة بوجـه هـذا الارتـداد المشـين..

*** بـدأت الروايـة العراقيـة تشـد الانتبـاه مؤخـرا، خاصـة مـع حصولهـا عـلى جوائـز أدبيـة كبـيرة مثـل البوكـر وكتـارا، ووصـول أعمـال كثـيرة إلى اللائحتـين الطويلـة والقصيرة في جائـزة البوكـر، إضافـة إلى جوائـز أخـرى. هـل هـذا مـؤشر عـلى أن الروايـة العراقيـة نجحـت في تمثـل الواقـع العـراقي، وإيصالـه إلى القـارئ العـربي؟ وهـل هـو حضـور مُـبرر كتابـة وأسـلوبا، أم تدعمـه نوعيـة المواضيـع الـتي تتطـرق إليهـا الروايـة العراقيـة، مثـل المنفـى، والشـتات، وجـرح بغـداد؟**

في ظـني أن المضامـين الروائيـة والتقسـيمات الجغرافيـة - وليـس المسـتوى الفـني - هـي الـتي تتحكـم غالبـا في تركيـز الأضـواء وجـذب الاهتمـام للروايـة العربيـة في بلـدان متعـددة، ومنهـا الروايـة العراقيـة. وقبـل الجوائـز الـتي تضخـم الاهتمـام بروايـة مـا، كان للروايـة العراقيـة حضورهـا الكبـير واشـتغالاتها البـارزة منـذ عقـود، فثمـة فرسـان كبـار عرفـوا عـلى المسـتوى العـربي والعـراقي: غائب طعمـة فرمـان، وفـؤاد التكـرلي، ومهـدي عيسى الصقـر من الجيـل المؤسـس، وعبـد الخالـق الـركابي، وعبـد الرحمـن الربيعـي، وأحمـد خلـف، وغيرهـم مـن الجيـل اللاحـق، وقـد كرسـت تلـك الأسـماء مفهـوم الروايـة الحديثـة في العـراق، ومـن غـير المنصـف تجـاوز هـذه الحقيقـة والقـول إن الجوائـز هـي الـتي مـيزت حضـور الروايـة العراقيـة في المشـهد الـروائي العـربي، صحيـح أن زمننـا هـذا هـو زمـن الإعـلام المؤثـر، حيـث أسـهمت الجوائـز في تسـليط مزيـد مـن الأضـواء عـلى بعـض الأعمـال الروائيـة الـتي اسـتحقت الفـوز، لكـن أعمـالا روائيـة عراقيـة مهمـة وجديـرة بالإعجـاب أثبتـت جدارتهـا ونجاحهـا وانتشـارها بعيـدا عـن أضـواء الجوائـز العربيـة خاصـة أعمـال الجيـل الثالـث مـن الروائيـين العراقيـين المثابريـن.

*** كيــف تحــضر بغــداد اليــوم عنــدك؟ وهــل تحــضرك فكــرة العــودة؟**

أنـا المتشـبثة الدائمـة بمـكاني وبيئـتي الأولى، إذ لـم أكتـب إلا عـن المـكان العـراقي في معظـم أعمـالي، البيئـة الـتي جبلـت خلايـا وجـودي الحيـوي مـن عناصرهـا لا يمكـن أن أغادرهـا بسـهولة، فهنـاك روابـط فيزيائيـة لا مرئيـة تشـدنا إلى أرضنـا الـتي تشربنـا روائحهـا، وأدمنّـا مذاقـات ثمارهـا منـذ لحظاتنـا الأولى في هـذه الحيـاة، لا أعـني بهـذا التوصيـف المفهـوم العاطفـي للوطـن، فوطـن الكاتبـة والكاتـب فضـاء إبداعـه وأحلامـه الـتي يصعـب تدمـيرها عندمـا يخذلـه الوطـن. إن التنقـل بـين المـدن عـزز حضـور بغـداد في ذاكـرتي، وهـو تنقـل حـدث اضطـرارا لا اختيـارا: لقـد منحـني التنقـل والترحـال أفقـا أوسـع وحريـة أكـبر في الكتابـة ومواجهـة التحديـات الحياتيـة الصعبـة، وغـيّر نظـرتي لنفـسي والعالـم عـلى نحـو إيجـابي ضاعـف قـوتي الروحيـة وصلابـتي، وعـزز معـارفي بخلاصـة التجـارب، ودربـني عـلى تحمـل الفقدانـات؛ فعندمـا نتنقـل بـين الأماكـن نكتشـف في ذواتنـا إصرارا عـلى الحيـاة، ونتعـرف إلى آليـات دفـاع مفاجئـة في دواخلنـا، وقـد نتحـرر مـن سـطوة المـكان الأول علينـا لبرهـة زمـن نـراوغ فيهـا الغربـة وندحضهـا باختـلاق وطـن افـتراضي في الكتابـة يهـدئ لوعتنـا. لقـد احتـل المـكان حـيزا كبـيرا في رواياتي وقصـصي، حـتى لكأنـه يمثـل شـخصية حيـة مضافـة إلى شـخوص العمـل الأدبي ولا يخلـو عمـل لي مـن تجليـات جماليـات الأمكنـة وسـطوتها وانعـكاس مؤثراتهـا عـلى الشـخوص ومسـار الأحـداث.



كتابة الرواية والقصة
طريقتان لتقديم ما
نفكر ونحلم به حول
العوالم والشخصيات
والحكايات التي نبتدعها

لا أظنني أفكر بالعودة إلى بغداد راهنا لأسباب كثيرة، منها صعوبة أن تعيش سيدة في عمري هذا، وحيدة وسط الصراعات الطائفية والاستقطابات السياسية والتفكك المجتمعي، ومخاطر التشدد ونقص الخدمات وعدم وجود أحد من عائلتي وأبنائي في بغداد.

*** هل تستطيع بغداد بحالتها التاريخية اليوم أن تكون موضوعا لإحدى رواياتك؟**

رواية «سيدات زحل» هي أنشودة حب لبغداد ومرثية لزمنها الراهن، وبغداد هي البطلة الرئيسة في الرواية، إذ تهيمن ذاكرتها المكانية وتاريخها منذ التأسيس وأماكنها الراهنة ومغانيها وخرابها الحالي على امتداد الرواية، فكأن البطلة الرئيسة في العمل تتقمص هيأة بغداد، وتتحدث بصوتها وتقول أوجاعها وأحلامها وقصص عشاقها، وستكون بغداد ميدان رواياتي الجديدة التي أعمل عليها الآن.

*** يبدو أن بغداد لم تغادرك، فهل لمكان الإقامة - عمان - أثر في تفكيرك ورواياتك؟**

لم تغادرني بغداد، لأنها تسكنني أينما حللت وترحلت، ليس كاستعارة عما يسمى وطنا، بل كمعطى جمالي وفكري نشأت وتربيت في أبهائه وممراته، وعلى إيقاع تناقضاته وتجلياته، ولعمان أثر كبير في منحي الأمان، وبعض الاستقرار النفسي الذي ساعدني كثيرا في مواصلة الكتابة والترجمة والنشر، بعد أن تعرضت في فرنسا لحوادث موجعة، تركت ندوبا على روحي فخففت عمان الأليفة من أوجاع تشردي القسري وويلات سنوات اللجوء في أوروبا. أنا ممتنة لهذه المدينة السمحة التي احتضنتني ومنحتني هذا القدر من طاقة العمل والنشاط والقدرة على المضي قدما، فقد أعانني العيش في عمان على أن أنظر لبغداد نظرة شاملة من مرتفع كنظرة الطائر، وأتلمس أسرارها التي ما كنت لأعبأ بها وأنا فيها: أن ترى المكان عن بعد، فكأنك تلم بكل تفاصيله وروائحه وسماته المعمارية، وطبيعة مجتمعه والتحولات الحاصلة في بنيته الاجتماعية والفكرية، وعلى هذا أمست بغداد في مستوياتها الروحية وإشعاعاتها العرفانية أقرب إلي من قبل، وأشد تأثيرا في كتابتي، فكأن للغربة، رغم مرارتها فضل إعادة اكتشاف علاقتنا بالمدينة التي صنعت حياتنا وتركت وشومها على أرواحنا، وعبأت ذاكرتنا بخلاصات ثقافتها التي تبلورت على مر العصور والأزمنة.

*** ما تصورك للهوية في ضوء تآكل الجغرافية العربية، وانتقال مفهوم الانتماء من الوطن إلى العشيرة والطائفة؟**

ظهرت لدينا بعد الاحتلال سرديات متعددة للهوية، وتشظت الكتلة الاجتماعية كما تتشظى ألواح الزجاج التي تسبب جراحا دامية، وتترك ندوبا عميقة في الروح والوجدان، وغاب بفعل الاستقطاب الطائفي مفهوم المواطنة؛ فالأحزاب الدينية الحاكمة لا تؤمن بالمواطنة، بل تخطط للدولة الدينية الممتدة على بلدان عديدة، ومن هنا جرى تفكيك فكرة الانتماء الوطني وتجييرها للانتماءات الثانوية الفرعية كالقومية والطائفة والعشيرة... إنها تمظهرات التفكيك ما بعد الحداثي في مجتمعات لم تدخل بعد عصر الحداثة، وتبع ذلك ظهور هويات فرعية تتصارع فيما بينها لإثبات وجودها، والقول بأنها الأحقُّ بالوطن، وهكذا تحول العراق إلى ساحات صراع يومية على الهويات الثانوية، وانطمست على إثر ذلك الهوية العراقية التي تظللها فكرة المواطنة والانتماء للوطن، وصرنا نسمع نداءات فظة تطالب بتقسيم البلد، إما على أساس قومي، أو طائفي، ولاتزال الرحى تدور وتطحن والدماء تنزف من أجل وهم الهوية.. تناسى الجميع هوية الإنسان الإنسانية، وتقوقعت الكتل البشرية داخل شرانق الطائفة والعشيرة، وتشظى الوطن، وما عاد بوسع أحد إعادة لحمته بعد نهوض العديد من التجاذبات حول الهويات الثانوية.

*** يعيش العالم العربي لحظة تاريخية فارقة في وجوده، كروائية كيف تقرئين هذا الوضع؟ وهل ما يزال للحب والأمل والطفولة والابتسامة مكان في هذا الزمن؟**

من موقعي كإنسانة وكاتبة، لاأزال أعول على الوعي الإنساني، وأنتظر لحظة صحو تبدو بعيدة الحدوث للشعوب العربية التي نخرتها الصراعات الدينية والطائفية والإرهاب الدموي، وسأبقى أنتظر نهوض الوعي لدى النخب المثقفة الشجاعة على ندرتها، والتي بوسعها التأثير ببطء والعمل بدأب على تحريك الكتلة الاجتماعية وإيقاظها وإعادة الاعتبار لمفهوم المواطنة والسعي لإعادة هيبة التعليم وتطوير التعليم الجامعي في فضاء الحرية الذي صادرته الأحزاب الدينية والأنظمة القائمة على الاقتصاد الريعي لصالح طروحاتها النكوصية وترويجها للخرافة واستقطابها للحشود عن طريق الترهيب والترغيب

وتحويلها الجموع إلى قطعان راضخة. ما زلت أؤمن بسحر الحب وقيمة الأمل وتحدي الخلل بقوة الروح والزهد في المغانم الرخيصة التي تروج لها الأنظمة العربية في وسائل إعلامها عبر المسابقات المغوية التي توجه أنظار الجيل الجديد نحو صيغة الحياة التنافسية على حساب القيم الأساسية والتعليم، لقد تضافرت الفضائيات العربية مع الأنظمة في تخريب وعي أجيال كاملة عبر المسلسلات المخدرة وفضائيات الدعاة والفتاوى، وتهاوى صرح التعليم والثقافة التي عملت عليها النخب التنويرية طوال القرن العشرين، وانهارت المجتمعات بين شدق الخرافة والإرهاب، وبين الترهيب والترغيب المادي، رغم كل هذا يبقى الأمل شاخصا كومضة نور تتوهج بين رماد الإحباط العربي الشامل، حيث زجت المجتمعات العربية تقنيا في ساحة منتجات ما بعد الحداثة، في حين لبثت العقول والوعي الجمعي أسير الزمن الجاهلي وعصر الخرافة وتجريف الثقافة وتطبيق الشرائع التي أنتجها الإسلام قبل ألف وأربعمائة عام.


IDROTTS BOKEN 1970
IDROTTS BOKEN 1970

١- كرام (زهور): الرواية العربية وزمن التكون من منظور سياقي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٤
٢- مجموعة من المؤلفين: نجيب محفوظ والنقد المغربي، مطبعة الأمنية، الرباط، ٢٠١٣
٣- جيران (عبد الرحيم)/ سراب النظرية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٣
٤- جيران (عبد الرحيم): علبة السرد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٣
٥- إبراهيم (عبد الله): السرد، والاعتراف والهوية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١١
٦- بنحدو (رشيد): جمالية البين- بين في الرواية العربية، منشورات مؤسسة نادي الكتاب بالمغرب، فاس، ٢٠١١
٧- يقطين (سعيد): قضايا الرواية العربية الجديدة، دار رؤية، القاهرة، ٢٠١٠
٨- محفوظ (عبد اللطيف): آليات إنتاج النص الروائي (نحو تصور سيميائي)، دار العلوم ناشرون، بيروت، الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٨
٩- بنكراد (سعيد): السرد الروائي وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٨
١٠- إبراهيم (عبد الله): الرواية العربية: الأبنية السردية والدلالية، كتاب الرياض، ٢٠٠٧
١١- بوعزة (محمد): هيرمينوطيقا المحكي النسق والكاوس في الرواية العربية، الانتشار العربي، ٢٠٠٧
١٢- جيران (عبد الرحيم): في النظرية السردية، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٦
١٣- برادة (محمد): فضاءات روائية، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، ٢٠٠٣
١٤- مجموعة من المؤلفين: الرواية الإماراتية، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠٠٣
١٥- شارتييه (بيير): مدخل إلى نظرية الرواية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠١
١٦- كونديرا (ميلان): فن الرواية، ترجمة: بدر الدين عرودكي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١
١٧- اليابوري (أحمد): في الرواية العربية التكون والاشتغال، شركة النشر والتوزيع- المدارس- الدار البيضاء، ٢٠٠٠
١٨- عقار(عبد الحميد): الرواية المغاربية تحولات اللغة والخطاب، مدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ٢٠٠٠
١٩- عصفور (جابر): زمن الرواية، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ١٩٩٩
٢٠- دراج (فيصل): نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٩
٢١- برادة (محمد): أسئلة الرواية أسئلة النقد، شركة الرابطة، الدار البيضاء، ١٩٩٦
٢٢- إبراهيم (عبد الله): السردية العربية، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢
٢٣- بحراوي (حسن): بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠
٢٤: عزام (محمد): وعي العالم الروائي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ١٩٩٠
٢٥- يقطين (سعيد): تحيل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٩
٢٦- يقطين (سعيد)، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٩
٢٧- لوكاش (جورج): نظرية الرواية، ترجمة: الحسين سحبان، منشورات التل، الرباط، ١٩٨٨
٢٨- كاظم (نجم عبد الله): الرواية في العراق١٩٦٥- ١٩٨٠ وتأثير الرواية الأمريكية فيها، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧
٢٩- الأعرج (واسيني): اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، م، و، ك الجزائر، ١٩٨٦
٣٠- قاسم (سيزا): بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥
٣١- باختين (ميخائيل): الملحمة والرواية، ترجمة: جمال شحيد، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢
٣٢- علوش (سعيد): الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي ١٩٦٠-١٩٧٥، دار الكلمة، ١٩٨١
٣٣- الخطيب (محمد كامل): الرواية والواقع، دار الحداثة، ١٩٨١
٣٤- مجموعة من المؤلفين: الرواية العربية بين الواقع والإيديولوجيا، ١٩٨٦ دار الحوار، ١٩٨٦
٣٥- القلماوي (سهير): مختصر في نظرية الرواية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٣
٣٦- Chartier (Pierre): Introduction aux grandes théories du roman, ed Nathan, Paris, ٢٠٠٠
٣٧- Bakhtine (Mikhail): Esthétique et théorie du roman, Gallimard, ١٩٧٨
٣٨- Kristeva (Julia): Le texte du roman, ed, Mouton, paris, ١٩٧٠
٣٩- Grillet (Alain Robbe): Pour un nouveau roman, ed Minuit, Paris, ١٩٦٣
٤٠- Goldman (Lucien): Pour une sociologie du Roman, Gallimard, ١٩٦٤



في مسألة القراءة: ضد الرؤية الأخلاقية



بقلم: عادل حدجامي
كاتب وباحث مغربي متخصص في الفلسفة

يتجدد الحديث في العالم العربي كل مرة عن مشكلة القراءة والنشر، وعن نسب القراءة التي تكشف الإحصائيات أنها مخجلة، بل ومهينة، وفي هذا السياق تظهر دعوات، هنا وهناك، للاهتمام بهذه القضية، وبيان تبعاتها على مستقبل الأجيال القادمة. ثابت هذه الدعوات هو التذكير دائما بمأساوية الوضع، مع نقد مباشر للجهات الرسمية التي تعنى بهذا الأمر من ساسة وحكام ومشرفين على البرامج التعليمية، بل ونجد عددا من أصحاب هذه الدعوات يتبنى مبادرات لتشجيع القراءة، في شكل أنشطة متعددة. والحقيقة أن مثل هذه الدعوات والأنشطة هي في حد ذاتها محمودة، على الأقل لنيتها الحسنة، لهذا فلا يمكن للمرء إلا أن يثمنها مبدئيا، لكننا، إن تجاوزنا هذا المبدأ الحسن، قد نجد هذه المبادرات ساذجة وغير ذات جدوى، بل قد نزيد ونقول إنها جزء من المشكلة من حيث لا تدري، والدليل على ذلك أنها لم تنتج شيئا، فنحن نجد «الجميع» بلا استثناء يساندها ويدعمها، لكن رغم هذه المساندة الجماعية، فلا شيء يتغير في سلوك هذا الجميع.

ما الذي يجعلنا نصدر حكما قد يبدو ظالما كهذا ضد مبادرات نبيلة في مقاصدها؟ طبعا ليس الرغبة في مجرد المعاندة، بل هو الوعي بأن هذه المبادرات الطيبة لا تعي واقع المشكل ولا تفهم حقيقة الوضع، فتكتفي بالتناول الأخلاقي للمسألة، وبالاعتماد على خطاب «الذنب» الذي قوامه اتهام المسؤولين والأجيال الجديدة بكونها لا تقرأ ولا تهتم بالثقافة، فيتحول الأمر إلى نوع من الوعظ الأخلاقي الذي يوافق الجميع نظريا، ولكن لا يغير أي شيء عمليا.

لفهم مشكلة القراءة والنشر في العالم العربي، أعتقد أننا نحتاج لرؤية بعيدة عن ثقافة الوعظ والاتهام للأجيال الجديدة، فالمشكل أكبر من الأشخاص ومن إراداتهم، إننا نحتاج رؤية تعي أن المشكل يتعلق بعناصر موضوعية ومكونات بنيوية عميقة يتطلب تجاوزها أولا فهم حجمها ومفعولها، وهو ما سيحررنا من «تشخيص» المسألة واعتبارها قضية «كسل» أو لا مبالاة عابرة فقط.

لنطرح المسألة في حجمها الحقيقي. مبدئيا نحن مجتمعات بدوية في العمق، ظلت المشافهة وثقافة الحفظ هي المهيمن فيها إلى حدود

الاستعمار، صحيح أننا ثقافة أنتجت نصوصا، لكنها نصوص ظلت في إطار «العلم» الذي ظل مقصورا على طبقة ضيقة ومغلقة هي طبقة «الفقهاء» و«الطلبة» وأهل الحل والعقد، فهؤلاء كانوا هم المكلفون «اجتماعيا» بالاشتغال بالكتب والنصوص وحفظها «في الصدور». أما عامة الناس، أي الشعوب، فلم تكن في يوم تعتبر «القراءة» جزءا من معيشها وممارستها اليومية، وهذا الاختصاص الذي كان لطبقة العلماء بـ «النصوص»، التي لا يعرف العامة لفتح مغاليقها سبيلا، هو ما كان يعطي لهؤلاء الحظوة والقدسية التي تمتعوا بها طوال التاريخ، وأما باقي الناس فلم تكن أميتهم وظروف معاشهم القاسية تسمح لهم بذلك، بل لم يكن ذلك مطلوبا منهم أصلا، فالقراءة اختصاص وليست أمرا مشاعا «للعامة» والجمهور «الأضداد السفلة الرعاع» كما كان يقال. هذا الأمر جعل من الكتاب، من حيث هو شيء ومادة، لا يحضر في اليومي، بل يظل في صورة «مخطوطات» غميسة، حبيسة الزوايا والمدارس العتيقة، لهذا فلم تكن هناك حاجة للطباعة أو التوزيع، فالقراءة والكتابة «مهنة» و«حرفة» لها أهلها ومتخصصوها الذين يطلعون عليها ويخبرون عموم الناس، عن طريق الخطب والمواعظ والفتاوى و«المشافهة»، بما ينبغي أن يعرفوه منها. هكذا كان الأمر طيلة التاريخ، وكل حركات الترجمة والتأليف التي عرفها العالم الإسلامي كانت من هذا الجنس، أي محصورة بين العارفين والفقهاء والعلماء، وأحيانا السلاطين والأمراء، متى ما استطاعوا، ذات صدفة، إيجاد سلطان يهتم بهذا الأمر. وقد ظل الأمر كذلك إلى حدود الاستعمار الذي سيحاول إرساء تقاليد جديدة، من مثل الجرائد والبيانات السياسية الشعبية وما إليها.

> القراءة اختصاص وليست أمرا مشاعا «للعامة» والجمهور «الأضداد السفلة الرعاع» كما كان يقال

الأمر يختلف كثيرا في الثقافة الغربية؛ فمنذ ظهور المطبعة (والتي كان ظهورها أصلا نتيجة حاجة اجتماعية) مع ما ساوقها من إصلاحات ونقاشات في الثقافة والعقيدة والسياسة، تحول الكتاب إلى جزء من المعيش اليومي لأعداد كبيرة من الناس، فظهور الجرائد والمنشورات اليومية السيارة les gazettes، هو تقليد ترسخ منذ النهضة الإيطالية والأوربية عموما في القرن السادس عشر، وما كانت تنشره الجرائد كان دائما له وقع وأثر بين الناس، فسلاح الثوار الفرنسيين في القرن الثامن عشر كان جريدة الثوري ألبير كامي، وظاهرة منع الكتب من التداول، والطباعة السرية للمنشورات الممنوعة، وظاهرة الأدب الشعبي ورواياته وتقليد «البيست سيلر» كانت حاضرة في أوربا، على الأقل منذ القرن السابع عشر، في حين أن ثقافتنا، كما ذكرنا آنفا، لم تعرف مثل هذه الظواهر سابقا، فلم نعرف روايات ذاع صيتها كـ «البؤساء»، ولا كتّابا شعبيين اشتهروا مثل غاستون لورو أو لوبلان، صاحب روايات أرسين لوبين، إذ إن هذه الظاهرة تبقى غربية بامتياز.

مسألة القراءة والكتابة وتداول النصوص ونشرها مسألة تاريخية عميقة إذن، تتعلق بنموذج حضاري استنبت القراءة «كممارسة» في حياته، على عكس نموذج آخر ظل فعل القراءة عنده «مهنة» تتعلق بالبعض دون الكل.

بعيد الاستقلال حصلت فعلا، وبالتزامن مع الأيديولوجيات النهضوية، دعوات لتعميم القراءة وتقوية الترجمة والرفع من نسبة المقروئية، وقد كانت كل هذه الدعوات تضع برنامج النهضة الأوربية نموذجا لها، فظهر عندنا فعلا روائيون وكتاب وصحافيون حاولوا خلق سوق ثقافية ومجال نقدي وأدب وفكر عربي يتناول الشجون العربية، وحتى إن كانت هذه الحركية والاعتمال قد خلقا لفترة (الستينيات، السبعينيات) رواجا معينا، فإن الأصل الشفهي ما فتئ أن عاد بعدهما ليبسط سلطانه من جديد، مع ظهور الطفرة النفطية والثورة التواصلية فيما بعد، فجرى تجريف هذا المكتسب الهش واجتثاثه، وهو بعد لم يتأصل في التربة النفسية والاجتماعية للناس. هكذا انتقلنا مباشرة إلى مجتمع الترفيه وثقافة الشاشة والصورة والمباشرة، مع تعميم الحوامل الجديدة، قبل أن تترسخ عندنا، لفترة كافية، ثقافة النص مع العلم أن ثقافة الشاشة والصورة تقتل النص والقراءة كممارسة، وهذا حاصل في الغرب نفسه اليوم الذي يعاني مشكل انحصار ممارسة القراءة وتداول الكتاب، فكيف بثقافة مرت من المشافهة إلى الشاشة مباشرة؟

> لا يتعلق مشكل المقروئية بكسل من أفراد ولا بإرادات سيئة من أشخاص، بل بشروط ومكونات عميقة

إن وافقنا التحليل السابق، سيبدو لنا أن مشكل المقروئية لا علاقة له بكسل من أفراد ولا بإرادات سيئة من أشخاص، بل بشروط ومكونات عميقة، فنحن ثقافة مرت من الشفهي إلى الرقمي مباشرة، ولم ننتج النص المكتوب إلا في فترة استثنائية، وهو ما يعني أن تجاوز مشكل انحصار المقروئية لا يمكن أن يتم، إن كان له أن يتم، إلا بالوعي السياسي والاجتماعي العميق بجذور وأسباب القضية، وبإرادة من حديد وباستثمار للوقت والجهد والقوى لفترات طويلة جدا، وهذا ما هو غير متحقق الآن، ولا يظهر أن أحد عناصره متوفرة، الأمر الذي يفسر أن كل المبادرات والدعوات تظل وستظل طيبة صحيح، لكن شكلية وساذجة وغير ذات أثر يذكر.

صدر حديثا



محمد عثمان الخشت
مدخل إلى
فلسفة الدين
مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث
المركز الثقافي العربي
مدخل إلى فلسفة الدين
محمد عثمان الخشت

الرواية العربية وجماليات الاستجابة إلى متغيرات الواقع



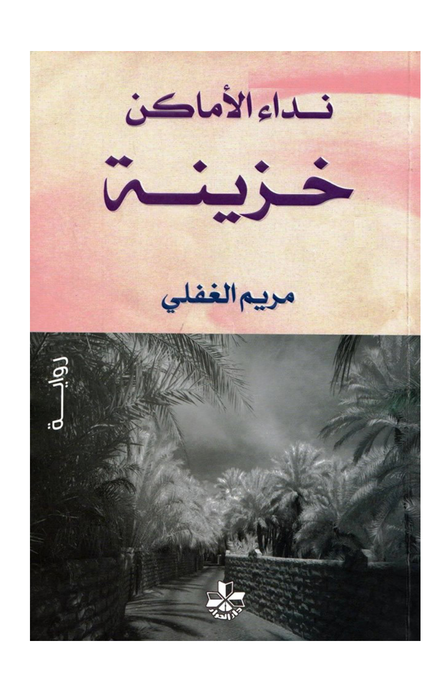
بقلم : د. رسول محمَّد رسول
كاتب وناقد من العراق

ليْسَ الإبداع المتخيَّل في كل صوره سوى استجابة جمالية لموضوعة ما، هذا هو شأنه وغايته، فصلب الإبداع يكمن في تلك الاستجابة، وبذلك لا يمكن النَّظر فيه كونه أداة تعبير فحسب، بل أيضاً هوية جمالية لا تجد ذاتها إلاّ في الاستجابة لحركة الموجود في الوجود بكل مكوِّناته البشرية وغير البشرية مهما تباهى الإبداع الجمالي باستقلاله عن مرجعيات الواقع الحسي.

وفي حدود الفن الروائي، وخلال السنوات القليلة الماضية، أخذت الرواية العربية تتقدَّم ركب بقية الفنون الأدبية من حيث الكم والكيف؛ إذ نلاحظ وجود حراك شامل تعيشه البشرية الراهنة بكل تحولاتها على الصعيدين الذاتي والموضوعي؛ ومنها انصهار الذات العربية في خضم متغيرات باتت جذرية من الناحية السياسية والاقتصادية والتنموية والأمنية والسكانية الأمر الذي انعكس، خصوصاً في السنوات العشر الماضية، على واقع الذات الموضوعي اليومي.

هناك كم هائل من الروايات العربية متواترة الصدور، حتى إن أي ناقد متخصص بالسرديات لا يقوى على اللحاق بهذا الكم بقراءات نقدية، لكن هذا لا يعني أن النقد بات متأخراً بإزاء تقدم عجلة صدور روايات عربية بعدد هائل، فالقراءات النقدية العربية تواكب بقدر استطاعتها، وبمناهج قرائية متقدِّمة، هدير تلك الروايات، وما تريد قوله، ما يعني أن النقد والناقد هما عند مستوى المسؤولية، أمّا ادعاءات الروائيين أنفسهم بأن النقد يتأخر في تناول إنجازاتهم أو يعزف عنها، فإنها ليست كلها سليمة التقدير، أعطني نصاً سردياً روائياً متميزاً أقدِّم لك قراءة نقدية تليق به.

ولهذا، سنختبر هنا، ومن خلال نموذجين روائيين عربيين، مدى استجابة الرواية العربية جمالياً للمتغيرات الموضوعية التي باتت جذريتها تؤثر في توجهات كتابة هذا الفن الجميل، ما يعني أن المبدع العربي، وعندما يكون روائياً، تراه يستجيب للواقع الموضوعي من خلال استنفار



الكتابة الجمالية بغية التعبير عن مكوِّنات الذات البشرية ليس الشخصية فقط، إنما الموضوعية أيضاً.

وهذا ما نجده واضحاً في نصوص روائية عدَّة، منها تلك التي تناولت الرغبة الحميمة في البحث عن الذات الموضوعية المنخرطة في (حدث) غير مفكَّر فيه جمالياً؛ ذلك البحث الهميم عن (الحدث المنسي قسراً)، وتحريره من النسيان على نحو جمالي، وهو ما تمثله مجموعة من الروايات التي يمكن أن نطلق عليها مسمّى (روايات الخطوة إلى الوراء)، وأقصد بهذا النَّمط من الكتابة الروائية: تلك السَّرديات التي فكَّت علاقتها الجمالية بالروايات التاريخية، رغم تشبثها (بحدث موضوعي) جرى وانقضى واقعياً في مرحلة ما من مراحله؛ السَّرديات الروائية التي تعيد الصلة الجمالية بالمنسي قمعاً، وبغير المرغوب بسرده قسراً، لفداحة (الحدث) فيه، ولضخامة الأسوار المؤسساتية التي وضعها أولئك الذين يريدون لذلك (الحدث) النسيان المطلق.

أما على صعيد مفهومي، فيدل مصطلح (الذات الموضوعية) على تلك الذات الإنسانية المنخرطة في (حدث ما) وضمن (إطار مجتمعي ما)، ذلك الإطار الذي يعبِّر، وعلى نحو متبادل، عن هوية مشتركة تُعدُّ فيها (ذات) الروائي الفعلية طرفاً، بينما يمثل واقعه المجتمعي الطرف الآخر، وكلاهما يلتقي عند نص الوجود المشترك بينهما، ويتعاضد على تسريب ذلك النَّص جمالياً وفق شعريات القول الروائي، وهو الطرف الثالث في لعبة الاستجابة الجمالية لحركة الموجود في الوجود.

> خلال السنوات القليلة الماضية، أخذت الرواية العربية تتقدَّم ركب بقية الفنون الأدبية من حيث الكم والكيف

- ١ -

في روايتها «نداء الأماكن»، (دمشق، ٢٠١٣)، تعود الروائية الإماراتية مريم الغفلي إلى ماض قريب، لتلقي الأضواء على (حدث) منسي فيه؛ تلقي الأضواء جمالياً على محنة التطرُّف الذكوري عندما يتخذ طابعاً دينياً لا مآل له سوى الخسران والهزيمة، ذلك التطرُّف الذي نخر مجتمعاتنا العربية، ورسَّخ فيها ممكنات العقل المتخلِّف، والحماس البشري غير الواعيين لطبيعة وجود الإنسان الحقيقي كموجود بشري؛ إذ تبدو شخصية «غانم»، ذلك الشاب الإماراتي الذي ينخرط في مجاهيل متاهة التطرُّف (انظر الفصل العاشر، ص ١٦٧)، تبدو شخصية مركزية دالة تكشف الغفلي من خلالها عن العلاقة المتجلية بين (ذات ذكورية قلقة) و(واقع موضوعي متخبِّط) أخذت معطياته تظهر إلى سطح الوجود المجتمعي العربي المنظور لا سيما بعد عام ٢٠٠٣، لكن الغفلي تنتصر إلى (ذات أنثوية) تبدو أكثر استقراراً مقارنة بـ (الذات الذكورية المأزومة)؛ حيث تبدو «سارة بنت سيف»، زوجة «غانم»، وكدالة شخصية مضادّة في البرنامج الحكائي العام للرواية، تمثل الوجه الآخر من الذات الموضوعية، الوجه الذي يمكن أن نصفه بالإيجابي والمستقر والعقلاني.

وهكذا، وإذا بدت «مكانة الذات تبني لدى الأنثى من خلال ثنائية الواقع المرئي واليوتوبيا الحالمة للأنا، كما تقول الكاتبة الكندية نيكول

بروسار، فإن مريم الغفلي رصدت تحوُّلات المشهد بكل حمولاته السلبية المنعكسة على الذات الأنثوية «سارة» التي استنفرت، بدورها، كل قواها في التصدِّي لرعونة الواقع من حولها، خصوصاً إذا كان زوجها «غانم» شريكاً متورطاً في تكريس الحمق الذكوري عن جهل وتغافل، وذلك من خلال ما كرَّسته، هذه الزوجة، من مواقف ورؤى معتدلة بشأن جملة من القضايا الملتبسة التي تواجه المرأة العربية المعاصرة»[١].

وبذلك تكشف الغفلي عن طرفي لعبة الذات الموضوعية، وهي تواجه أزمة التحولات الجذرية في مجتمع عربي لا يكاد ينجو من محنةٍ، حتى يتدهور إلى غيرها بأكثر جسامة الأمر الذي يستدعي تمثيلاً إبداعياً ينصت إلى ما جرى، بل وإلى ما يجري الآن؛ لا سيما أن التطرُّف الذكوري في ممارساته الدينية الزائفة بات ظاهرة تؤرِّق الذات البشرية في كل مكان، وهي تنال من موجوديتها بتخبُّط مخيف ودمار مهول.

إن ركوب الشباب العربي لموجة التطرُّف الديني صار واقعاً حدثياً ترسَّخ موجوديته يوماً إثر آخر، وفي هذا السياق، نرى مريم الغفلي، وفي روايتها «نداء الأماكن»، تستثمر فداحة ذلك التطرُّف، وما جرى فيه وعنه، ولكنها تحوُّله إلى حدث جمالي عبْرَ القول السَّردي، فتستذكره كمتغير واقعي سلبي، وتحوُّله إلى عامل سردي إيجابي ينتج موجوديته في متخيَّل روائي واضح الهوية.

> تستثمر مريم الغفلي في روايتها «نداء الأماكن» فداحة التطرُّف، وتحوُّله إلى حدث جمالي عبْرَ القول السَّردي

لقد بدأت مريم الغفلي روايتها بإهداء، إن هو إلا عتبة نصية توحي دلالتها بالبُعد السياسي من خلال الملفوظ الذي جاء فيه: «لكل عاشق للوطن.. أهدي هذه الرواية»[٢]. ومع أن رواية «نداء الأماكن» لا تصوُّر نضال مجتمع الرواية في الدفاع عن حياض الوطن، إلاَّ أن هذا الملفوظ العتبي يضمر دلالة تشير إلى ذلك البُعد، وعندما نتوجَّه إلى قراءة الرواية ومتابعة أحداثها تتكشف لنا مضمرات ذلك البُعد المتمثل بحالة التطرُّف الديني الأهوج الذي سقط «غانم» في مصائده التي تهدف إلى زعزعة الاستقرار في البلاد، وهو التطرُّف الذي سبق وأن اجتاح مجتمع الرواية في عقود ماضية.

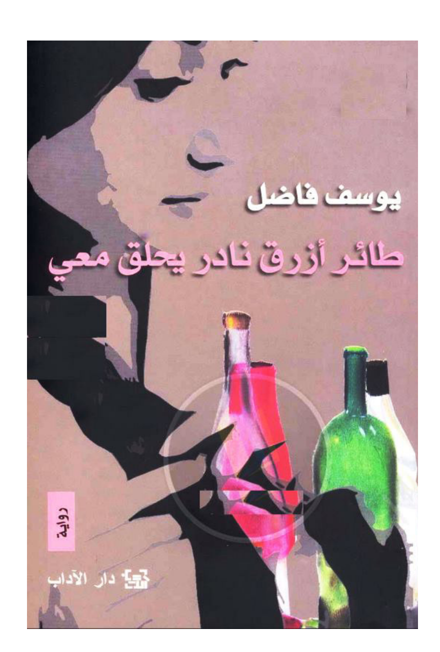
- ٢ -

في هذا السياق، تقترب تجربة الروائي المغربي يوسف فاضل في سرديته «طائر أزرق نادر يحلِّق معي»، (دار الآداب، ٢٠١٣)، مما يُطلق عليه (الأدب السجني)، حيث تجربة الطيار «عزيز» المتهم بمحاولة انقلاب على نظام الحكم بالمملكة المغربية في سبعينيات القرن العشرين، والذي يتم نسيانه في غياهب سجن قذر؛ فيتحوَّل إلى كائن معزول بين جدران تندت عنها روائح كريهة، لكن زوجته «زينة» تبحث عنه في خلال كل تلك المدّة

١- رسول محمَّد رسول: شعرية المؤدى السَّردي، ص ١٢٩، ندوة الثقافة والفنون، دبي، ٢٠١٤

٢- مريم الغفلي: نداء الأماكن.. خزينة، ص ٥، دار الحوار، دمشق، ٢٠١٣





الطويلة، وهي تعمل في بار ترفيهي، وتعيش كل مشكلات العمل فيه كزوجة غاب عنها زوجها لنحو عقدين من الزمان، ولنلاحظ وجوه التماثل بين «سارة» في «نداء الأماكن» و«زينة» في «طائر أزرق نادر يحلّق معي» من حيث محنة المرأة في عالم يسوده التخبُّط السياسي.

يستعيد يوسف فاضل في روايته هذه، وبأنموذج (روايات الخطوة إلى الوراء)، ما حدث يوماً في سبعينيات القرن العشرين بالمملكة المغربية، وتحويله من مجرَّد (حدث) في (تاريخ) إلى (عامل حكائي) كان «الإهداء» فيه، وبوصفه عتبة نصية، قد سربل مكانيته؛ حيث جاء فيه: «إلى شهداء الإبادة في تازمامات، أكدز، قلعة مكونة، سكورة، مولاي الشريف، الكوربيس، الكومبليكس، دار المقري، الأحياء منهم والأموات»[٣].

يكشف هذا الملفوظ العتبي عن السجون وأمكنة الموت والإبادة التي تعرَّض فيها المنتفضون ضد نظام المملكة في حينها إلى شتى أشكال التعذيب، وبدا للناص (Textor) أو (يوسف فاضل) أن هذا يكفي للإشارة إلى ما جرى، ويبرِّر للكتابة فيه وفق لعبة الإضمار المرن، حيث المشار إليه (Referred to) في هذا الملفوظ العتبي هو تلك الوقائع والأحداث التي جرت حينها، ويترك للقارئ، سواء كان فعلياً (Actual Reader) أم نموذجياً (Ideal Reader)[٤] حرية الاستجابة وإن كان النَّص عبارة عن «جهاز يراد منه إنتاج قارئ نموذجي»، كما يقول أمبرتو إيكو[٥]، إلاّ أنه يتركُ لهؤلاء القراء تأويل ذلك الذي جرى كـ (حدث) من خلال مدارات كبرى ووسطى ومصغَّرة انخرطت في بناء حكاية الرواية الكبرى.

تسعى (روايات الخطوة إلى الوراء) إلى تجاوز التاريخ عبر تفكيك الحدث الواقعي فيه، وتحريره من قمع النسيان المؤسساتي له

***

لا شك أن كل تجربة روائية متجلية في نص سردي تشترط وجود (ذات) بشرية أو فاعل أو فواعل (Actors) في (الحدث)، وكذلك تشترط وجود عامل أو عوامل (Actants) تتسم بالموضوعية بحسب مجريات ذلك الحدث المسرود، إلاّ أن استنفار هذا المشترك التواصلي، وتوظيفه في بنية حكائية، غالباً ما يتخذ مساراً معيناً يتجلى اليوم في ميل تجارب روائية معينة إلى تسريد حالة الذات العربية في مرحلة معينة من التاريخ والعودة الجمالية إليها من دون أن تكون (رواية تاريخية)، إنما رواية تسريد الذات في حراكها الموضوعي بعيداً عن أية أرخنة صارخة كما هو حال (الروايات التاريخية)؛ رواية الكشف عن هوية الذات المنخرطة في آلامها ضمن (حدث ما)، وهي تعيش حالة الفقر والتردِّي والتيه والضياع، بل والقتل والتدمير والموت

٣- يوسف فاضل: طائر أزرق نادر يحلق معي، ص ٥، دار الآداب، بيروت، ط ٢، ٢٠١٤

٤- يميز أمبرتو إيكو بين (قارئ فعلي) ينفتح على النَّص من دون مسبقات، وآخر (قارئ نموذجي) يقرأ النَّص الروائي بقصديَّة معينة يلج بها عوالمه. حول هذا التمييز انظر: (أمبرتو إيكو: اعترافات روائي ناشئ، ترجمة وتقديم: د. سعيد بنكراد، ص ٥٦ وما بعدها، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠١٤)

٥- أمبرنو إيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: د. سعيد بنكراد، ص ٧٧، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠

المجاني، وانتهاك براءة الجسد العربي الذي صار مباحاً كما جرى في جريمة (قاعدة سبايكر) في العراق، وقبل ذلك انتهاك واغتصاب الجسد النسوي العراقي البريء كما جرى حاله في مدينة (سنجار)، بل وقبل ذلك أيضاً خداع كثير من النسوة بتفخيخ وتفجير أجسادهن لقتل الآخرين الأبرياء! ولهذا يمكن أن نخلص إلى مشتركات تتقاسمها روايات الخطوة إلى الوراء، منها:

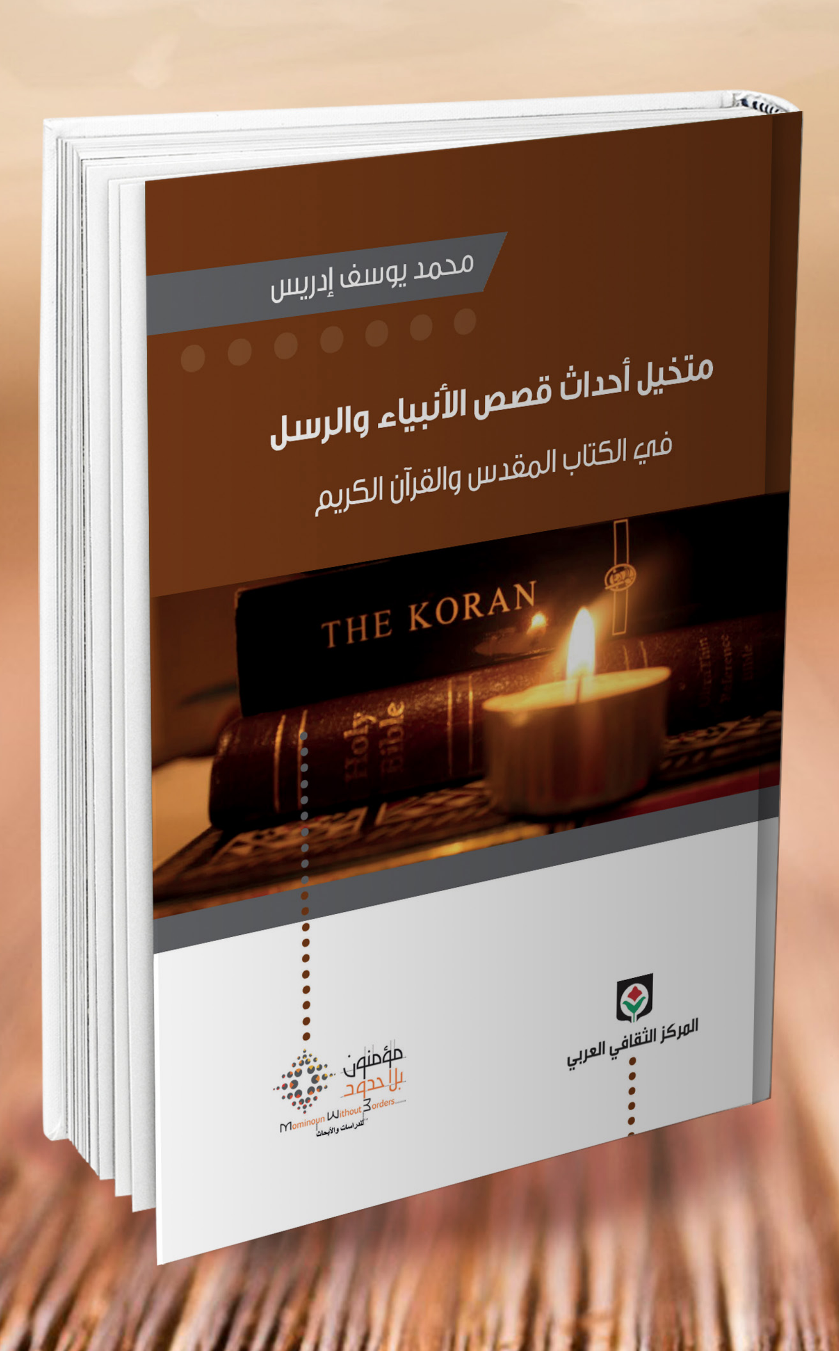
تشترك الروايات المقروءة هنا؛ رواية مريم الغفلي «نداء الأماكن»، ورواية يوسف فاضل «طائر أزرق نادر يحلِّق معي»، في تسريد همٍّ مشاع عندما تعود إلى مرحلة سبعينيات وثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين بل وبداية القرن الحالي، وتستعيد، في خطوة إلى الوراء، حالات الذات العربية؛ حالة «غانم» في «نداء الأماكن»، وحالة «عزيز» في «طائر أزرق نادر يحلِّق معي»، لتصوُّر خسران وتيه وفقدان ذوات هذه الشخصيات توازنها تحت ضغط عالم موضوعي عليل وفاقد أصلاً لاتزانه وحيوته، بل ولإنسانيته حتى؛ فمعها يصبح (المُلتقى به)[٦] من جانب الطرفين على درجة عالية من التوتر النَّفسي بغية خلق بنية حكائية تستجيب جمالياً لـ (نداء الحالة)؛ حالة الذات العربية التي يُزاحم العالم الموضوعي السلبي وجودها الواقعي بعنف وترد واستلاب.

تشترك روايات هذا النَّمط بتفعيل المدارات الحكائية الصغرى، لتوسِّع من دائرة مأساة كل الذوات المشاركة، متكاثرة العدد، في الحكاية الكبرى للرواية، وكذلك تميل إلى تعدُّد الرواة، وإلى استنطاق بعض الفواعل عبر السماح لها بالروي كما هو حال الكلبة «هندة» في رواية يوسف فاضل «طائر أزرق...»، تلك الرواية التي بدت جسدية متنها النَّصي ذات شعرية فائقة لما استنطقت البُعد الزمني في أحداث فصولها الاثنين والعشرين، بينما بقيت جسدية نص مريم الغفلي النَّصية على سجية جمالية معهودة.

تسعى (روايات الخطوة إلى الوراء) إلى تجاوز التاريخ عبر تفكيك الحدث الواقعي فيه، وتحريره من قمع النسيان المؤسساتي له، واستثمار ما فيه من ممكنات جمالية تنسجم وشروط الكتابة السَّردية في شكلها الروائي، وهذا ما أقبلت عليه مريم الغفلي من الإمارات في «نداء الأماكن»، ويوسف فاضل من المغرب في «طائر أزرق نادر يحلق معي»، فطوبى للمتخيَّل الإبداعي العربي أينما يكون، وهو يتجاوز (التاريخ) إلى (الحدث) المنسي فيه قمعاً وتعمية.

٦- (المُلتقى به)، وبحسب فهم الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر، يعني «ما يتمظهر لنا أو ما هو موضوع لمعرفتنا».
انظر: (هانس كوكلر: الشك ونقد المجتمع في فكر مارتن هيدغر، ترجمة: حميد لشهب، ص ٢٥٠، دار جداول، بيروت، ٢٠١٣)

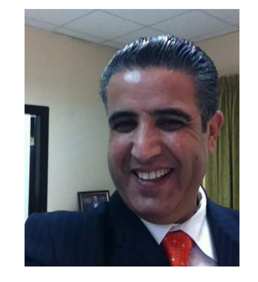

صدر حديثا


محمد يوسف إدريس
متخيل أحداث قصص الأنبياء والرسل
في الكتاب المقدس والقرآن الكريم
THE KORAN
المركز الثقافي العربي
مؤمنون بلا حدود

«إدارة التوحش هي المرحلة القادمة التي ستمر بها الأمة، وتعد أخطر مرحلة؛ فإذا نجحنا في إدارة هذا التوحش ستكون تلك المرحلة بإذن الله - هي المعبر لدولة الإسلام المنتظرة منذ سقوط الخلافة، وإذا أخفقنا - أعاذنا الله من ذلك - لا يعني ذلك انتهاء الأمر، ولكن هذا الإخفاق سيؤدي إلى مزيد من التوحش..!!

إدارة التوحش

كنموذج إرشادي لفهم التطرف الديني الإسلامي والإرهاب



بقلم : د. سعود الشرفات
باحث أردني ومدير مركز شُرُفات للدراسات والبحوث

ولا يعني هذا المزيد من التوحش الذي قد ينتج عن الإخفاق أنه أسوأ مما هو عليه الوضع الآن، أو من قبل في العقد السابق (التسعينيات (وما قبله من العقود، بل إنَّ أفحش درجات التوحش هي أخف من الاستقرار تحت نظام الكفر بدرجات».

(أبو بكر ناجي - إدارة التوحش)[١]

إدارة التوحش؛ بما هي نموذج إرشادي أو إطار فكري «براديم» بالمعنى الذي استخدمة الفيلسوف الأمريكي توماس كون بمعنى: نموذج قياسي ينظر إلى العلم كفعالية إنسانية ذات طبيعة تقدمية مطردة، والنظر إلى ظاهرة العلم وغيرها من الظواهر في العلوم الإنسانية في ضوء تطورها عبر التاريخ، وبدء دورة جديدة أكثر تقدما؛ بمعنى الانتقال الثوري من (براديم) قديم إلى آخر جديد بما يحمله من تغيرات وتحولات. ولقد كان كون أول من استخدم هذا المفهوم في إطار تفسيره لتاريخ العلم على أساس مفهوم الثورة التي هي انتقال من مسلمة إلى أخرى، وذلك في كتابه «بنية الثورات العلمية»، ١٩٦٢م[٢]

وإدارة التوحش بما هي نموذج إرشادي «براديم» جديد كما نقاربها هنا؛ تنتمي إلى مقاربات العلوم الإنسانية، ذلك أن توماس كون ظل يحاجج بأن نموذجة ينطبق فقط على العلوم الطبيعية فقط، ولايمكن أن ينطبق على العلوم الإنسانية، وتعني أن ظاهرة التطرف الديني الإسلامي المفضي إلى الإرهاب المعولم

١ - ناجي، أبو بكر، إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، (بدون تاريخ نشر).
٢ - كون، توماس ١٩٩٢، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، سلسلة كتب عالم المعرفة ١٦٨، الكويت.

حاليا، شهدت تحولا وتطورا جديدين دخلا على الظاهرة. وتنفي قطعيا أن تكون أفعال الإرهابين والمتطرفين الإسلامين في الحقبة الحالية من العولمة عشوائية، وبدون براديم إرشادي وأن الفاعلين والمنفذين للأعمال الإرهابية ينقصهم الدافع، ويعوزهم التخطيط والإدارة ويعانون من مشاكل نفسية، أو أنهم غير متعلمين، وفقراء معدمين أو زمرة من قطاع الطرق.

هذا برأيي؛ استخفاف خطير يزيد الأمر تعقيدا، ويؤدي بالضرورة إلى فشل محاولات الأطراف الفاعلة من الدول في فهم المنظومة المعرفية للتوحش ثم الفشل الذريع في مقاومة التطرف الديني والإرهاب المعولم، والذي نراه الآن في العالم العربي وفي كل دول العالم التي تعاني من التطرف الديني والإرهاب.

لابد للتوحش من إدارة وتخطيط، ولابد له من منفذين أوفياء جدا يعتمدون منظومة معرفيّة واضحة، صلبة، واسعة وعميقة جدا تمكن من استمرارية الوجود والحركة والفعالية والتضحية، لأنه في كل دورة أو مرحلة للتطرف الديني كان هناك «براديم» نموذج إرشادي يعتمد عليه؛ وفي كل مرحلة يحدث تغير وتطور في النماذج الإرشادية. ويكاد أن يكون من المتفق عليه لدى جمهور المتابعين والمهتمين وفي أدبيات التطرف الديني والإرهاب أن «حاكمّية» سيد قطب كانت وما زالت من أهم وأخطر هذه النماذج، ومن أصول المنظومة المعرفّية لدورات التطرف الديني والإرهاب في الحقبة الحالية من سيرورة العولمة.

لابد للتوحش من إدارة وتخطيط، ولابد له من منفذين أوفياء جدا يعتمدون منظومة معرفيّة واضحة

ويأتي كتاب المدعو أبوبكر ناجي (اسم حركي مستعار، حيث أكد المفتي السابق لتنظيم القاعدة في مصر سيد إمام الشريف في حديث متلفز لقناة الأخبار الآن بتاريخ ١٩-٢-٢٠١٤ إلى أن مؤلف الكتاب هو محمد خليل الحكايمة، وأنه كان على علاقة بالمخابرات الإيرانية) «إدارة التوحش أخطر مرحلة ستمر بها الأمة...» ضمن أهم المراجع الإرشادية الحديثة لفهم التطرف الديني الإسلامي والإرهاب المعولم، الذي جسده تنظيم القاعدة خاصة في أوج قوته بزعامة أسامة بن لادن قبل أن تنتقل الراية لأبي مصعب الزرقاوي، ثم إلى داعش الآن، رغم أن شهرته لم تبلغ النموذج الإرشادي السابق له متمثلا عند سيد قطب أو أبي الأعلى المودودي من حيث العمق والتأصيل الفقهي، وتركيزه بدلا من ذلك على العمل الحركي الميداني والعمل على الأرض، ولغتة الجافة الحادة.

ويمثل الكتاب تأصيلاً فكريا، وخارطة طريق للتطرف الديني الإسلامي و(كتالوجاً) للإرهاب ومثالاً على أن هذه (الأيديولوجيا) الإسلامية البرامجّية الإرهابية تعرف ما تريد ضمن واقع وبرنامج عملي ورؤية مدروسة بعناية؛ لكن ليس بالضرورة أن تكون صحيحة أو أن تكون إنسانية.

ولعل أهمية إدارة التوحش تكمن أيضا في أنه رصد للبرامج الدينية (الأيديولوجية) والنماذج الإرشادية المماثلة للسلفية الجهادية تخلفا وتكلسا

في مختلف تيارات الحركة الإسلامية، وذكرها في معرض مقاربته المقارنة وتحليلة للسياسة اليومية ومستقبل دولة الإسلام المنتظرة؟ وذلك عندما أكد أن من كل تيارات الحركة الإسلامية لم يضع مشاريع مكتوبة إلا خمسة تيارات، فبعد إخراج تيار التبليغ والدعوة، وتيار سلفية التصفية والتربية (السلفية الصوفية)، وتيار سلفية ولاة الأمر وغيرهم، سنجد أن التيارات التي وضعت نماذج إرشادية خاصة بها أو مشاريع مكتوبة، وتصلح للنقاش لما لها من واقع عملي، هي خمسة تيارات:

- **تيار السلفية الجهادية (ويمثلها تنظيم القاعدة).**
- **تيار سلفية الصحوة الذي يرمز له سلمان العودة وسفر الحوالي.**
- **تيار الإخوان الحركة الأم (التنظيم الدولي).**
- **تيار إخوان الترابي) المقصود حسن الترابي وتجربة الحكم في السودان).**
- **تيار الجهاد الشعبي) حركة حماس وجبهة تحرير مورو وغيرها)[٣].**

يمثل كتاب أبو بكر ناجي تأصيلاً فكريا، وخارطة طريق للتطرف الديني الإسلامي و(كتالوجاً) للإرهاب

ولابد من الإشارة إلى أنني لا أبغي التوسع عن هذا الكتاب إلا بهدف محدد هو لفت الانتباه إلى أهمية النماذج الإرشادية المتطرفة دينيا لجماعات الإسلام الجهادية التي تعتمد الإرهاب وسيلة وحيدة لتحقيق أهدافها السياسية.

وتبقى مسألة مدى استفادة هذه الجماعات الإرهابية والمتطرفة دينيا في الحقبة الحالية من سيرورة العولمة، مثل داعش وغيرها من هذه النماذج مسألة غير واضحة حتى الآن، خاصة وأنها من المسائل التي لم تحظ على حد علمي باهتمام الأكاديميين والخبراء والمتابعين للتطرف الديني والإرهاب المعولم.

لكن هذا لا ينفي أن عددا من المستشرقين والأكاديميين؛ أو الاستشراق المعكوس في الغرب خاصة الفرنسي بعد عام ١٩٧٩م، أي بعد الثورة الإيرانية وفورة ما يسمى الإسلام السياسي، أمثال: أوليفييه روا، جيل كيبل، وأوليفيه كارية، قد اهتم بمحاولة تحليل أسباب التطرف الديني الإسلامي والإرهاب المعولم بشكل عام وركز جهده على محاولة فهم أسباب التطرف الديني الإسلامي أو الأصولية الإسلامية([٤]).

٣- ناجي، أبو بكر، إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، (بدون تاريخ نشر). ص ٣

٤- أشقر، جلبير، ٢٠٠٨، لاستشراق معكوسا: تيارات ما بعد العام ١٩٧٩في الدراسات الإسلامية الفرنسية، جريدة المناضل العمالية، المغرب، على الموقع الإلكتروني: http://goo.gl/E٢cVed

وأرجـو أن أشـير هنـا، وعـلى سـبيل المثـال، إلى أن المسـتشرق الفرنـسي (مكسـيم رودنسـون)[٥] في بحثـه لمسـألة التطـرف الديـني الإسـلامي، كان يـرى أنَ مصطلـح «الأصوليـة الإسـلامية» مصطلـح جيـد، لكـن مصطلـح «التطـرف الإسـلامي» أسـوأ منـه، في حـين يولّـد مصطلـح «الإسـلاموية» الالتبـاس مـع مفهـوم «الإسـلام» بالمقـدار نفسـه، ومـع أن مصطلـح «الإسـلام الراديـكالي» ليـس سيئاً للغايـة، لكنـه ليـس هنـاك أي مصطلـح يمكـن أن يقابـل حقاً وبشـكل كامـل الموضـوع قيـد المناقشـة، ويحاجـج بالقـول، إنـه يمكننـا أن نسـتوعب تحـت مصطلـح «الأصوليـة الإسـلامية»، كل تلـك الحـركات الـتي تعتقـد بـأن تطبيقـاً كامـلاً متكامـلاً لا يتجـزأ للعقائـد والممارسـات الإسـلامية، بمـا في ذلـك في مجـالات السياسـة والمجتمـع، مـن شـأنه أن يقـود المجتمـع المسـلم، أو حـتى العالـم كلـه، في طريـق العـودة مـرة أخـرى إلى دولـة متناغمـة مثاليـة، والـتي تكـون تكـراراً ونسـخة مـن المجتمـع المسـلم المثـالي الأول في المدينـة المنـورة في السـنوات بـين (٦٢٢ و٦٣٢م).

ويدّعـي؛ بـأن الأصوليـة الإسـلامية تعـرض بعـض التشـابه مـع (أيديولوجيـة) سياسـية علمانيـة، مثـل الشـيوعية، فالشـيوعيون أيضـاً يعتقـدون أن التطبيـق الكامـل للوصفـات الـتي وضعهـا مؤسسـهم ينبغـي أن تجلـب مجتمعـاً متناغمـاً يخلـو مـن الاسـتغلال أو القمـع، وعـلى النقيـض مـن ذلـك، لا توجـد أيـة أيديولوجيـة مماثلـة في المسـيحية، ويعتقـد الأصوليـون المسـيحيون أن تطبيـق تعاليـم المسـيح بشـكل كامـل مـن شـأنه أن يجعـل الجميـع خيريـن ولطفـاء، لكنهـم لا يعتقـدون بأنهـا سـوف تغـير بنيـة المجتمـع بالـضرورة»[٦].

إن الأمن العالمي سوف يرتبط بصورة متزايدة بالهوية الثقافية بدلا من ارتباطه بسيادة الدولة والأمة

وفي سـياق تحـوّل وتطـور «البراديـم» يحاجـج الأكاديمـي المتخصـص بالحـركات الإسـلامية (سـايمون ميرديـن، ٢٠٠٤ م)[٧] أنـه مـع انتهـاء الحـرب البـاردة طفـا إلى السـطح مجـدداً الاختـلاف الثقـافي بـين الغـرب والإسـلام؛ كأحـد نقـاط التمـاس الحساسـة المحفوفـة بالريبـة الثقافيـة، وبخاصـة أن تاريـخ الآخـر أو تاريـخ الغريـب قديـم قِـدم الحضـارة نفسـها، ولقـد كان تشـخيص (الأوروبيـين) للآخـر والغريـب عـلى الـدوام تقريبـا تشـخيصاً نمطيـاً مقولبـاً ومهنيـاً، وممـا زاد الأمـر التباسـاً هـو أن العولمـة الثقافيـة قـد ساعـدت عـلى إبـراز الثقافـة الأخـرى المعارضـة لليبراليـة الغربيـة كأيديولوجيـا للعولمـة في وجـه القيـم الإسـلامية الـتي امتـدت عـبر سـيرورة سريعـة بفعـل محـركات العولمـة التكنولوجيـة الـتي عـبر عنهـا (هنتنغتـون) في دراسـته «صـدام الحضـارات»، وأن الخلافـات بـين الحضـارات أعمـق مـن التنافـس بينهـا، وأن العولمـة تزيـد مـن احتمـال الصـدام الحضـاري، إذ أخـذ العالـم بالتحـول إلى رقعـة أصغـر بفعـل ضغطـه زمانيـاً ومكانيـاً. الأمـر الـذي يدفـع درجـة الوعـي بالخلافـات والتهديـدات الثقافيـة أكـثر فأكـثر. وبنـاء

٥-أشقر، جلبير، (٢٠١٣). مكسيم رودنسون عن «الأصولية» الإسلامية، صحيفة الغد الأردنية، الأحد ١٦ حزيران / يونيو ٢٠١٣

٦-أشقر، جلبير، (٢٠١٣) مكسيم رودنسون عن «الأصولية» الإسلامية، ص ٢

٧-سايمون، ميردين، (٢٠٠٤)، الصراع الثقافي في العلاقات الدولية: الغرب والإسلام، في (بيلس وسميث) الجزء التاسع عشر.

عليه، فإن الأمن العالمي سوف يرتبط بصورة متزايدة بالهوية الثقافية بدلا من ارتباطه بسيادة الدولة والأمة.

وهذا يستدعي حسب وجهة نظري، وجود تطور وتحوّل في النموذج الإرشادي (paradigm shift) «يؤدي الى براديم» جديد وحديث يواكب التطور والتسارع الحاصل في العالم بفعل آليات سيرورة العولمة المختلفة.

فعلى سبيل المثال أشار (تاكيه، وغفوسديف، ٢٠٠٥م)[٨] أن هزيمة (السوفييت) في أفغانستان ١٩٨٩م فعّلت حركة عالمية من الثوريين الإسلاميين الذين تفرقوا بهدف قتال مستمر حول العالم، بمعنى أنها خلقت براديما جديدا كان قوامه فكر تنظيم القاعدة الذي كان حتى ذلك الوقت ينهل من براديم سيد قطب وأبي الأعلى المودودي.

وأرى؛ بشكل عام أنه ليس هناك سبب واحد ومحدد للتطرف الديني الإسلامي، وهو مسألة معقدة، وإشكالية تتداخل فيها عوالم واسعة من الأسباب، وليس هناك وصفة طبية جاهزة لمعالجته، وهو شكل معقد جدا من مجموع منظومات العقل البشري المعقدة، وأزعم أنه رغم الرطانة الواسعة والتحليلات السطحية له إلا أنه كظاهرة سياسية واجتماعية تؤثر في العلاقات الدولية والعالمية متخطية للحدود الوطنية لم يبحث بجد وعمق بعد.

وأعتقد؛ وقد يشاطرني البعض هذا الاعتقاد، أنه ليس صحيحا أن البشر يتطرفون ويقتلون لأنهم جياع أو مهمشون فقط، أو لأنهم أغبياء أميون لا يملكون الإرادة الحرة وخيارا في الحياة، بل على العكس من ذلك لأن التطرف الإسلامي - على الأقل- مسألة خيار وإرادة حرة وقناعة دينية عميقة واسعة ومتينة، تستند إلى (أيديولوجية) أصولية إسلامية، أصبحت تعبر عن نفسها ضمن نماذج إرشادية تتغير وتتطور مع مقتضيات التسارع الحاصل في سيرورة العولمة، وبرنامج واضح ومحدد بأطر عملية ونظرية في مختلف المجالات، ويجري الاحتفال بها على نطاق عالمي بفضل آليات العولمة المختلفة وخاصة (التكنولوجية) بالصوت والصورة.

٨- تاكيه، راي وغفو سديف، نيكولاس، (٢٠٠٥)، نشوء الإسلام السياسي (الراديكالي) وانهياره، ترجمة حسان بستاني، دار الساقي، بيروت الطبعة الأولى.

العمود الشعري...
مقبرة دفنت تعددية الفضاء الشعري العربي وتنوعه



بقلم : غازي الذيبة

كاتب وشاعر عربي/ فلسطيني

(١)

ما تـزال قصائـد «العمـود» المدرجـة عـلى مدونـة الشـعر العـربي الحديث، مسـكونة بخفـوت صوتهـا، بالرغـم مـن علـوه في المـاضي، ومـا يـزال هـذا الشـكل مـن الكتابـة الشـعرية، يمثـل لاكتمالـه بـ»الإرث»، وينـأى عـن «الحـاضر»، ويغيـب عـن «المسـتقبل»، دائخـا في العمـاء، والتـبرج ببلاغـات سـكتها عملـة «المـوروث» والقعـود فيـه، وغلبـت عليـه اسـتعاراته النمطيـة القادمـة مـن المـاضي.

إنـه شـكل شـعري، يـصر عـلى الاحتماء بخلوده المريض، ويعتقـد بأنـه صالـح لـكل الأمكنـة والأزمنـة. لـم يتفلـت شـعراؤه مـن النهـل مـن نماذجـه القـارة، ولـم يحركـوا أي سـاكن في بركتـه الراكـدة. كل مـا فعلـوه، أنهـم وضعـوا القطـار مكان الجمـل، وتغنـوا بالكهربـاء بـدل القمـر.

قـد يبـدو هـذا التوصيـف مجحفـا بحـق الشـعر والشـعراء العموديـين الحديثـين، لكنـه الأقـرب إلى وصـف حالتهـم؛ فقـد اسـتقروا عـلى مـا اسـتقر عليـه شـكل ومبـنى قصائدهـم، ومـا غايـره، ممنـوع الاقـتراب منـه، أو لمسـه، مغرقـين في سـلفية متطرفـة، تذهـب إلى تكفـير مـن يخـرج عـلى «العمـود».

منـح هـذا النمـط الشـعري قدسـية، مـع أن قواليـه وناظميـه، هـم مـن مختلـف الطوائـف الإسـلامية في بـلاد العـرب، تلـك الـتي تكفـر بعضهـا، وتسـتبيح دم بعضهـا، لكنهـا في القصيـدة العاموديـة، تُغيِّـب تلـك الحساسـيات الطائفيـة، ويصبـح «النمـط» بطـلا، يُمنـع مَسُّـه أو الثـورة عليـه.

والمثـير للغرابـة، أن عقـل شـعراء العمـود الحديثـين، يـصر عـلى تغييـب شـعراء مـن «الـكار» نفسـه، كانـت لهـم إسـهامات في الاختـلاف مـع هـذا النمـط الشـعري مـن ناحيـة المعـنى، معتبرينهـم مجدفـين، وخارجـين عـلى السـلف، فأبـو نـواس مثـلا، الذي فهم الشـعر بعيـدا عـن منطقـة وعـي النمـط لـه، وذهـب إلى أقـصى مناطقـه الحرجـة في القـول الشـعري، محـاولا القطـع مـع المـاضي، بهـدم الطلليـة مثـلا، ووجـه بالرفـض، ووضـع تحـت المجهـر في زمنـه. أمـا في زمننـا، فقـد غيّبـه الـدرس الشـعري العـربي الأكاديمـي، وتعامـل معـه بحـذر وانتقـاء.

(٢)

عـاش ناظمـو القصائـد «العموديـة» في ظـلال ديمومـة الـتراث، باعتبـاره «حـي لا يمـوت». وهـذه الأخـيرة، عبـارة مشـحونة بقدسـية لا نهائيـة، تسـتمد معناهـا مـن الخلـود الإلهـي. ومخالفتهـا تنطـوي عـلى تجديـف بحـق الله الـذي لا يمـوت، مـا دفـع بعـض الماكريـن في الأدب العـربي، إلى ربـط الشـعر بشـكله العمـودي ضمـن هـذا المعـنى، أي بالحيـاة الأبديـة، وهـذه خديعـة مصفـاة، تمنـع أي اقـتراب مـن نقـض هـذا «النمـط»، لأنـه وضـع في مصـاف المقـدس اللانهـائي.

لـم ينطـو التفكـير بالـتراث العـربي عـلى قـراءات مغايـرة، تفككـه، وتعيـد قراءتـه، وتبتكـر مسـارات بحثيـة، تحـاول فهـم آليـات إنتاجـه، وكيفيـة وصولـه إلينـا. بقـي الاعتمـاد عـلى «عـصر التدويـن» كفاصلـة نهائيـة للقـول بهـذه القدسـية، قاطعـا بذلـك أيـة مسـافة يمكـن أن تـأتي بمـا هـو مختلـف، أو أن تقـترب مـن وصـف الـتراث، بعيـدا عـن صفاتـه المقدسـة.

في القرنـين التاسـع عـشر والعشريـن، احتدمـت التسـاؤلات حـول القصيـدة العموديـة، ومجـرد المسـاس بهـا، اعتـبر مغامـرة، وكانـت المحـاولات الحييـة لإعـادة قراءتهـا في سـياق قـراءة الـتراث، مهمـة شـاقة، بيـد أن تلـك المحـاولات

ما تزال قصائد «العمود» المدرجة على مدونة الشعر العربي الحديث، مسكونة بخفوت صوتها، بالرغم من علوه في الماضي

كانت أساسا جيدا للخروج على «تراث العمود»، واجتراح «أشكال جديدة» للقصيدة، واستخدامات مغايرة للشعر.

كل ذلك الاحتدام، امتثل لتخليق شكل ومبنى مختلفين للقصيدة العربية، لكنه استل من فضاء الشعر الغربي، بخاصة الفرنسي، واعتبر المغامرون الأوائل، أنهم أنتجوا شكلا جديدا في الشعرية العربية الحديثة، مغفلين أن هذا الشكل، لم تنتجه تلك الشعرية، فهم جلبوها، إما ترجمة أو تأثرا مما ترجم، وغرقوا في نمطية ما أنتجوه، فأضحت مهمة التغيير لديهم شبه منتهية، أنتجوا على هامشها تنظيرات، بدت في حينه سريعة، ثم أضحت تجتهد في تبرير محاولاتهم التغييرية تلك.

وبعد أن نقلوا نموذجهم مترجما، وتأثرنا بالترجمة، ووقعنا في فخاخها، بقي وعينا ناقصا لفكرة التغيير والاختلاف.

صحيح أن جهدهم كان بمنزلة الثورة، تداعت بعدها الحركات المتمردة على الشعرية السائدة، لكنه ما يزال يحتم علينا أن نذهب إلى أبعد من القعود في أثر الترجمة، وأن نمضي في البحث إلى أقصاه، لاكتشاف منابع شعريتنا وأشكالها وفضاءاتها العربية الأولى.

كما علينا ألا نغيِّب، أنه في مقدمة هذه المحاولات، اعترى أولئك المغامرون الحياء في الاختلاف، فمتحوا من أساس الشكل القار للقصيدة العمودية، وهو ما رأيناه في قصيدة التفعيلة، التي يعد جذبها للشعر العربي، فعلا مراوغا، فقد مدت بالوزن، ومنحت قافية متباعدة أحيانا، وحرية تخالف ما يتسم به «العمود» من ناحية الشكل فقط، وذهب أبطالها إلى النوم على وسائد تريح فهمهم للبيئة العربية الحاضرة، في نطاق بلاغي مشدود إلى الماضي.

هذه المحاولات التي صارت جزءا من حركة العرب للتغيير، بدت مهمة رائدة، وعميقة، بالرغم مما استتر تحت قشرتها من سطحية، قُدم لنا روادها، وهم يتصارعون حول أسبقية من أقدم على المبادرة في التغيير، وبدا التأمل لمضمون التغيير وشكله حينها، منسرقا للصراعات بينهم.

(٣)

نلمح في صفحات التأريخ لمحاولات الخروج على النمط الشعري المستقر في الذهنية العربية، تدوينات بسيطة لمقدمات ذلك الخروج في القرن التاسع عشر، تتحدث عن القصيدة المنثورة، ونقرأ نصوصا ساذجة، تحاكي بعض الترجمات البسيطة لقصائد فرنسية وغيرها من اللغات الحية، لكن جلها يشبه الخواطر.

كل هذه المحاولات، أنتجت اليوم، حالة أودت نسبيا ب»العمود»، وأرست شكلا جديدا للشعر، ومضت في برار لم تكن مألوفة، غير أنها مستلة في فضاءاتها من التجربة الفرنسية غالبا، وأخرى من أنماط شعرية مختلفة كالهايكو الياباني.

> في القرنين التاسع عشر والعشرين، احتدمت التساؤلات حول القصيدة العمودية، ومجرد المساس بها، اعتبر مغامرة

(٤)

منذ مئات السنين، تربى العربي سماعيا، على الإصغاء للقصيدة العمودية، ووصلتنا من هذا المنتج نصوص كثيرة جدا، كلما تفحصناها، نتلمس قدرتنا العجيبة على الصبر والثبات، ففيها نلمح غياب العقل العربي عن إنتاج شعر مختلف، متعدد الأشكال والآفاق، بعيدا عن «العمود»، الشكل المستقر.

وكما لو أن هذا الشعر، غير مهيئ لأن يتغير، أو يجترح مواز له أو مختلف عنه، متناسين في غمرة هذا النقاش، وغيره مما سبق من نقاشات، أن العرب عاشوا حقبا من التنوع الزاخر في حياتهم الثقافية والفنية والفكرية، لكن هذا التنوع لم نر له أثرا فيما وصلنا من شعر.

لم يسجل تأريخ الشعر العربي الكثير من محاولات الخروج على النمط، أي العمود، ولا حتى القليل منها. فقد استسلم المؤرخ لما هو ناجز أمامه، وأعياه الانتباه للانفلاتات الثرية لشعراء عموديين، حاولوا أن يخرجوا على هذا الشكل المستقر، لكن أسر النمط، كان يحد من تفلتهم، ويدفعهم إلى «التهيب»، ربما من المضي أبعد مما هو سائد.

وقد جلبت لنا المدائح والهجائيات ـ وهي نمط شعري مكانته ضعيفة في شعر اليوم ـ، ما يحمل على أنها فرضت على المجتمعات العربية بالقوة، ومكنت ضحاياه، كالسلاطين والحكام والخلفاء والناس العاديين، من جعلها، فاعلا في تمكين القوة السياسية التي تحتاج عادة إلى التنميط، لترسي معادلاتها في الحكم، وهي بذلك ثبتت قواعد للشكل الشعري، الخروج عليها، يعني الخروج على طاعة ولي الأمر.

وكان الشاعر الخارج على ولي الأمر، يذهب إلى مماثلة ما فرضه هذا الولي، في قوله وفعله، ليتمكن من جذب المستمعين إليه، وإقناعهم برسالته الثائرة، وسوى قلة استخدموا بلاغاتهم النثرية، وربما الشعرية المختلفة، فإننا لا نجد مما وصلنا الكثير، مما يدلل على خروقات ذات بعد مختلف في المعنى الشعري.

> اعتبر المغامرون الأوائل، أنهم أنتجوا شكلا جديدا في الشعرية العربية الحديثة، مغفلين أن هذا الشكل، لم تنتجه تلك الشعرية، فهم جلبوها، إما ترجمة أو تأثرا مما ترجم، وغرقوا في نمطية ما أنتجوه

ليس صحيحا أن التراث لا يموت، ومن ينظمون «العمود» لم يسألوا أنفسهم: ماذا كتب الشعراء القدامى قبل القصيدة العمودية التراثية، تلك التي وصلتنا منها عشرات الآلاف من الأبيات، والتي يتسرب في دقائق كثير منها، ذلك التوق للانفلات من ربقة السائد، والاختلاف في صناعة معان تبتعد عما استقر آنذاك.

ما سبق «العمود» هو تراث أيضا، وقد غاب، لن نقول إنه مات، لكنه غير موجود الآن، وجزء من «العمود» نفسه، هو تراث، لم يعد موجودا.

(٥)

في زمن امرئ القيس الذي يُستشهد به كواحد ممن أثروا الشعر العربي في العصور القديمة، كان ثمة شعراء يكتبون بعيدا عن الهندسة الشكلية للقصيدة العربية (العمود) ذات الشطرين، لكن



هؤلاء لم يصلنا منهم ما يشي بالإفصاح عن تنوع شعريتنا.

وما نقدمه في هذه المقالة، إنما هو محاولة للتساؤل والبحث والاستدراك، لنقول إن ثمة خللا غيب فضاء شعريا كاملا، كان عليه أن يستقر كما «العمود» في الشعرية العربية.

لقد قيل إن المهلهل بن أبي ربيعة (الزير سالم) وفق الروايات غير المستقرة لحقيقة وجود هذه الشخصية، هو من أقدم على بناء القصيدة وفق الشطرين، ووحد رويها وقافيتها، ولو صحت هذه الرواية، فذلك يعني أن المهلهل ـ سوى أنه ثار على ما كان سائدا في شعرية ذلك الزمان، كان نتاج وعي تغييري سبقه أو عاش زمنه، ما يعني أن هناك أكثر من مندفع نحو ما اجترحه هو من تغيير في القصيدة.

وهذه بذاتها، تدفع إلى التساؤل: لم يُستند إلى شخصية لم يصل من شعرها سوى القليل المشكوك بصحته، وتحوم الشكوك أيضا حول وجودها، في وضع أساس النمط الشعري، وتقديسه، من دون أن يأخذ هذا التقديس حقه الكامل في النقاش والبحث والتساؤل حوله وحول أهميته التي دفعت بالشعر، لأن يستقر على ما هو عليه لقرون طويلة؟

إنه لمن المريب أن يقدم لنا مدونو الشعر العربي، ابتداء من الفترة التي تعترف بحضور المهلهل كأول من هلهل الشعر؛ أي قفاه ومنحه الجِرس الموسيقي، وصفاه من السائد، السابق عليه، ثم يقودوننا للاستشهاد بصحة ما نقلوه إلى شعراء نمذجوا ما ذهبوا إليه، أبرزهم شعراء المعلقات، ليدفعوننا دفعا إلى اعتبارهم نقاطا مفصلية في تأريخ الشعر العربي، يفصحون فيه عن أن أول الشعر بدأ من هناك، بمعنى أنه لم يسبقهم غير ما استقر.

كيف إذن يمكن أن يأتي المهلهل، ليقدم لنا شكلا في الشعر، يصبح سائدا، بينما لا يصلنا ما سبقه مما كان يشغل شعراء أقدم منه؟ ليقر بما جاء به كفاعل، أسس وعينا كل هذه المدة للشعر وشكله ومعناه، وليصبح الخروج بعدها على ما جاء به، خروجا على المستقر، المقدس؟

لم يتوقف ما خلفه استقرار النمط الشعري، عند حد بعينه، كالشكل والمعنى، بل أرسى فهما جامدا في الوعي العربي اللاحق، تحتاج زحزحته إلى ثورة كي تغيره، وأغفل منجزات سابقة عليه، مُحيت من الذاكرة الشعرية العربية، ليقر بعدها بأن العربي ابن هذا النمط في الشعر، وسادنه، وهذه أسهمت بسجن التفكير في الخروج على السائد، ما تجلى في تنميط الوعي العربي، وزجه داخل بوتقة الثبات والجمود.

ولولا ما أقدم عليه شعراء ثائرون لاحقا، لمواجهة مناخ حجري كهذا، لما رأينا الاختلافات الثرية في المدونة الشعرية العربية، بالرغم من رسو النمط والتزام حتى الثائرين بشكله.

من ينتج القصيدة العمودية بفخامتها المعمارية تلك وبلاغاتها العالية، لا بد وأنه أنتج في فضاء الشعر أنماطا أخرى، تقاربها، أو تفارقها

(٦)

انعكس «النمط» تقريبا على الكثير من أشكال التفكير العربي، وانتشر التفكير «العمودي» في الوعي العربي، حتى شغله بشطريه وأوزانه التي منع الخروج عليها.

وفي الوقت الذي يذهب فيه بعض الشعراء من الحقب الماضية إلى أن الشعر لم يسجن في ستة عشر بحرا وزنيا، وأن هناك نظما وقولا شعريا، خارج ما أقره الخليل بن احمد الفراهيدي في أوزانه، فإنهم بذلك يصرخون في وجه النمط الذي استقر بتلك الأوزان على بحورها المعروفة، ويطوح بهذيان الاستقرار، ليضع أمامنا فضاء مغايرا لما فرضه المدونون، ولما استجلب من إقرار بأن الشعر، ابن «العمود» وعدة بحور ضيقة الأفق، مصنوعة في نطاق، سجن الشعرية العربية في بوتقة الأوزان الفراهيدية لقرون، وسواه لا يعد شعرا.

(٧)

هل نستطيع القول إن القصيدة العربية كانت بلا شطرين، وإذا كانت هناك قصائد مشطرة، فهل كانت هي البطل الذي لا يشق له غبار في منظور الشعراء القدامى؟ وفي ظل هذا التساؤل، ألا يحق لنا أن نسأل: من أين خرجت القصائد المغناة آنذاك، بأشكالها التي تُضبط وفق ألحان تحتاج إلى عدم الاستقرار ضمن وزن بعينه، وإلى التفلت من أي شكل، لتبقى متوهجة، متنوعة الجرس، جاذبة للمتلقي؟

ثم، ألم يكن لأشكال عديدة من فنون القول، والتي تدور في فضاء شعري، أن تكون جزءا من التنويعات الشعرية في الشكل والمعنى، كتراتيل كهنة المعابد والكعبات، التي تحتمي بإيقاعات صوتية، تقربها من الشعر الموزون في الشكل والمعنى، إذ كانت تحمل أبعادا تأملية وبلاغات مفارقة لما هو متداول في الكلام العادي؟

ثمة فنون للقول الشعري، يمكن أن نتفحص التاريخ لنستدرك أنها كانت موجودة، من دون عناء، فلا يعقل أن تغيب ترانيم

> أفصحت المدونات التي اكتشفها آثاريون عن فيض لافت من الشعرية المكتوبة بلغات قديمة في المنطقة العربية

الأمهات لأطفالهن عن مخيلة المدون كنوع من أنواع الشعر، حتى لو رآه بسيطا، ولا يمكن القبول بأن الغناء في الأعراس، كان مرتبطا بالقول العادي، لا بألوان من الشعر الصالح للغناء، وغيرها كتأملات الرعاة والهاربين من سطوة العبودية، والثائرين على قبائلهم، فمن ينتج القصيدة العمودية بفخامتها المعمارية تلك وبلاغاتها العالية، لا بد وأنه أنتج في فضاء الشعر أنماطا أخرى، تقاربها، أو تفارقها، لكنها تقع في فضاء الشعر، وتجوس وهاده التي لا تحد، ومن ينبش فيما بقي من أقوال الكهنة، سيجد مقطعات تحتمي بالتأمل والانسياب الشعري المفتعل، أي المسكون بالتفعيلة والأوزان الخارجة على البحور الستة عشر، أو الواقعة في نطاق الإيقاع الحر المنثور.

ففي شواهد ما وصلنا من الموروث الشعري العربي، هناك الكثير مما يمكن اصطياده كدالات على أن القصيدة ليست نمطا واحدا، ولا مبنى مسكونا بهذا الفقر الشكلي للبناء الشعري، (العامود). أما المعنى، فقد تنوعت المساحات التي انشغل بها

شعر العرب القديم، وهي نتاج طبيعي للبيئة العربية ومجتمعاتها.

فذاك الحارث بن حلزة مثلا، قال قصائد، يحتشد فيها الإقواء، وتبتعد عن استقامة التفعيلة، وتنتهك مسار الشطرين، وهو من الشعراء الكبار، وصاحب معلقة شهيرة. وثمة شعراء آنذاك، كانوا يجولون في براري مختلفة عما هو سائد، ومنهم من كان يتطلع للاختلاف، والتغيير في المبنى والمعنى السائدين للشعر، في المقابل، كان هناك شعراء، مهمتهم تقتضي الاستقرار داخل نمط بعينه، لفقر رؤاهم، ولضحالة تجاربهم ومحدوديتها، وهذا يحدث في كل الأزمنة.

(٨)

لا أحد من المغرقين في الانتماء للقصيدة العمودية، يريد الإدراك بأن الامتثال لهذا الشكل المستقر (العمود) آنذاك، هو فقر حقيقي للمخيلة الشعرية العربية، التي تنبي مساحات البحث فيما وصل منها إلينا، بأنها صاحبة تنوع ثري، يتجاوز الأشكال القارة، ويختلف عما نمطه به اللاحقون في العصور التالية.

ولا أحد من هؤلاء يريد أن يصدق بأن مثل هذا التنوع، ليس إرثا لما سبقه، بل هو اجتراحات، بنيت على ما سبق، وأضافت اليه، وأن العمود ليس مقدسا، فالبرية الشعرية أكبر من أن تحشر في شطرين، وأن تستقر في نمط محدد

ولا أحد يريد أن يمتثل إلى أن المنطقة العربية، لم تكن منطقة متوحدة اللغة والثقافة. فالتنوع كان ممثلا للعرب، ولبريتهم التي يتجولون فيها عبر الثقافات واللغات العديدة التي سكنت بلادهم أو عبرتها.

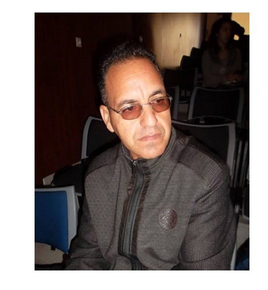
وقد أفصحت المدونات التي اكتشفها آثاريون عن فيض لافت من الشعرية المكتوبة بلغات قديمة في المنطقة العربية، استخدمت أشكالا لم تحتكم إلى هندسة الشطرين، ولم تقع في براثن الاستقرار داخل نمط بعينه، فالتراتيل الكنعانية مثلا، شاهد على هذا التنوع، وكذلك أشعار السومريين والبابليين والأدوميين وغيرهم ممن قطنوا البقاع العربية، وكان لهم إنتاج معرفي فيها، مثّل الشعر جزءا منه، وقدم في بوتقات تتعلق بالعبادات والمناسبات الاجتماعية والحروب، وغيرها مما يمكن للشعر أن يمنحه حضورا باذخا في تاريخ تلك المجموعات الحضارية.





الكتابة والتطريس... في الحاجة إلى الخيّام، في الحاجة إلى أم كلثوم





بقلم : الشريف آيت البشير

كاتب وباحث مغربي

بـ قدر ما كانت رباعيات الخيام تشعّ في نفوس المستقبليين والرواقيين والهيدونيين والممسوسين، بقدر ما كانت تشعّ في مستقبل القصيدة الكونية؛ ذلك أنه لم يكن أبدا في تكهّن الخيام بأن روحه الفارسية ستشعّ في روح إنجليزية موقّعة بالألم به نذر فيتزجرالد نفسه ابتغاء القصيدة، كحالة من المجاهدة لأجل أن يصير شاعرا حين ذهب إلى القصيدة كصانع وكحرفي؛ لأنه لم يكن له حظ في الفطرة ولا منها. هي أيضا حالة من الابتلاء جعلت الشعر ينحجب عنه، ينفلت ويهرب حتى كاد يقتله.. كما لم يكن في تكهنه أبدا أن يفجر أعمى الأرجنتين و»أميغوها» «أونطيته» من داخل هذا الريبيرتوار الذي اجترح السؤال في حيرة الذات أمام وجود فيه الإحساس بلغزية «السقطة»..

قصيدة «شطرنج»[1]، كإبدال دالّي انحفر في متخيّل الرباعيات ريبيرتوارا، تعد قصيدة الوجود، لأنها تختزل تاريخا من التأمل الفلسفي في الكون وفي الذات؛ وهي القصيدة ـ الدهشة، لأنها احتجاج على قدرية عمياء تختزل الحياة، وتقبض عليها في كمّاشة وقّعتها امتدادات الموت ولا نهائياته، غطرستها تأبّدت في ذاك الكاووس الأعمى، لم تكن قراراته إلا مشدودة من تقرّحات الجفن أعيته الإغماضة ـ اليوغا على الكفل.. وقّعته في فتنة الحركة عشتار، لتصدر الأنّة حارّة ـ مخنوقة من جلجامش كانت أنفاسه أو عضلاته سيان محتبسة في طبقات القاع الموصول بصهد ـ عتمة الهايديس.

بحس رواقي ملفّع بتمجيد الصمت، حيث ابتغاء الوحدة بعيدا عن عزلة العالم المشطور صغيرا وكبيرا، يفتتح بورخيس قصيدته (شطرنج)، متتبّعا حالة البهوت تلفّعت بشطحة الاحتمال ونسغ التكهّن للاعبي الشطرنج، حيث المدى في الرقعة اكتسح المكان ليبدو فسيحا أمام انزواء الجسدين، وكأن الاتساع في الطوبوغرافيا الممهورة بالوجدان لا تستسعف التأمّل إلا في الانغلاق، في الضمور والانزواء. الرقعة هي شرفة للنظر إلى المكان وإلى الزمان، للنظر إلى الموضوع في ارتداد عكسي على الذات. هي العتمة في المكان استحالت ضوءا في النفس تعلّم الذات بأنها مجبولة من ماء ابتغتها شفوف هيراقليطس نهرا، وفي الاقتدار الحكمي لحركة اليد على الرقعة يمتدّ الزمن المفتوح على اللانهائي في بذخ ترميز الفجر المشرئبّ أملا في الامتداد نحو امتلاء مؤبّد، امتلاء

> الرقعة هي شرفة للنظر إلى المكان وإلى الزمان، للنظر إلى الموضوع في ارتداد عكسي على الذات

لا يؤكده إلا فراغ الصالة ولا يرعاه إلا الصمت كان سيد المكان. وفي مكر قدرية الرقعة تسرب من ثنائية البياض والسواد قدريتهما أترعتها العزلة في إزاحة متقصّدة لحالة من الوحدة صادرت توق الذات إلى وجودها؛ فانذبحت على أعتاب تاريخ أرادته الثيولوجيا جبروتا لا يستقيم وجوده إلا بالمحق للنسمة ابتغت الحياة في الذرى كان قد احتمى بها النسر لمّا أراد «ماغريت» حركة البيض في التفقيس أن تكون «استهرابا».

وفي تداخل مكين للعناصر، مبني على العراك، أفقه كان إبادة في لعبة الحياة والموت، الوجود واللاوجود، الذكاء والغباء، التأمل في ظواهر الكون وإشاحة الوجه عنه لفائدة حالة من «الوقف» تكرّت في جبّة الحلاج للنفري؛ وقف رعاه تاريخ الميتافيزيقا شرقا، وصادره اللوغوس غربا.. حيث سحر الأشياء ولغزيتها حين يصعب تبديد غموضها؛ لأنه متطلب في سر الترميز المرجّأ لإطالة الالتذاذ حينا، وأخرى لحالة من «الكشف» لتتوحّد «الأسطقسات» في استعارة مدينة لمنطق المتشابه كانت قد رعته «المعانم» في تشكّل المختلف لا تأسيس المطابق، بغية توصيف «شكل اللعبة» أي الدال، لم يكترث بـ «شكل المعنى» اليالمسليفي، وإنما تفطّن لتراتبية البنيات، إذ في ترميزيته إضاءة لثنائية الرقعة، ودرء للموت الزاحف، للموت الماحق، وحده يكون التأمل متراس ردّه، وكأن مصدره هو ذاك الفراغ المهول بالصمت في الصالة، في حين الحتف يطلع من نسغ الفروق الدقيقة بين البياض والسواد، بين النهار والليل.. أي بين جغرافية الإمبراطورية في الداخل تارة، وأخرى في الخارج. «بينية» يؤكدها السور لدرء الموت ـ الفوبيا لدى الإمبراطور: شوانغ تسو.

ليست قصيدة «شطرنج» إلا بكائية على مصير الكتاب، أي العالم حين أراده مالارمي أن يكون له ملاذا: «وجد العالم لينتهي في كتاب». لعل رعب الذاكرة كان دافعا لإبادته في البعد الرمزي للفعل؛ في تاريخ الإمبراطورية الصينية وفي مكتبة الإسكندرية.. وربما في

١ـ خورخي لويس بورخيس: سداسيات بابل، مختارات نقلها إلى العربية: حسن ناصر. دار الكتاب الجديد المتحدة ٢٠١٣. ص٢٥٦ /٢٥٧ /٢٥٨



ليست قصيدة «شطرنج» إلا بكائية على مصير الكتاب، أي العالم حين أراده مالارمي أن يكون له ملاذا

غيرهما كحالة محنة العقل الرشدية كانت قد اغتالته شراسة «النقل» حين تنكّرت للباطوس، وجعلت كل الحضور القيامي لألسنة النيران كان قد أوقدها الغزالي وحفدته، حين «اندلعت شرارتها في الشرق»[٢] هو الفعل التدشين لحالات استتباعية من الحرق، في توقيع لقدرية عمياء مؤبّدة بطريقة لا تفسّر إلا باستعارة أبدية الحب، وكأنه إذعان لميتافيزيقا من أجل كينونتها العمياء ترعى القوة الطبيعية في غضبها أي في شهوتها؛ ذلك أن الحرق هو حالة:

مستمرة إلى الأبد

شأنها شأن لذة الحب (ص٢٥٧)

حالة غامضة لا تفسرها إلا «دموع إيروس»، علامة ينبثق فيها الموت من الحياة، ويذهب البطل، وهو موقن حتفه في استجداء زائف وواهم الانتصار؛ ذلك أنه في رعشة إيروس يكمن انذباحه، تماما كما نيل النصر رقعة نهاية اللعبة.. نهاية واهمة ما دامت موصولة بتأبيد العود، فيه امتداد زمن إحراق الكتاب دون أن ينتهي طقسه، فأثر ألسنة اللهب لا يسعفها الماء «فارماغونا». هو باق في الذاكرة، دخانه يخنق الأركان ويجفف المنابع..

تغمر قصيدة «شطرنج» روح ميتافيزيقية جارفة لا تعترف بالتعدد، فقط يكون تأملها موصولا بالثنائية اغتالت «الاخت (ئ) افية»[٣]، في اجتراح القصيدة حين أرادها هولدرلين أن تكون جسدا يشظّيه ذاك المنذور للسؤال حول «الكينونة والزمن». هو سفر بورخيس ارتعدت فرائصه من صقيع الوقت واحتمت بـ «خيّاميّة» استدقّت عباراتها في التأمّل واسترقّ فيها الإحساس تنكّرا لجبّة المغتال كان قد لبس الصّبّاحية[٤]، آوت الحشّاشين هناك في قلعة «ألموت»، حيث الطيور تسافر لتكشف عن سيمورغيتها[٥] في جعل الواحد كلا والكل واحدا في توصيف العطار أراده بورخيس أن يكون شاهدا على التداخل المكين في شجرة أنساب الأدب...

هو أيضا انتصار لاستعادة ترجمة الحيرة كان قد سكنها بورخيس، وترجمة الاحتجاج على الفظاعة في الاغتيال كان الحجام قد استبدلها بالحساسين «أناغراما»، حيث الانجرار أكثر إلى الرقة فجّرتها تغريبته العلالية[٦]، وقّعتها «السقسقات» في العرصات ضاع اليانسون في فضاءاتها. هنا مع بورخيس تشرئب الميتافيزيقا بعنقها من بين شفوف اللغة لتطلع ثنائيات ابتغت الزمن في الليل والنهار، كما ابتغت المكان ـ الرمز في الرقعة حيث البحث عن الغلب ـ القتال بين السواد والبياض، منه تنشأ حالة من الحتف المتراتب، كل طبقة مشدودة من هدب أخرى، في تناول مكين بين العيني والمفارق؛ أي بين القتل على مستوى الرقعة وعلى مستوى الواقع، الأول توقّعه يدا اللاعبين في امتثال مكين لسحر قواعد اللعبة، والثاني توقّعه يدا الزمن ضدهما. لذلك مفصل بورخيس الجزء الأول من قصيدته وجعله متعلقا بجملتين «تشعرنان» عالم اللعبة من جهة، والوجود من جهة أخرى. في «بنينة» حالة الانجراف بالنسبة لعناصر الرقعة تحكّمت فيها يدا اللاعبين، فيهما أيضا تحكّمت يد الزمن، كترميز لحالة الوجود عامة، حيث الزمن هو النهر الذي يجرفنا..

كل ذلك يتضح في ناجزية القول وفي تعبيرية:

سينسحب اللاعبان

سيلتهمهما الزمن (ص ٢٥٧)

فمن أين يأتي الموت إذن؟

حتما يأتي من داخل البنية؛ فالخلل في تعاطي قوانين اللعبة يفوّت الإحساس بألم الانتصار ما دام نهاية، وكأن الانتصار؛ أي «السعادة» بمثابة الموت. مقرا في مقابل ذلك بلذة الهزيمة ما دامت مشبعة بروح

٢- قصيدة (شطرنج) لبورخيس ضمن عمل حسن ناصر، ص٢٥٧، مرجع مذكور.

٣- نعتمد هنا المفهوم الدريدي بحسب ترجمة معهد الإنماء القومي في عملية استبدال ـ a ـ ب ـ e ـ

٤ـ نسبة إلى حسن بن الصباح صديق عمر الخيام والمغتال لصديقهما المشترك: نظام الملك.

٥- نسبة إلى سيمورغ فريد الدين العطار.

٦ـ نسبة إلى الشاعر المغربي الرائع: علال الحجام في ديوانه «في الساعة العاشقة مساء»، دار توبقال للنشر، ٢٠٠١

المستقبل، كانت نظرتها إلى الكون من كوة الأمل. كل هفوة؛ أي كل حالة من تعطيل الذكاء هي تحضير حقيقي لنهاية اللعبة أي لموتها، فـ «اللاعب أسير هفواته». والنهاية هنا لا تعني أبدا نهاية طقسيتها ما دامت مستمرة ومؤبّدة، كأنها لذة الجماع واستطالته في تأجيل الأورغازم. إنه الموت الذي يأتي من داخل اللعبة كما يأتي من داخل الإمبراطورية؛ فبناء السور كان وهما حين اعتقد شوانغ تسو في رده الموت. هي حكمة منذورة في مرجعيتها للخيام، كانت قد استقطرتها تجربته في الحياة والتأمل، حكمة تسافر في التواريخ وفي الجغرافيات، وتحتمي بالتجارب وتؤكد على مسألة العود الأبدي. عود يكتنف طقوس الكتابة في إعادة انبثاقها وتشكلها مرة ومرات. فعل يجعل حيوات من مروا وتجاربهم منقوعة في دم بورخيس، كان منصاعا لثقل الذاكرة كثقل الفراشة على الحجر أو على الجرس[٧].. من تجربة الإسكندر المقدوني إلى تجربة الإمبراطور الصيني مرورا بتجربة عمر الخيام وبتجربة الشاعر الإنجليزي فيتزجرالد والموصولة بتجربة بورخيس المأهولة عباراته بالدهشة والحيرة حتى الحسرة فالموت، جراء عنجهية وقّعتها «أيادي القدر كانت تسرق الحياة». إنها حالة من نقل «الأونطية» للخيام المسكونة بالحس الميتافيزيقي إلى آخر أكثر فجائعية بتوقيع السؤال المشبع بالحس المأساوي المستعيد لروح وجودية مكينة وموصولة بروح الهدم النتشوية، يقول بورخيس منهيا نصه:

لا تعرف أن اللاعب أسير هفواته

على أرض أخرى (هذه كلمات الخيام)

حيث تعقب الليالي السود نهارات بيض

يحرّك الله اللاعب، وهو بدوره قطعة،

لكن أي إله بعده ذلك الذي افتتح هذا الدست

من التراب والنوم والآلام (ص٢٥٨)

هي القصيدة الرحلة دوّخت «بلوم» في إيثاقه من حالة العزلة إلى الألم، رحلة من تأمّل الكون إلى تلفّعه وتلبّسه، ومن الإحساس بمبدأ الفاعلية فيه كوهم، إلى مبدأ المفعولية كحقيقة. رحلة من الإحساس بمتعة

> هي حكمة منذورة في مرجعيتها للخيام، كانت قد استقطرتها تجربته في الحياة والتأمل، حكمة تسافر في التواريخ وفي الجغرافيات، وتحتمي بالتجارب وتؤكد على مسألة العود الأبدي

الوجود ولذته إلى الانسحاق تحت سطوته. ومن تسيير دفّته إلى الانجرار والتدحرج إلى الهباء من عنف تيار النهر كان فعله يجرف في اتجاه الموت..

هكذا كان حضور الخيام في بورخيس مزدوجا؛ أعني حضور «الرباعيات» في «شطرنج». في الأول كان تضمينا فيه يطلع المضمًن كالهسيس في المضمّن عبر إبدال استعاري للسونيتات قامت على دفقة التأمل في الوجود، أمام اجتياح بركاني يحرق الشاعر من الداخل على أعتاب الميتافيزيقي المنذور فيه الإنسان للقدري.. هو الوعي بالوجود وصل إلى حدّ المرارة، ليكون أفق الذات مترعا على لحظات الهروب من قساوة المآل نثر سواده في الطريق، فكان الإنسان هو أتعس وأبأس مخلوق.. لم يملك الخيام المصرح به في القصيدة إلا اقتناص اللحظة بملء الالتذاذ، حيث فاتحته كانت خمرة مشتهاة تفتّق الحواس وتبوّئها هيدونيتها اللائقة والمستحقة. قول هو بمثابة الموقف الدال على الفطنة هو المبتدأ، في مطلع الرباعيات:

سمعت صوتا هاتفا في السحر

نادى من الحان: غفاة البشر

هبّوا املأوا كأس الطلى قبل أن

تفعم كأس العمر كفّ القدر

لم تكن تقنية التقديم والتأخير في الجملة الأخيرة ترفا، وإنما تعبير عن نزعة سيكولوجية فيها اطمئنان النفس للكأس واضطراب تّجاه القدر، معتبرا العمر وعاء

٧- نضمّن هنا التعبير المجنون لعنوان القصص المينيمالية لأنيس الرافعي: ثقل الفراشة فوق سطح الجرس، منشورات دار التوحيدي، ط٢: ٢٠٠٨

هكذا كان حضور الخيام في بورخيس مزدوجا؛ أعني حضور «الرباعيات» في «شطرنج»

قابلا للملء من منطلق احتمال مبدأ الفاعلية في تدبير الكون، أو من منطلق المفعولية حقّت في الذات الإبادة كان قد أنجزها القدر بجنائزية وقّعها تراجيدية بكفّه، حين تلبّسها حالة من السلطة تضرب بعنف لمصادرة الحياة، وتحصد الرقاب لتنثر في الأفق كل أشكال الموت كما تتناثر السنبلات من قبضة الحصاد في «صادية» المنجل. فعل له موازاته الفجائعية في نفس الشاعر المسترقّة كانت باقة الورد تحكي في القطف عن الموت بين كل إغفاءة وإفاقة.. إفاقة ضرورية مع الخيام ما دام «النوم صنو الردى». مما جعله يراكم الدعوة في صيغة الأمر تتشوّف نزعة «ريلكيه»: «كل حياة جديرة بأن تعاش»، دلالة ثاوية في صيغة الفعل المكرور: هات اسقنيها، اغنم، هات، اطرب، صغ.. أوامر مستسعفة في الحضور لمختلف التلقيات بما فيها الذات الشاعرة حين تغيّت ثالوث البهجة في الكأس والنغم والجمال في حضرة النديم..

وحدها حنجرة «الست» تقدر على ترجمة جموح الرغبة في الامتلاء، سالت عليها شغاف روح أحمد رامي حين اشتعلت بمثيلتها استصداء وتناصّا، فانهرقت نوطات وقّعتها أصابع العازفين، وانهمرت في المكان كأنها الرُّطب جادت بها شفتا أم كلثوم.. فيا أيتها الجليلة، وأنت في يقظتك الأبدية هناك، اصدحي أكثر فنحن اليوم، وفي هذا الليل العربي البهيم، في أمسّ الحاجة إلى تلك النزعة المفعمة بالحياة ضد كل خفافيش الظلام كانوا شرور الدهر ونوائبه..




صدر حديثا


محمد يوسف إدريس
الغفران
في الأديان الكتابية
المركز الثقافي العربي
مؤمنون بلا حدود



الخبير التربوي الأردني حسني عايش لمجلة «ذوات»:
الإسلامويون ألدّ أعداء الفلسفة والتفكير الناقد

حاوره: موسى برهومة
(كاتب وإعلامي أردني)

ينتقد الخبير التربوي الأردني حسني عايش أوضاع المناهج التدريسية العربية، ويرى أنها تخلو من أساليب التفكير النقدي والتحليلي. كما أنه يشكو من خلو تلك المناهج من المعارف الفلسفية ومن علوم المنطق.

ويرى عايش في حوار مع مجلة «ذوات» أن السلفيين الإسلاميين والإسلامويين هم «ألد أعداء الفلسفة والتفكير الناقد: تعليماً وتعلّماً وثقافة، لأنهم لا يعترفون سوى بالحقيقة الواحدة أو المطلقة التي يملكون، فإذا أردت أن تتفلسف أو تعلم الفلسفة أو تعليمها فليكن ضمن هذا الإطار فقط».

وينبّه عايش إلى أن التفكير النقدي عند هؤلاء المتزمتين «عورة توجب قطع الرؤوس التي تفكر»، مستدركاً أن ذلك لا يعني «الاعتراض على تعليم الدين في المدرسة أو على الفلسفة الدينية فيها، بل على طريقة أو أسلوب هذا التعليم، وعدم تعليم بقية الأديان في المجتمع لأهلها، وغياب الثقافة الدينية من المناهج المدرسية».

وعايش من مواليد العام ١٩٣٣ في بلدة كفر اللبد بطولكرم في فلسطين المحتلة، شغل مواقع متقدمة في إدارة التربية والتخطيط في الأردن. كما كان عميداً لكلية تدريب عمان، وكلية مجتمع السلط، فضلاً عن عضويته في مجلس الأعيان الأردني.

ولعايش مساهمات وفيرة في الصحافة الأردنية، كما أصدر عدداً من الكتب من بينها «سياحة في العقل العربي»، و«خرج ولم يعد»، و«تطريس في مئة قول وقول»، و«البقاء في عالم متغير»، و«أمريكا الإسرائيلية وإسرائيل الأمريكية».

*** أنت من الباحثين الذين يعتقدون أن الفلسفة هي خير وسيلة لتنمية التفكير النقدي، ومحاربة التزمت بسائر أشكاله، فلماذا يجب تعليم الفلسفة وتعلّمها؟**

بما أن حب الاستطلاع غريزة أو فطرة في الإنسان، والفضول والاندهاش أو الدهشة الطاقة التي تحركه عند كل غامض، فإن كل إنسان متفلسفٌ أو فيلسوف بطبعه. وبما أن الإنسان مدني بالطبع، أي يعيش في هرم مقلوب من المجتمعات، في كون يزداد غموضاً كلما ازداد الإنسان معرفةً له، فإنه بحاجة ماسة إلى معرفة علاقته بالمجتمع، ومركزه في هذا الكون، وإلا فإنه لن يختلف عن الجماد أو الحيوان الأعجم. إنه عندئذ يفقد كرامته بجهله وبتخليه عن فهمها.

ولكن دهشة الطفل الفيلسوف سرعان ما تخبو أو تنطفئ شعلتها بإهمال الراشدين من حوله للإجابة عن أسئلته، أو بتأنيبه عليها أو بعقابه إذا كانت كبيرة، تتعلق بالخالق أو بالوجود... وإنك ترى الطفل قبل المدرسة شعلة من الدهشة والأسئلة، لتراه بعد التحاقه بالمدرسة وسنةً بعد أخرى، يتبلد أو يفرم ويطحن في ماكينتها، وكأنه لا علاقة له بمن حوله من ناس وما حوله من مشكلات وأحداث. إنه يفقد عقله الفلسفي بالتدريج بسبب طبيعة التعليم وأساليبه في المدرسة القائم على التلقين والأجوبة الجاهزة والحفظ والاسترجاع (أي قيء الأجوبة المقررة في الامتحان) والمناخ المدرسي المعادي للتفكير الناقد أو التفلسف، لأنه مزعج للمعلم والمعلمة والإدارة كذلك. إنه التعليم المفرّغ من الحماسة والخيال والاشتعال، فلا يندهش من الجديد أو الغريب أو المفاجئ ولا يقف عند المألوف ليحاكمه كما يفعل الفلاسفة.

إن المجتمع والدولة يخسران كثيرًا بغياب تعلّم الفلسفة العامة (التعددية) وتعليمها في المدرسة والجامعةـ مع أن للطفل والتلميذ والطالب الحق والحاجة والميل للتفكير فلسفياً كما يقول ريتشارد بول.

> إن المجتمع والدولة يخسران كثيراَ بغياب تعلـّم الفلسفة العامة (التعددية) وتعليمها في المدرسة والجامعة

*** ولكن ماذا تتوخى من وراء تعليم الفلسفة وتعلّمها. وإلى أي مدى تعتقد أن الفلسفة قادرة على توجيه تفكير الإنسان وضبطه علمياً؟**

هدف الفلسفة فحص الحياة ومحاولة فهم العالم أو الكون ككل، ولكن بصورة بناءة وناقدة معاً. لقد كان سقراط يقول: «الحياة التي لا تُفحص أو تُختبر ليست جديرة بالعيش»، وأيها الإنسان: اعرف نفسك.

تحاول الفلسفة بوظيفتها الناقدة فحص الفرضيات والأفكار للاستيضاح والفهم، أي أنها تبدأ بالشك لتصل إلى الحقيقة أو قد لا تصلها على الإطلاق. وتقع نظريات أو مشكلات المعرفة والقيم والمنطق ضمن هذا المفهوم الفلسفي، وهو أمر لا يسمح به السلفيون؛ لأنهم يعتقدون بقوة أنهم يملكون جميع الأجوبة، فيكفّرون من يقول أو يأتي بغيرها ويبيحون دمه.

إن الفلسفة نظام (discipline) يقيّم كل ادعاء معرفي، ليوضحه أو لينتقده أو ليرفضه، أو ليقترح طرقاً أفضل لفهمه. ومع أن الفلسفة أصبحت اليوم بحق نظاماً شديد التخصص والتقنية، إلا أنها مع ذلك تظل محاولة إنسانية عنيدة للتفكير بوضوح واتساق، كما يقول وليم جيمس.

وإلى حين انطلاق الثورة العلمية الحديثة لم يكن هناك اتفاق حول أو تفريق بين ما هو علمي وما هو غير علمي، أو بين ما هو فلسفي وما هو ليس بفلسفي. أي لم يكن هناك – حتى عهد إسحاق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧م) اتفاق على طريق تسوية النزاعات بين الفلاسفة والعلماء حول الأحداث الطبيعية أو على أسبابها. كان يسمى العلم آنذاك: «الفلسفة الطبيعية».

لقد استقلّت اليوم العلوم بطرقها المحددة للإجابة عن أسئلة كانت فيما مضى مواضيع للتأمل، عن الفلسفة. وبكلمات أخرى: صارت العلوم تدرس الأسئلة التي لها

أجوبة محددة، أو طرقاً متفقاً عليها للحصول على هذه الأجوبة، أي تدرس الأسئلة العلمية.

أما الأسئلة الأخرى، مثل طبيعة المعرفة أو العقول الأخرى، أو ما ينبغي وما لا ينبغي على الناس سلوكه أو الخير والجمال والحق... فقد تُركت للفلسفة. إنها أسئلة لا توجد أجوبة جاهزة عنها، أو في طريق التوصل إليها. إنها أسئلة مفتوحة دائماً، إما لأنها أسئلة يجب ترك أجوبتها للآلهة كما يقول أفلاطون، أو أسئلة تتضمن أسئلة أخرى عن اللغة - مثلاً - كما يقول نعوم تشومسكي، أو أسئلة محيرة لا تنتهي مناقشتها، حتى لقد قال الفيلسوف روبرت زند: «كوني فيلسوفاً فإن لي مشكلة مع كل حل أو جواب». أما الفيلسوف برتراند رسل، فقد قال: «إن العلم هو ما تعرف، وإن الفلسفة هي ما لا تعرف». ومن جهة، فإنني أقول: إنها التفكير الناقد أيضاً.

التناقض مع الواقع، فالطفل لا يتكلم فقط، بل يقوم بأفعال أيضاً. وعندما ينغمس في الواقع، فإنه سرعان ما يجد تناقضاً بينه وبين ما تعلمه في المدرسة (والجامعة) قد لا يستطيع تسويته بالمخزون التعليمي الذي لديه، فيصبح هذا المخزون مصدراً للألم، أو الإحباط، أو الكبت، أو الخوف، أو القلق، أو أحلام اليقظة. وقد يدفعه إلى التمويه أو التمرد الأعمى على المجتمع والدولة، بعد أن جعلته المدرسة (والجامعة) سهل الانقياد، نتيجة هيمنة التعليم بالتلقين، الذي يجعل المتعلم أسيراً للمعاني والأفكار الجاهزة التي لم يقرر هو تأثيرها على تفكيره وفعله. وبذلك يخضع العقل لشكلين من الفلسفة (إذا اعتبرنا هذا التعليم شكلاً من الفلسفة) يلتقيان ظاهرياً وينفصلان فعلياً، بمعنى أن واحدة منهما كلامية تلقينية غير معاشة، وأخرى فعلية معاشة ولكنها صامتة لا تتكلم.

تعلّم المنطق والفلسفة ونظريات المعرفة ضروري جداً من أجل تنشئة جيل يتمتع بعقل نقدي تحليلي

*** وهل يعني التفكير الناقد تعلّم المنطق أيضاً إلى جانب الفلسفة ونظريات المعرفة، ولماذا تصبغ على ذلك صفة الضرورة؟**

أعتقد أن تعلّم المنطق والفلسفة ونظريات المعرفة ضروري جداً من أجل تنشئة جيل يتمتع بعقل نقدي تحليلي. وأرى أن هذه الضرورة لها موجبات عديدة، منها:

النزعة الفطرية أو الميل الطبيعي عند الطفل لمعرفة جواب سؤال: ماذا؟ ولماذا؟ المتعلقين بكل شيء. يبدو أنه لا الأسرة ولا المدرسة اليوم تهتمان بإتاحة المجال للطفل لمعرفة الجواب، ومناقشته معه فيه، مفضلين بذل الجهد الأقل واتباع الطريقة الأسهل، وهو تقديم الأجوبة الجاهزة أو الواردة في الكتاب المقرر أو المتداولة في المجتمع فتقتلان النزعة أو الميل ولا تنميانها. النتيجة هي: تربية الخضوع للإملاء وجعل المتعلّم مطية للأهواء، مع أن فتح المجال للطفل قد يزود المجتمع والدولة والعالم بفلاسفة كبار في مختلف الميادين.

الانفصام، وهو نتيجة ضمنية لهذا التناقض، الذي قد يستمر في الكبر على المستوى العاطفي المشحون بالقلق والضيق، وعلى المستوى الأخلاقي بالتظاهر الكاذب بالفضائل، وخداع الذات بالمعتقدات الناجمين عن التعليم المدرسي الذي يتجاهل المواقف الحياتية الفعلية. وهي محنة قلَّما يفكر المعلمون والمعلمات فيها، فالمدرسة منفصلة عما حولها؛ أي لا توجد صلة بينها وبين المجتمع من حولها، والأطفال - في نظرهم - لا يحتاجون إلى ممارسة التأمل العميق في المعاني المتضاربة والوسائل المزدوجة التي يتعلمون.

تفكير الطفل لنفسه حاجة وحق من حقوقه الأساسية: تتصرف المدارس العربية بشكل عام أو المعلمون والمعلمات كما لو أنه ليس للمتعلمين حاجة أو حق للتفكير بأنفسهم، فالمدرسة أو المعلمون والمعلمات يفكرون لهم أو نيابة عنهم، لأن المتعلمين ليس لديهم – في نظرهم – قابلية أو قدرة على المشاركة في تشكيل عقولهم وسلوكهم.



التفكير الفلسفي ضروري للحرية والديموقراطية: حرية التفكير وحرية الفعل المسؤول، فحرية التفكير وحرية الفعل (الاختيار) جيدان في حد ذاتهما، ومتطلبان أساسيان من متطلبات الديموقراطية، ويجب إعطاء مكانة رفيعة لهما في المدرسة، وإلا فكيف سيصبح هؤلاء المتعلمون حكاماً ومحكومين جيدين حسب ما تقتضيه الديموقراطية إذا لم يستطيعوا التفكير الناقد أو بأنفسهم في قضايا مهمة مدنياً أو وطنياً أو سياسياً... إذا لم تعلمهم المدرسة التفكير المستقل أو المسؤول أو المبدع والخلاق، فلماذا يمارسونه بعد تخريجهم؟ إن الأطفال قادرون على هذا النوع من التفكير إذا أعطوا الفرصة ليمارسوه وفي ظروف مؤاتية له ومناخ مشجع عليه، وإلا ماتت دوافعهم الفلسفية نحو سؤالي: ماذا؟ ولماذا؟ لكن ماذا بمقدرتنا أن نفعل حتى نغير نظريات التعلّم والتعليم وسلوك المدرسة والمعلمين والمعلمات الإملائي؟

هناك من تعليم الفلسفة (بما في ذلك نظريات المعرفة والمنطق) مدرستان أو نظريتان: واحدة تقول بتعليمها كموضوع مستقل، مثل بقية المواد كما ينحو المعهد المطالب بتعليم الفلسفة للأطفال في أمريكا

Institute for The Advancement of Philosophy For) Children)، وأخرى ترى أن من الأفضل تعليمها من خلال جميع المواد المدرسية مثلما ينحو مركز التفكير الناقد: (Center For Critical Thinking and moral Critique).

ومن جهتي، فإن الأفضل منهما هو الأخذ بالمدرستين معاً وفي الوقت نفسه، فحسب المدرسة أو النظرية الأولى يرى المتعلم الفلسفة كمنهج أو ككل، وحسب المدرسة أو النظرية الثانية يراها، وهي تعمل في بقية المواد.

بإمكان الدين أن يقوم بدور تعصبي، وبإمكانه أن يقضي على التعصب

إنقاذ المتعلمين المتفلسفين من العقاب والسخرية والتنمّر، وذلك بتعريف المدرسة أو المعلمين والمعلمات بأهمية التفكير المستقل أو الحرّ، فإلى اليوم تعاقب المدرسة أو المعلمون والمعلمات الجهلة بأهمية الفلسفة الأطفالَ أو التلاميذ والتلميذات إذا بدر منهم مثل هذا التفكير، ويسخرون من أصحابه أمام أقرانهم، ويجعلونهم يشعرون بالخجل منه وعدم العودة إليه، وذلك تمشّياً مع المعروف والدارج بين الناس الذين يعاقبون أو يرفضون التفكير الناقد، ويكافئون التفكير التقليدي أو النمطي أو الغيبي، مما يمنع التفكير بحرية وعمق واستقلال وإبداع.

تحسين أداء الأطفال أو التلاميذ والتلميذات في بقية المواد المدرسية: بتعليم الفلسفة في المدرسة (والجامعة) يتحسن أداء الأطفال أو التلاميذ والتلميذات في جميع المواد الدراسية نتيجة انتقال مهارات التفكير الفلسفي أو الناقد إليها. لقد أجرت مؤسسة (ETS: Educational Testing Service) تجربة استمرت سنة، كشفت عن تحسّن أداء الأطفال أو التلاميذ في القراءة، والرياضيات وبقية المواد التي خضعت للدراسة.

إن غياب الفلسفة (بما في ذلك نظريات المعرفة والمنطق) من المدرسة (والجامعة) يعني تكوين بني آدم متعصبين وغير متسامحين مع وجهات النظر الأخرى. كما يعني إنتاج بشر لا يؤمنون بتعددية الحقيقة؛ أي ذوي بعد واحد، وهو البعد السلفي الإرهابي الذي تغذيه المناهج المدرسية والجامعية الآن. إن غياب تعليم الفلسفة في المدرسة (والجامعة) يعني حضور الفتنة في اللحظة التي يقع فيها حادث يستفز هؤلاء. إنهم وقود الحرب الأهلية أو الطائفية أو المذهبية... بانتظار شرارة. والمشكلة أن السياسيين أو المسؤولين وجمهرة المثقفين يعرفون ذلك، ولكنهم يتجاهلونه أو ينافقون لهم ويتشاكلون معهم خوفاً منهم أو لاكتساب الشعبية منهم، غير متعلمين أو معتبرين مما يجري حولهم من حروب طائفية ومذهبية وأهلية.

*** وهل تعتقد أن تعلّم الدين في حد ذاته أمر يتناقض مع التفكير الفلسفي والتحليلي، أم أن المعضلة تكمن في كيفية تعليم الدين؟**

إن للدين دوراً فيه تناقض ظاهري، كما يقول جوردن دبليو أولبورت في كتابه (The Nature of Prejudice)، إذ يرى أن «بإمكان الدين أن يقوم بدور تعصبي، وبإمكانه أن يقضي على التعصب». ويضيف: «بينما نجد عقائد الأديان العظمى عالمية تؤكد قيم الأخوة، إلا أن الممارسات - إجمالاً - تقسيمية ووحشية؛ فالمثاليات السامية للأديان تتحول إلى رعب أو إلى إرهاب بالاضطهاد بإسم هذه المثاليات نفسها». إنها إذن، الطريقة التي نرى بها الدين أو نستخدمه أو نتعَلمه أو نعلـِّمه. وتلكم هي المسألة أو المشكلة.

ولهذا، فإن التعليم الديني في بلاد المسلمين يكون منفتحاً على العالم بأديانه وأقوامه عندما يفهمون دينهم بالشكل الثاني، إذ لو فكروا ملياً في قوله تعالى: «وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ» (سورة الأنعام: الآية: ٦)

لم أقل أن ذلك يكفي أبداً. أنا أدعو، حتى تكون الصورة أوضح وأشد جلاءً، إلى تعليم التفكير الناقد. إن تعليم التفكير الناقد للتلاميذ هو وسيلة متينة، كما إنها ضرورية، لبلوغ الكمال الأخلاقي والمواطنة المسؤولة. ولتوضيح هذه النقطة بشكل لا لبس فيه، يقول ريتشارد بول: إنه يمكن أن تستخدم المهارات العقلية الكبرى لفعل الخير، مثلما يمكن أن تستخدم لفعل الشر، أو للدعاية، أو للكسب الأناني الرخيص، أو لخدمة الصالح العام. أما المهارات العقلية الصغرى، فلا تكفي بحد ذاتها لبلوغ الإنصاف العقلي. كما أنه يمكن لأشخاص متعصبين أو متحاملين استخدامها بسهولة. ولن يصبح التلاميذ والطلبة منصفين أو عادلين - بالمعنى الأخلاقي- تجاه وجهات النظر الأخرى، ما لم يعطوا تعيينات تتحدى تفكيرهم وتجبرهم على التقمص العقلي لوجهات النظر المخالفة لوجهات نظرهم. كما لن يتحولوا -أوتوماتيكياً - إلى خدمة الصالح العام في القضايا الكبيرة

> الشخص المتواضع معرفياً هو كل من لديه وعي بحدود ما يعرف، وكذلك بنسبية وجهة نظره

وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (سورة القيامة: الآية: ٢٢) وقوله تعالى: «ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر وفضلناهم على كثير مما خلقنا» (سورة الإسراء: الآية: ٧٠) لأدركوا أن الإنسان حر في اعتناقه أي دين يريد، وأن لا سلطة دنيوية لأحد عليه، وأن الله كرّم البشر جميعاً غير مفرّق بين أسود وأبيض وأحمر وأصفر، ورجل وامرأة، ومسيحي ويهودي وبوذي وهندوسي... وأنه عندئذٍ لا يجوز المس بأحد منهم أو بدينه أو برأيه... إلا في حالة الدفاع الإجباري عن النفس. لكن هل تفهم ذلك «القاعدة» و«داعش» و«جبهة النصرة»، و«أنصار بيت المقدس»، و«كتائب الفرقان»؟

*** ولكن هل هذا يكفي؛ بمعنى هل تعليم الدين فقط قادر على إنتاج جيل ممتلىء نفسياً وروحياً وعقلياً. وما هو السبيل لعقلنة مناهج التدريس، وحقنها بأمصال الفكر النقدي التحليلي؟**

التي يطلب منهم أن يتخذوا فيها موقفاً بوصفهم مواطنين دون ذلك.

ليس التفكير الناقد مجرد مهارات معرفية، وليس الكمال الأخلاقي والمواطنة المسؤولة - بدورهما - مجرد طيبة قلب أو نوايا حسنة. هناك أناس طيبون كثيرون غير قادرين على الرؤية والنقد، بسبب التلاعب الدعائي والإعلامي في المعلومات والأفكار، فيسقطون ضحايا للنزعة القوية للعقل الإنساني للانغماس في الخداع الذاتي، وبخاصة عندما تكون مصالح المرء الأنانية ورغباته الخاصة موضوع رهان أو تساؤل أو تشكيك. إن من الممكن أن يكون المرء طيب القلب، وأنانياً معاً في الوقت نفسه.

*** أنت ممن يعتقدون أن التفكير الناقد يمكن أن يعلم التلاميذ في المدارس والطلبة في الجامعات القيم الأخلاقية والمدنية وتعميق مفاهيم المواطنة، ونشدان الكمال السلوكي والروحي؛ فما السبيل إذن إلى تحقيق ذلك؟**

الفضائل المعرفية، والأخلاقية، أو الرذائل المعرفية والأخلاقية مترابطة تمام الترابط. فوفق ريتشارد بول، إذا كنا نرغب في استثمار ذلك النوع من الاستقلال العقلي المتضمَن في التفكير الناقد القوي، فإنه يجب علينا أن نعترف بالحاجة إلى تعزيز الفضائل العقلية والأخلاقية المنبثقة من ذاك النمط من التفكير والوجود وهي:

١- فضيلة التواضع المعرفي:

الشخص المتواضع معرفياً هو كل من لديه وعي بحدود ما يعرف، وكذلك بنسبية وجهة نظره، بما في ذلك إدراكه المرهف للظروف التي يمكن لأنانيته، أو انحيازاته أو تعصبه، أن تخدعه فيها.

تقوم فضيلة التواضع المعرفي هذه على الاعتراف بواجب المرء بعدم الادعاء، بأكثر مما يعرف بالفعل. إن ذلك لا يعني- طبعاً- الضعف، أو الإذعان، بل يعني غياب التظاهر المعرفي، والمباهاة، والغرور، جنباً إلى جنب حضور رؤيته للأسس المنطقية أو لغيابها، من معتقداته.

إن تكوين فضيلة التواضع المعرفي هدف من أهداف تعليم التفكير الناقد، كما أن تكوين فضائل الشجاعة العقلية أو المعرفية والكمال الأخلاقي، والتقمص العقلي، والمثابرة العقلية، والإنصاف العقلي، والإيمان بالعقل، ضرورية أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك أقول: إنه لا يمكن أن يتم إغناء أية فضيلة عقلية، أو أخلاقية، بمعزل عن الأخرى.

٢- الشجاعة العقلية (المعرفية):

وهي وعي المرء بالحاجة إلى التعامل العادل مع الأفكار والمعتقدات ووجهات النظر التي يكن لها المشاعر السلبية، أو التي لم يصغ جدياً إليها. وتقوم هذه الشجاعة على الاعتراف بأنه يمكن تبرير هذه الأفكار أو المعتقدات، أو وجهات النظر التي ظنها أو اعتبرها خاطئة، أو منافية للعقل، أو سخيفة، أو مضحكة عقلياً، كلياً أو جزئياً. وأن الأفكار، والمعتقدات، ووجهات النظر المنطبعة، أو المتجذرة في أذهاننا، يمكن أن تكون أحياناً زائفة أو مضللة. وأنه إذا كان علينا أن نقرر لأنفسنا، فإنه يجب علينا كذلك أن لا نسلم بصحة ما تعلمناه، ونشأنا عليه من دون نقد أو محاكمة عقلية. وعندئذ تصبح الشجاعة العقلية لازمة أو مطلوبة، لأننا سنجد - حتماً - بعض الصحة في بعض الأفكار التي كنا نظن- أو كنا نعتبرها - خاطئة أو سخيفة... إلخ، وبعض التحريف، أو التشويه، أو الزيف في بعض الأفكار التي نؤمن بقوة بصحتها وسلامتها.

وكما ترون، يحتاج القيام بهذه المحاولة العقلية إلى شجاعة كبيرة منا، لنكون صادقين مع أنفسنا ومع تفكيرنا ومع غيرنا، وإلا كانت النتائج قاسية جداً علينا، وكنا – من دون هذه الشجاعة - غير ديمقراطيين أبداً، وإن كانت دعوتنا إلى الديمقراطية قوية أو تظاهرنا بالتمسك الشديد بها.

> بغياب التفكير الناقد وفضائله من التعليم والتعلم يمكن أن نفسر ما يجري في العالم من عنف وإرهاب وموت

٣- فضيلة التقمص العقلي:

وهو وعي المرء الحاجة إلى وضع نفسه في أمكنة الآخرين، وظروفهم، كي يفهم وجهات نظرهم ومواقفهم بصدق وأمانة. وذلك يتطلب منه وعياً لنزعته الفردية، أو لأنانيته، لمماثلة الحقيقة بإدراكاته الفورية، أو بمعتقداته، وأفكاره الطويلة الأمد. وترتبط هذه الفضيلة بالقدرة على إعادة بناء وجهات نظر الآخرين، وتفكيرهم بدقة، وبالمحاكمة العقلية: من مقدمات، وفرضيات، وأفكار غير تلك التي لديه. كما ترتبط بالرغبة المخلصة الصادقة بتذكر المناسبات التي كان فيها مخطئاً، على الرغم من إيمانه الراسخ - حينئذ- بأنه كان فيها مصيباً. كما ترتبط بالقدرة على التخيل بأنه كان مخدوعاً بالنسبة إلى الحالة التي بين يديه.

٤- فضيلة التكامل والكمال:

وهي اعتراف المرء بالحاجة إلى أن يكون صادقاً مع تفكيره، ومنسجماً مع المعايير العقلية التي يطبقها على غيره، وبأنه يخضع تفكيره للمعايير والأدلة، والبراهين القاسية نفسها، التي يطبقها على خصومه، أو يطلبها منهم، ويمارس ما يطالب الناس به، وبالاعتراف - بأمانة - بالتعارض والتضارب، وعدم الاتساق في فكره وسلوكه.

٥- فضيلة المثابرة العقلية:

وهي إرادة المرء ووعيه للحاجة إلى الاهتداء بالحقيقة أو معرفتها، وبكل بصيرة عقلية، على الرغم من جميع الصعوبات والعقبات والإحباطات التي تواجهه على الطريق، وللخضوع القوي للمبادئ العقلانية مهما كانت المعارضة اللاعقلانية للآخرين شديدة، والإحساس بالحاجة إلى منازلة الاضطراب، والأسئلة غير المستقرة لمدة تطول أو تقصر، للوصول إلى فهم أعمق لها، أو لتكوين بصيرة فيها.

٦- فضيلة الإيمان بالعقل:

وتعني ثقة المرء الكاملة بالعقل، وبأنه في المدى الطويل يمكن خدمة مصالحنا العليا به، وكذلك مصالح البشرية جمعاء عن طريق توسيع مضطرد لدوره، وعن طريق تشجيع الناس للوصول إلى استنتاجاتهم من خلال تطوير قدراتهم العقلية للتفكير لأنفسهم بأنفسهم، وتكوين وجهات نظر عقلانية، والتوصل إلى استنتاجات معقولة، وتفكير مترابط أو منطقي، وإقناع بعضهم بعضاً بالحكمة، وبحيث يصبحون أناساً معقولين، على الرغم من كل العقبات الدفينة في السلوك الأولي للعقل الإنساني والمجتمع كما نعرفهما.

٧- فضيلة الإنصاف العقلي (أو اللا - تطفيف):

ويعني وعي المرء بالحاجة والرغبة الأكيدة بمعاملة جميع وجهات النظر بصورة متساوية، من دون الاحتكام إلى المشاعر الذاتية، أو المصالح الأنانية، أو مشاعر الأصدقاء، أو الأمة، أو المجتمع، أو مصالحهم. والاحتكام التام إلى المعايير العقلية من دون إخضاعها للمنفعة الذاتية أو للجماعة الخاصة به، وإلا كان من المطففين (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون(١-٣/٨٣)).

وبغياب التفكير الناقد وفضائله من التعليم والتعلم يمكن أن نفسر ما يجري في العالم من عنف وإرهاب وموت، وما يعانيه من فقر وظلم ناتج عن فشل الأسرة والمدرسة والجامعة في العالم المتخلف في تكوين أناس يفكرون نقدياً، فأن تكون مفكراً ناقداً يعني أن لا تسلم عقلك لغيرك وإعطاء وعد لنفسك بألا تكون ضحية سهلة لصائدي العقول وغاسليها.



حُزامة حبايب.. ساردة تعري البؤس البشري والتهميش

بقلم : عمر شبانة
كاتب وشاعر من الأردن

كان آخر اللقاءات، وأحدثها، مع حُزامة، متعدّدة الوجوه والصّفات، كما ستبدو في «تشخيصي» لها، في بدايات خريف ٢٠١٥، حين كانت تستعدّ لأن تسلّم للناشر، بل لناشرين معا (المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، ودار «كل شيء» في حيفا)، مخطوط روايتها الجديدة «مُخْمَل».

كانت متوترة كعادتها حين تنتهي من عمل جديد، وتقرر له الخروج إلى النور، وجاءت لقاءاتي هذه معها، «وجها لوجه»، بعد اتصالات دائمة عبر الإيميل، وتكتُّم من طرَفها- كالعادة أيضًا- على مشروعها الذي أشعر بنبضه في توتّراتها حينا وحميميّتها المتدفقة حينا. هكذا التقينا في أوائل الخريف، وعلى مدى يومين، وساعات طويلة، وحاشدة بعناوين ومراحل ومحطات من الذكريات والآمال العريضة المحبطة (بفتح الباء وكسرها)، في أحسن الأحوال.

عالم حزامة العجائبي

من هذا المدخل، أجدني أتهيّأ، ومتهيّبا ربّما، للدخول إلى عالم حزامة «الغرائبيّ» حدّ الفجيعة، عالم الفلسطينيّ/ة المحتشد بالتناقضات حدّ السّرياليّة الموجعة (بفتح الجيم وكسرها). أدخل لأفصّل القول في فصول متداخلة تتشكّل منها حياة حزامة التي هي إبداعُها في الآن ذاته. فهي الكاتبة التي تحمل اسمًا وُلِد معها من خطأ لغوي، حيث أرادت أمها أن تسمّيها «حذام»، تيمّنًا بزرقاء اليمامة، لكنّهم سجّلوه حزام حسب اللفظ الشامي للذّال، وأضافوا إليه التاء المربوطة، والمولودة في الكويت عام ١٩٦٥، ومن جامعتها حصلت على بكالوريس في اللغة الإنجليزية وآدابها عام ١٩٩٠.

نبدأ من هنا، من بيتها وأسرتها الكبيرة، الوالد والوالدة والأشقاء والشقيقات، ثمّ أسرتها الصغيرة مع زوجها الذي تصر على أن تناديه «حليمو»، حتى بعد مرور أكثر من ربع قرن على لقائها وزواجها من صديقنا الإعلاميّ والمترجم الفذّ عبد الحليم حزيّن (وهو بالمناسبة شقيق الإعلاميّ والباحث والمترجم المتميز الراحل صلاح حزيّن، الذي عرفناه بترجمته لرواية جوزيف كونراد «قلب الظلام»، وللروائي هوراس ماكوي في روايته الشهيرة «إنهم يقتلون الجياد أليس كذلك؟»، وكان وقتها، في السبعينيات، يحمل اسم «نوح حزين»)، فضلا عن ابنَيها سارة وناجي.

ومن هذا المدخل الإنسانيّ، الاجتماعي، يجري التوصّل بعالم ثقافيّ إبداعي له السّمات نفسها، من الغرابة والاختلاف، بدءا من أساسيّات الانتماء، وصولا إلى الهويّة ومآلاتها، هويّة فلسطين كما تظهر في «يوميّاتها»، حياةً وإبداعا، الأمر الذي يتطلب قدرا من الفصل بين المكوّنات، وفكّ الاشتباك والتداخل بينها، ما يسمح بإضاءة كل جانب منها على نحو معقول للتعريف به؛ فمن حيث النظرة الإجماليّة، تمثّل التجربة الإبداعية السّرديّة، القصصية والروائية، للكاتبة «الفلسطينيّة» حُزامة حبايب، نمطًا يمكن اعتباره، وبلا أيّ تحفُّظ، فريدًا في الساحتين الفلسطينية والعربية، لجهة الترابط الشديد والعميق بين الإبداع والحياة، بين إبداع حزامة وحياتها، بين ما تعيشه وما تكتبه، وكأنّ كتابتها مرآة لروحها، وتجسيد صادق لروحها وجوهرها ومعاناتها، التي يعرفها كل من اقترب من هذه المبدعة، وعاين حياتها المعيوشة بالقدر الذي عاين فيه كتاباتها ومسيرتها الأدبية والثقافية عموما.



قادت حزامة، وأشركت معها مجموعة من الكاتبات العربيّات، حملة لمواجهة صورة من صور التطبيع الثقافيّ مع كاتبات من الكيان الصهيونيّ

قصة حياة وإبداع

إن قصة حياتها وإبداعها، هي قصة/ رواية قائمة في حدّ ذاتها، أو كما يقولون إنّها هُويّتها، وإليكم القصة كما أعرفها، بلا رتوش. فقد عرفتُ حزامة حبايب، الإنسانة أوّلا والمبدعة دائما، منذ بدايات تجربتها القصصية، بعد وصولها إلى محطّتها «الأردنيّة»، في بدايات التسعينيات من القرن العشرين، حين حطّت ضمن من باتوا يُعرفون بـ«اللاجئين الفلسطينيين من الكويت»، على أثر اجتياح هذا البلد من قبل قوّات صدّام حسين، حتّى لا أقول الجيش العراقيّ، الجيش البريء ممّا ارتكبه الطاغية العراقي حيال شعب العراق قبل الكويت.

عرفتُ حزامة «الشّخص»، مع تعرّفي على حزامة «النصّ»، أي مع باكورة نتاجِها القصصيّ، وهي مجموعتها «الرجل الذي يتكرر» (١٩٩٢)، ومنذ ذلك اللقاء، لم أستطع الفصل بين النصّ والشخص. كانت هذه المجموعة، بما تميّزت به من جرأة البدايات وتجاوز ثغراتها (البدايات)، هي التي رسمتْ، في ذهني ووجداني، الملامحَ الأولى لهذه المبدعة. ثم كانت الصورة تتشكّل مجموعة قصصية تلو مجموعة، وراحت تلك الملامح تتبلور وتزداد نضجًا ووضوحًا، ثم بالتأكيد رواية «أصل الهوى» (٢٠٠٧)، حتّى بلغت ذروتَها مع روايتها «قبل أن تنام الملكة» (٢٠١٢)، فضلا عن الحضور المميز ثقافيّا في غير منتدى عربيّا وحتى على المستوى الدّولي/ العالميّ. المحطّات الأساسية، والهموم والقضايا المهمة في تجربة حبايب، هي موضوع هذه الورقة.

تجربة نضالية فلسطينية متميزة

قبل الولوج إلى العوالم الأدبيّة لكاتبتنا، يجدر الوقوف مع تجربة «نضاليّة» فلسطينيّة متميّزة، تمثّلت في حملة قادتها حزامة، وأشركت فيها مجموعة من الكاتبات العربيّات، لمواجهة صورة من صور التطبيع الثقافيّ مع كاتبات من الكيان الصهيونيّ، تجربة بدأت في أيار/ مايو ٢٠١٢ بحملة، قد تُعدّ أول جهد ثقافي عربي تضامني من نوعه، حين تلقّت حزامة حبايب رسالة من المحررة المشرفة على أنطولوجيا للقصص القصيرة، «تزفّ» فيها خبر قرب صدور الكتاب الذي يحمل عنوان «ذكرى وعد: قصص قصيرة لنساء من الشرق الأوسط»، عن مركز دراسات الشرق الأوسط، مع تدشين مدونة إلكترونية بمناسبة المشروع، وكان تم توجيه الدعوة إلى حزامة وكاتبات عربيّات للمشاركة بنصوص قصصيّة في كتاب جرى الكشف عن كونه يضمّ نصوص كاتبات إسرائيليّات، وجاء رفض حزامة للخطوة سريعا، قبل أن تدعو وتحرّض زميلاتها العربيّات على الانسحاب ورفض المشاركة، أو سحب نصوص الإسرائيليات من الكتاب.

الحملة يمكن تلخيصها في حديث حزامة الخاص (لي)، بقولها: «حدث ذلك في الأول من أيار/ مايو، حين تلقيت عبر بريدي الإلكتروني رسالة من السيدة المشرفة على الأنطولوجيا، بشأن قرب إطلاق كتاب يضم قصصا لعدد من الكاتبات من الشرق الأوسط.. وحين تفقدت موقع المدونة الخاصة بالكتاب - الأنطولوجيا، لاحظت إقحام كاتبتين إسرائيليتين معنا، فأدركت أن الحدث الثقافي المحتفى به فخ في حقيقة الأمر.. قمتُ بإرسال رسالة احتجاج للمحررة المسؤولة أطالب فيها بسحب قصّتي من العمل، موضحة أسبابي في ذلك، وقد وافق المركز على طلبي، حيث تم رفع قصتي من المدونة دون إبطاء، وخلال أقل من ساعة.. وبعد تفكير قرّرت ألّا أتوقف عند سحب

قصتي، عازمة على فضح المشروع عبر إبلاغ الكاتبات المعنيّات، ولم أكن على اتصال إلا بواحدة من المدرجة أسماؤهن هي الروائية والناقدة الصديقة (الراحلة لاحقا) رضوى عاشور، وكانت وقتها تمرّ بظروف صحية وعائلية صعبة، وأرسلت لها رسالة وأرسلتها لثلاث عشرة (١٣) من الكاتبات المعنيات في الأنطولوجيا (علما بأن عدد الكاتبات العربيات بلغ خمس عشرة (١٥)، اثنتان صعُب الوصول لهما)، رضوى عاشور ضمت صوتها إلى صوتي، وأرسلتْ رسالة احتجاج إلى المركز تهدد بسحب قصتها في حال تم الإصرار على إدراج قصّتَيْ الكاتبتين الإسرائيلتين.. ثم اتصلتُ بالكاتبة المغربية ليلى أبو زيد في الرباط، وأرسلتُ لها التفاصيل كاملة، فغضبت بشدة، وضمّت صوتها إلى صوتي دون تردد، وقامت بدورها بإرسال رسالة احتجاج قاسية إلى القائمين على الأنطولوجيا تهدد بسحب قصتها في حال الإصرار على الزجّ بالإسرائيليّتين معنا. وبدأتُ مع هيفاء وليلى ورضوى، إلى جانب كتاب آخرين وأصدقاء وصحفيين ونشطاء في حملات وجمعيات المقاطعة الثقافية لإسرائيل، بتوفير إيميلات وعناوين عدد من الكاتبات: فاتصلتُ بنفسي هاتفيا بإميلي نصر الله وبالكاتبة السعودية منيرة الغدير في قطر، وشرحت لهما تفاصيل الموضوع، تحت عنوان: «المانيفستو الفلسطيني»، عقدت مقارنة بين المعاناة المزعومة للمرأة الإسرائيلية ومعاناة المرأة الفلسطينية. «أرفض أن أكون في كتاب واحد يجمعني مع رمزين ثقافيين يمثلان دولة احتلالية، عنصرية، تمارس أبشع أنواع التميز العرقي والديني ضد الفلسطينيين..»، وفي ٢٣ مايو/ أيار، تلقينا رسالة من مدير المركز «ينعى» فيها الأنطولوجيا، بعدما تخطى عدد المنسحبات العدد المطلوب.. وتعلن حزامة بقدر من الشعور بالانتصار «وهكذا أجهزنا على المشروع في غضون ثلاثة أسابيع ماراثونية!! وهي سابقة من نوعها..».

بدايات قَصَصيّة مفاجئة و مد هشة

في لقائنا الأحدث- وليس الأخير، تحدّثت حزامة كثيرا عن العوالم التي تلهمها إبداعيا، العوالم التي كوّنت هويتها الشخصية والإبداعية، وهي عوالم فلسطينية بامتياز، سواء كانت «فلسطينية/ أردنيّة»، وهي الغالبة في قصصها، أم فلسطينية/ كويتية، وهي التي تطغى في روايتيها. وهذا أمر لافت للنظر والتساؤل، فهل كانت المحطة الأردنية، التي تمثل طفولة ومراهقة الكاتبة، تسمح بالتعبير عنها قصصيّا فقط، فيما جاءت الرواية نتاج الوعي الكويتي؟ أم هو التطوّر الطبيعيّ للكاتبة من عالم القصة إلى عوالم الرواية؟ سؤال على النقد الإجابة عنه. أما حزامة نفسها، فتقول لي: «أعمالي الروائية امتداد أصيل لتجربتي القصصية، ولا تنس أن القصة القصيرة هي التي قدمتني كصوت مختلف للقراء».

ندخل إلى عوالم حزامة القصصية، ففي مجال القصة القصيرة، تحديدًا، تشكّل تجربة الكاتبة حبايب واحدة من أبرز تجارب السرد العربي الجديد؛



> تشكّل تجربة الكاتبة حبايب واحدة من أبرز تجارب السرد العربي الجديد؛ فقد استطاعت، من خلال أربع مجموعات قصصية بلورة صوت الكاتبة التي عملت منذ البدء على تقديم الصعب والمختلف

فقد استطاعت هذه الكاتبة، من خلال أربع مجموعات قصصية بلورة صوت الكاتبة التي عملت منذ البدء على تقديم الصعب والمختلف والمعمق والجريء في نقد السلطات التي يخضع لها الإنسان العربي، من سلطة الدين إلى سلطة المجتمع والبيت والأب والحاكم الأعلى. فقد كان هاجس حزامة، عبر مسيرتها التي بدأت بمجموعتها «الرجل الذي يتكرر» (١٩٩٢) حتى «ليل أحلى» (٢٠٠٢)، ومرورا ب»التفاحات البعيدة» (١٩٩٤) و»شكل للغياب» (١٩٩٧)، فضلا عن مجموعة قصصها «من وراء النوافذ» (مختارات) (٢٠١٠)، أن تكتب قصة تتحدى هذه السلطات، وتعري تجاوزاتها على الإنسان.

هي تجربة تفرض على قارئ القصص أن يمتلك جرأة المغامرة في قراءتها، والذهاب معها نحو مجهولاتها وعتماتها ودهاليزها، وأن يخاطر بدخول مناطقها المحرَّمة، وهي كثيرة وحارقة، وقد تكون مؤذية للمشاعر الرقيقة والمهذَّبة التي نتمتع بها في مجتمعاتنا المُحافِظة (على أي شيء تحافظ؟) والمؤدّبة.

منذ مجموعتها الأولى «الرجل الذي يتكرر»، كانت قصص حبايب تغوص في عوالم مألوفة لنا، نعرفها، لكنها شديدة الغرابة في الآن ذاته، وتطرح أسئلة معمّقة وجريئة، في لغة ومناخات سردية ذات تميز وخصوصية، سواء في التقاط نماذجها وشخوصها، أو في اختيار اللحظة الحرجة التي تشكل بؤرة القصّ ومحوره الأساس. وهي أسئلة من صلب حياتنا المعيشة، بكل ما فيها من هواجس ومخاوف ورغبات وشهوات، من أحلام مقموعة وأوهام مرفوعة إلى مستوى الحقيقة، ومن وقائع تبلغ في غرابتها درجة عالية من الفانتازيا والتخييل.

قصص تحتشد بنماذج مسحوقة بؤسًا وفقرًا، أو مسحوقة عجزاً بعامل السنّ، أو هي نماذج مهزوزة بحكم الموقع الاجتماعي المتدنّي، والنظرة الدونية إلى الذات، أو بحكم وقوع رجل بائس في المقارنة بين امرأتين على طرفي نقيض، أو نموذج المتعة «الفيتشية» المتأتية من الكبت والقمع والحرمان، أو النموذج الذي يمثل الارتباط القسريّ مع الأمّ، فضلا عن الطفولة المعذّبة بانشغالات وأشغال شاقّة، ربّما أبرزها «حفّار القبور».. وغير ذلك من النماذج الإنسانية التي نلتقي بها في شؤوننا اليوميّة وحياتنا العادية، ولا نعيرها أدنى اهتمام أو انتباه، لكنّ معالجتها هي ما يجعلها مميزة.

أسأل حزامة عمّا أسمّيه ب»الخلطة السحرية للحياة..»، ومصادر هذه الخلطة، فتؤكد «هذا أكيد! على الأقل هذا ما أعرفه وأعيشه، وإذا كانت الكتابة شكلًا من أشكال ترجمة «العيش»، فالحياة التي خبرتُها وعشتُها وعايشتُها قاربتْ السحر بكل تجليّاته. ثم إن التجربة الإنسانية عمومًا تصنع «سِحرها» الخاصّ بها.. لذا، جوابًا عن سؤالك أقول: نعم، الحياة هي خلطة تجمع بين الفانتازيا والسحر والشغف».

أما في ما يتعلق بالبؤس في المناخ السرديّ العام، القصصيّ والروائيّ، في كتاباتها، فتخبرني «أنا (يا عمر) أمشي على الأرض، وأحمل على كاهلي عبء الحياة، ولا أحلق بعيدًا، كطير رومانسيّ لاهٍ أو مغيّب أو يتغابى.. من يمشي على الأرض، ويدوس عليها بقوةّ، لا يرى الشيء فقط، وإنما يعيشه.. لذا كانت عوالم البؤس هي السمة الطاغية في تجربتي السردية، وأعتقد لو أن الحياة كانت جميلة وسعيدة تمامًا لما كتبنا من الأساس.. ربما من يدري..».

في عالمها الروائيّ

عوالم حزامة القصصيّة هذه، تكاد لا تختلف عن عوالمها الروائية، سوى في ما يتعلق بالفارق التقنيّ بين القصة والرواية، فهي هنا في الرواية، كما هي في القصة، وفيّة للهموم نفسها، وللقضية ذاتها، وحتّى في الكثير من التفاصيل التي يجري تغييرها أو «تدويرها» (recycling لتخدم الشخصيّة والحدث الروائيين، وتنسجم مع بنائهما. غير أنّ العمل الروائيّ لحزامة يشهد عُمقًا ونضجًا على مستويَيْ الوعي والتقنيات الفنية والجماليّة. ولغزارة المادة التي تشتغل عليها حبايب، سنحاول الاقتصار على جوانب محددة من عوالمها الروائية، وربّما يكون من أهم هذه الجوانب، جانب يتعلق بمدى عمق العلاقة بين الكتابة، وبين الواقع الذي تشتغل عليه هذه الكتابة.

تأخذنا الرواية الأولى لحزامة «أصل الهوى»، (الرواية التي استثارت الرقيب الأردني، فمنع توزيعها في الأردن)، إلى عوالم البطل الذي ستتكشف شخصيته - مثل الشخصيات الأخرى - عن «البطل الضد» الذي ينطوي على قدر من البؤس والهامشية، كما سبق أن تعوّدنا في قصص حبايب. لكن الكاتبة هنا تتخذ من الجنس وسيلة أو أداة لتعرية البؤس والتهميش اللذين يعانيهما البشر عمومًا، والفلسطيني خصوصًا، رابطة ذلك بوضوح، للمرة الأولى ربما، بالقَدَر الفلسطيني في جوانبه المتعددة.

مدخل الرواية أمام شاشة قناة «الجزيرة»، يمهد للدخول في عوالم الشخصيات وكآبتها، تمهيدًا لظهور عبارة «عاجل»، من دون أن يعرف القارئ ما هو العاجل إلا في نهاية الرواية، وهو أمر يتعلّق برحيل ياسر عرفات. بدأت الرواية بمشهد كمال يدخل المطبخ ليحضر الشاي، تنتهي به يضع صينية الشاي على الطاولة، ويسأل «هل مات أبو عمار؟»، فيرد عليه فراس «ليس بعد». والغريب أنه ما عدا هذا الحضور لاسم عرفات ليس في الرواية أي ذكر له. ومع أن زمن السرد قصير، فالرواية تسترجع أزمنة تعود إلى نكبة فلسطين ونكسة حزيران واجتياح صدام للكويت.

إن حياة كل من شخوص الرواية صعبة وكئيبة إلى حد بعيد. فكلّ شخصية منهم هي مثال لشكل من أشكال البؤس والإذلال بسبب الهوى والعشق والجنس، إضافة إلى أسباب سياسية واجتماعية واقتصادية تتداخل في ما بينها. ففي المستوى السياسيّ/ الوطني تبرز أسئلة الهوية الفلسطينية في

من وراء النوافذ

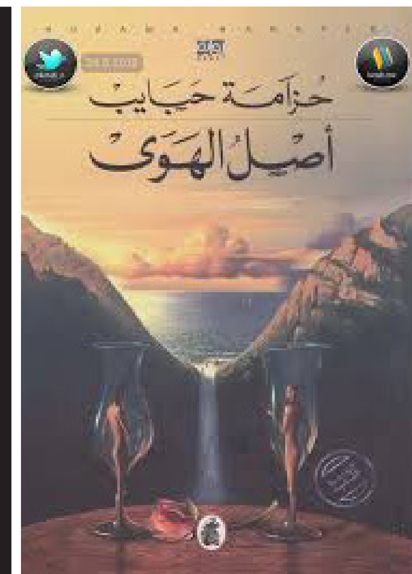
حزامة حبايب روائية وقاصة فلسطينية، عضو رابطة الكتّاب الأردنيين والأمانة العامة لاتحاد الأدباء والكتّاب العرب. ولدت ونشأت في الكويت ودرست فيها، حيث تحمل شهادة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة الكويت.

المؤلفات:
«أصل الهوى»، (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،
(طبعة أولى – 2007)، (طبعة ثانية – 2009).
«الرجل الذي يتكرر»، (مجموعة قصصية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (1992).
«التفاحات البعيدة»، (مجموعة قصصية) دار الكرمل للنشر والتوزيع،
عمّان (1994).
«شكل للغياب»، (مجموعة قصصية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر،
بيروت (1997).
«ليل أحلى»، (مجموعة قصصية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر،
بيروت (2001).
«استجداء»، (نصوص شعرية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (2009).

جوائز
جائزة الإبداع الشبابي في القصة القصيرة، مهرجان القدس، عمّان (الأردن) – 1992.
جائزة محمود سيف الدين الإيراني للقصة القصيرة، إحدى جوائز رابطة الكتّاب الأردنيين التقديرية – 1994.

وزارة الثقافة الفلسطينية

مواجهات عدة، خصوصًا سؤال هوية الفلسطيني في الكويت والأردن، الفلسطيني الذي يواجه مشكلة الانتماء، والذي يطلب منه البعضُ التخلّي عن فلسطينيته وعن نضاله من أجل فلسطين، ليتم الاعتراف له بأردنيّته. وفي سياق مقارب، يعيش الفلسطيني أزمة اجتياح الكويت، ويتعرض لتهمة مساندة صدام ومساعدة الجيش العراقي وجنوده، الأمر الذي يدفع الكثيرين إلى الهجرة من الكويت، وكثيرون سيدفعون ثمن هذا الحدث، في حين يستفيد منه كثيرون من العراقيين والكويتيين.





وعبر إحدى الشخصيات، نكتشف هشاشة النضال السياسي والمناضلين في الأردن والكويت، وتحديداً الطلبة الآتين من مواقع طبقية عليا أو فوق المتوسطة، فيما ثمة عدد من الرفاق أتوا من المخيم أو من جبل مناطق البؤس. ولذلك، ستفترق طرق الرفاق الذين كانوا يتناقشون حول ماركس وتروتسكي وغرامشي والاشتراكيّة، نقاشات كانت تتم في بيت فخم لأحدهم، في منطقة فخمة، وتنتهي آخر الليل عندما يضع الغنيّ في جيب رفيقه الفقير مبلغًا من المال يمكّنه من استئجار «تاكسي» يوصله إلى بيته في المخيم. ونكتشف مع الوقت أن النضال بدا للرفاق «أصعب مما أعدوا له».

مع «الملكة» قبل النوم

كنّا قد شهدنا، مع قصص حزامة، ثمّ مع روايتها الأولى، قدرا من «الانزياح» عن الصورة والحضور المباشرين لفلسطين وقضيتها وهموم شعبها و.. هويّتها، مقابل «انحياز» للهمّ الإنسانيّ، أو للبُعد الإنسانيّ



للفلسطينيّين. لكنّنا، في الرواية الثانية، سنواجه دمجًا بين ما هو سياسيّ/ وطنيّ وما هو إنسانيّ، على نحو لا فصل فيه بين هذه الأبعاد المترابطة، فأنت بما أنّك فلسطينيّ، وطالما أنت فلسطينيّ، سوف تتعرّض وتظلّ تتعرّض إلى ما تتعرّض له من معاناة ومشكلات ومشقّة وصعوبات، فهي قَدَرُ الفلسطينيّ أينما كان أو حلّ أو رحل، ولا يختلف سوى المظهر الخارجيّ والتفاصيل الصغيرة اليوميّة. توافق في الجوهر، واختلاف في المظهر.

كُتب الكثير عن هذه الرواية، التي اختيرت في عام ٢٠١٢ ضمن استفتاء صحيفة «الغارديان» البريطانية لأفضل قراءات العام، لكنّ الأهمّ هو ما عبّرت عنه حبايب في حديثها معنا، إذ قالت «قدّمتُ شخصية الأمّ، التي تتفرع منها باقي الشخصيات، فالأمّ هنا رحم الحياة، والوتيرة التي يستقيم عليها إيقاع الزمن، بمعنى أن هذه الشخصية، هي السارد الفعّال في النص الذي يكتشف الآخرين، وهي المرأة الناصعة، التي تكتشف الذات، هذه الذات المخبوءة بين الكلمات، وإن كان السرد هو الكاشف، لهذا الاختباء، لهذه الابنة التي عبدت طريق الحياة بالنسبة إلى ما هو قادم، عن تفاصيل تتعرض لها، لكنها في نهاية المطاف، ابنة تحاول معرفة الوطن من خلال الأم، التي هي في الأول والأخير تاريخ الإنسان». وعمّا إذا كان من شيء مشترك بين هذه الرواية وسابقتها تقول: «هو ذلك الشعور الطاغي بـ»الفقد»..».

منذ مُفتتح هذه الرواية، نلمس أكثر فأكثر تلك البساطة العميقة التي تميّز حزامة،

الإنسانة والكاتبة، بساطة تظهر هنا في صور التعبير «العاديّة» والمستخدمة في حياتنا وعلاقاتنا، تعابير مثل «بكْرَهِك» و«بَحِبِّك»، في سياق وداع الأمّ لابنتها الصبيّة المسافرة لاستكمال دراستها في لندن، وبين المفردتَين تحضر لغة سريّة ذات حميميّة عالية، لغة الجسد والعيون والعناق والاقتراب والمراقبة الحثيثة، في لحظات وداع استثنائيّ لما يحمله من مرارات احتمال «الفَقْد» التي تعيشها الأمّ، فيما البنت «الخائفة» تُظهر غير ما تُبطن معلنة «أنا رايحة أدرس، مش رايحة أحارب». وفي نهاية الرواية، تتعزز الحميمية بعودة حوار الأمّ/ البنت، تسألها «رح تخلّيني وحدي؟!»، فتجيبها البنت «رح أخلّيكِ في قلبي». وما بين البداية والنهاية، تحتشد الرواية بتفاصيل يصعب حصرها عن حياة الفلسطينيّ في الكويت والأردن، تفاصيل لا مجال للوقوف عليها.

> اختيرت روايتها الثانية «قبل أن تنام الملكة» في عام ٢٠١٢ ضمن استفتاء صحيفة «الغارديان» البريطانية لأفضل قراءات العام

ولعلّ من الجدير بالتوقّف أمامه هنا، الحضور القويّ لعلاقتَين أساسيّتين لـ«الملكة» في الرواية، إحداهما هي العلاقة المذكورة أعلاه (الأمّ/ البنت)، والثانية هي (البنت- الملكة مع الأب)، فعلاقة «جهاد» بطلة الرواية مع والدها شديدة الغرابة، ما يجعلنا نتوقّف لنقارب بين الرواية والواقع، بين الكاتبة و«أبطال» روايتها، فستعيد ما كتبته حزامة عن والدها هي بعد موته (قبل سنتين من الآن)، ونشرته آنذاك في جريدة «أخبار الأدب» المصرية تحت عنوان «أبي الذي لم يكن يوماً بطلًا»، وقدّمت تشريحًا لشخصية الوالد يتّسم بقدر عالٍ من الجرأة والاختلاف عمّا هو مألوف في حالات «الفقد» والرثاء، تشريحًا ينطوي على قدر من السخرية في موقف تبدو فيه السخرية نشازًا، ومحصّلة التشريح إظهار نقاط ضعف الوالد، من جهة، وعمق ارتباطه بابنته (حزامة) وارتباطها به، حتّى إنها تختم «رثاءها» ذاك بهذه الخاتمة «كان أبي، الذي لا تتقاطع صورته وهيئته مع أي من الأبطال المعتمدين، بطلي أنا.. كان أبي هو بطلي الشخصي جدًّا». وفي هذا السياق، كتب الناقد الدكتور صبري حافظ عن هذه العلاقة، إن حزامة «تكتب في الوقت نفسه واحدة من أجمل العلاقات الإنسانية الخصبة بين البنت وأبيها في الرواية العربية». وفي مقابل «ضعف» الأب هذا، أرادت الملكة (البطلة جهاد) التعويض عبر تكريس ابنتها لتكون «فلسطينية» كأمها، وهذا «جزء أساسي من كتابة المتخيل الوطني الفلسطيني في هذه الرواية»، كما يرى صبري حافظ أيضا.

ما كتبه الدكتور حافظ عن الرواية، وربّما يكون الأبرز بين ما كُتب عنها، جاء في دراسته المطوّلة والمعمّقة التي رصدت أهمّ معالم الرواية وملامحها، وسنكتفي ببعض ما جاء فيها، حيث يقول لنا النّاقد في واحدة من خلاصاته الأساسية، مثلا، إنها: «رواية الحياة والأمل، لأن الملكة في النهاية لا تُهزم..»، وإنّ «أيّ شخص يقرأها يعرف أن فلسطين لن تموت أبدًا»، وأنها «ربّما أهم رواية فلسطينية صدرت عن الجيل الثاني لكتّاب فلسطين، بعد الروايات الفلسطينية الكبرى لغسان كنفاني وإميل حبيبي وجبرا إبراهيم جبرا». فهي «رواية الجيل الذي لم يولد في فلسطين، لذا فإن كتابتها لفلسطين تكتسب دلالات مضاعفة تؤكد الحقّ الفلسطيني وتجذّره في الوعي والضمير». وهي «رواية تكتب المرأة الفلسطينية كما لم تُكتب من قبل باقتدار وعُمق وبُعد عن أية عواطفية».

كما يؤكد حافظ «صعوبة الفصل بين قصة تكوين البطلة، وبين قصة الشتات والتشظي الفلسطيني التي تدفعها للتمسك

بفلسطينيتها، وبما تنطوي عليه من موقع أخلاقي معا».

«استجداء» الحُبّ.. التمرّد معكوسًا

نختم «شخصية» حزامة الكاتبة، مع كتاب لها لم ينلْ حظّا وفيرا من العناية، أعني كتابا حمل عنوان «استجداء»، وهو نصّ طويل وقع في منطقة ملتبسة بين الشعر والنثر، وكان يضمّ نصوصا مفتوحة ربّما كانت عصيّة على التصنيف و«التجنيس»، لكنّ الخطير فيه هو تسليطه أضواء ساطعة على نمط من شخصيّة المرأة، نمط «يستجدي» الحبّ وحتى العشقَ بمرارة، ولكن في سخرية أشدّ مرارة من مرارة «الاستجداء»، لأنّها تجعل منه مادة لتعرية المشاعر الأنثوية الموغلة في الضعف و«الارتماء» في أحضان «رجل» أنانيّ وشرقيّ التفكير والذهنيّة.

في «استجداء» تحضر بعض عوالم حزامة المألوفة في «نساء» قصصها، لكنّها تختلف هنا من حيث انزياحها عبر اللغة «الشاعرية»، لغة رغم شدّة واقعيّتها، إلا أنها تنطوي على قدر من الشفافية التي تتميّز بها قصيدة النثر، ولكنّها الشفافية المتلبّسة بالقسوة والعنف في إظهار المشاعر التي تبدو طبيعيّة، وتعبّر عن «حاجات» المرأة في سياق علاقتها بالرجل، على المستويين الذكوريّ والإنسانيّ. لغة هي «ابنة شوارع»، و«نشاز» خارج السياقات المألوفة.

كتابة مكانها الأحلام المتوحشة والكوابيس، يحضر الموت فيها قويا، وكأن العلاقة بين هذين العاشقين لن تجد طريقها أبدا لا في الحياة ولا بعدها، ولا في الألم ولا في اللذة أيضا. تقول في مقطع من النصّ الطويل:

تأمّلْني
أنا أمشي فوق الماء يُسندني
حصى شفاف
أضفر الهواء
جدائل تتسلقها إلى قلبي
أغزل السحب
أحيك منها وسادة لمرفقك
أطرز أقمارا مضيئة
على شرشف السماء
أفرده فوق رسمك
أما بعد
أما زلتُ لا أستحق حبّك؟



صدر حديثا



للمزيد من المعلومات عن إصدارات المؤسسة يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.mominoun.com

مجلة «ذوات» بعيون القراء والباحثين العرب



إعداد: منى شكري

إعلامية أردنية

ثـمّن باحثون وأكاديميون ومثقفون عرب الدور الذي اضطلعت به مجلة «ذوات» الثقافية الإلكترونية الصادرة عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، منذ انطلاقتها مُكرّسةً نفسها منارة فكر تنويري يؤمن بسلطة المعرفة وبقيمة الإنسان.

وأشادوا بالإنجازات التي حققتها مجلة إلكترونية في وقت قصير نسبياً من حضور فاعل في التصدي للتحديات الراهنة، إذ كانت، وفق وصف مختصين، أداة فاعلة في المقاومة الثقافية ضدَّ كل الأشكال العدوانية الآتية من غياهب التاريخ أو المعيش.

وقدم الباحثون جملة من الاقتراحات في سياق نقد بناء هادف ضمن عصف ذهني لمواصلة المجلة مشروعها؛ ومما اقترحوه: التوسع في فتح باب مناقشة الملفات لغير العرب من المسلمين، ولا ضير من استكتاب غربيين أيضاً، فضلاً عن عقد حوارات تشاركية، وإتاحة الفرصة في الملفات والحوارات للآراء المتباينة، وزيادة التركيز على قضايا المرأة ما وتعيشه من إكراهات، وفتح الباب أمام المبدعات العربيات، سيما الشابات منهن للكتابة بشكل أوسع، إضافة إلى الاهتمام بالشباب المجددين في الكتابة وحمل راية عقلانية التغيير.

وطالب بعض المثقفين بمزيد من الانفتاح على أثر «الميديا» ووسائل التواصل الاجتماعي الحديثة، والتشبيك مع المؤسسات الأكاديمية والثقافية لدمجها في هذا الحراك الفكري، والمزاوجة بين الثقافي والسياسي، والعلمي والإنساني، إثراء للمشهد بشكل عام.

كما نبه المختصون إلى ضرورة أن تفطن المجلة للتنويع في المحاور المطروحة للنقاش، لتشمل موضوعات ثقافة الحياة اليومية من لباس، الفلكلور، العادات الاجتماعية، وغيرها.

وأجمع الباحثون على أهمية الحضور «الفيزيائي» للمجلة بأن تصدر ورقياً، لتكون حاضرة في المكتبات العامة والشخصية لمزيد من تعميم الفائدة.

ومع عددها العشرين تطفئ «ذوات» شمعتها الأولى وتشعل الثانية، وسط عطاء متواصل، وتحليق في فضاء التنوير، حيث خصصت سؤال عددها الحالي عن المجلة نفسها، بهذه المناسبة، لتعرف رأي نخبة من الكتاب والباحثين العرب المتابعين لها، وذلك عبر الرد بصراحة على الأسئلة التالية: كيف يمكن تقييم هذه التجربة الإعلامية الثقافية بعد مرور سنة على صدورها؟ وهل الملفات التي تناولتها المجلة كانت في مستوى آمالكم؟ وما رأيكم في طريقة معالجتها؟ وما الذي تتطلعون إليه من أجل النهوض بالمجلة ومواصلة عملها التثقيفي والتنويري للمساهمة في التغيير المنشود ارتقاءً بالذائقة الأدبية والفنية، ونشر ثقافة المحبة والتسامح، والوقوف في وجه التطرف والظلاميين؟



الجزائر: «ذوات» جمالية المقاومة الثقافية ضدَّ العدوانية

الزين: المجلة تفنّنت في تقديم مجموعة من الأطروحات

أوضح الباحث الجزائري الدكتور محمد شوقي الزين أن مجلة «ذوات» تمكنت في ظرف قصير من انطلاقتها من طرح مشكلات من صلب المعيش العربي الإسلامي، وبتتبُّع أهم القضايا والأطروحات حول مسائل شتى تتعلق بـ: المرأة، التطرف، التسامح، الثورة، الحرية، التربية، الأدب، وغيرها، فهي مجلة تحمل رمزياً وفعلياً النعت الإنجليزي المصاحب لها في عنوانها: «ماذا؟». ويتابع الزين أن مجلة «ذوات» تطرح المشكلات من وجهة نظر أصولها؛ أي من حيث نشأتها وتطوّرها، وليس فقط من وجهة نظر أسبابها ونتائجها. بهذا المعنى، استطاعت المجلة أن تقدّم كوكبة من الدراسات والتأملات تستهدف مباشرة كبريات المسائل الوجودية والمصيرية.

وفيما يتعلق بما إذا كانت الملفات المتنوعة التي تناولتها المجلة ارتقت لمستوى تطلعاته، ورأيه في طريقة تناولها أجاب الزين أن الملفات، لا شك، تصبُّ في هذا الهمّ (النظري) والمهمة (العملية) في تناول موضوعات ملموسة تمسُّ الإنسان العربي في العمق، دون تكلُّف أو تميق، مضيفاً هي براغماتية في مقاربتها للوقائع والموضوعات، وتلبّي بذلك حاجيات القارئ في الحصول على رؤية عامة ومعمَّقة حول معيشه المباشر، وحول القضايا الكبرى التي تقوم بحبك حاضره، مبيناً أن المجلة تفنَّنت في تقديم مجموعة من الأطروحات منظوراً إليها من جميع الزوايا الممكنة: سوسيولوجية، تاريخية، إبستمولوجية، نفسية، إلخ.

وأعرب الباحث الجزائري، المختص بالفلسفة والتصوف، عن أمله في أن تواصل المجلة على هذا الدرب، فهي أجمل وأنفع أداة في المقاومة الثقافية ضدَّ كل الأشكال العدوانية الآتية من غياهب التاريخ أو المعيش. والجميل في هذه المجلة، وفق الزين، أنها تجمع بين «الجريدة» اليومية و«المجلة» الأكاديمية، فلا هي جريدة بالأحداث المسرودة بشكل خام ومباشر، ولا هي مجلة أكاديمية بالمعجم المثقل والأسلوب المكثف الذي ربما لا يفقهه الكثير، فهي تجمع بين العفوي من القضايا الساخنة والتأمّلي من الكتابات المتأنية والواضحة، لتقدّم رؤية هادفة في متناول كل قارئ، في أفق لغته وتفكيره، يستطيع استيعابها ومواكبتها، لتحقق فيه الأمل المنشود في التغيير والارتقاء معرفياً وحضارياً.

محمدي النّحت في خراب العقل العربي

من أسرار مجلة «ذوات»، وفق قول الكاتبة الجزائرية الدكتورة رشيدة محمدي أنَّها ترمي لك عند تعرفك الأول على اسمها بأنها مجلة «منتمية عقائدياً كما هو الحق لكل خط في تشييد ملامح وجه مسبوكاً بذهب توجهه»، مستدركة «لكن بمتابعتها تذهب

تمكنت المجلة في ظرف قصير من انطلاقتها من طرح مشكلات من صلب المعيش العربي الإسلامي



رويداً رويداً إلى الاقتناع بأنّ مجلة «ذوات» هي مشروع فكري يُراهن على هدف تنوُعي شرهِ الثقة في المُختِلف غير الاعتباطي».

وتابعت الكاتبة، المقيمة في الولايات المتحدة، حديثها مبينة أن «ذوات» مجلة ترى أنَّ النَّحت في خراب العقل العربي الحالي أمر ممكنا، وأنَّ اليأس من سقم المتوفر السائد المُصرِّ على الرداءة «فعل كسول يتناقض مع كنه الإبداع»؛ إذ إنَّ مهمة الإعلام المبدع الجوهرية هي زرع الأمل لا بالتصفيق المُجامل في مواكب الفنتازي الوهمية لغالب ما نقرأ في المجلات العربية، بل بالبديل الرَّصين فكرياً وجمالياً ضمن ترتيب أوراق أولويات العمل في بيت الحرية السعيدة وذلك بالتقصِّي الهامس والواعي لماهيةٍ أهم من الفكر في حدِ ذاته إنها؛ أي «ذوات» كيان إعلامي يطرح أسلوباً لتعليم الفكر كيف يفكِّر دون إهمال رغبة القارئ في بحثه عن بدائل انتشالية مشوِّقة واحتفائية في آن معاً، فلا سقف لـ «ذوات» إلاَّ الإيمان بقناعات الفن الزاخر والثقافة المُثابرة ليفتح المُتلقِّي عينيه على نشاط العقل الحي الفاعل الديناميكي الحر.

وأعربت محمدي عن سعادتها بأن تشرفت المجلة باستضافتها ضمن صفحاتها؛ حيث «عثرت عن تواصلي وإلى حد بعيد مع القارئ العربي بعد انفصال دام أكثر من عقد ونيف من الزمن»، متابعة «أصلِّي أن تبقى مجلة «ذوات» الصادرة عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود» مؤمنة بمنزلتها في كينونة الكلمة الحرة والرسالة المفتوحة على الوعي والجمال والتنوع».

معطوب: أرقى محتوى إلكتروني عربي

وقدم الكاتب الجزائري السعيد معطوب رأيه في مسيرة «ذوات» خلال عام قائلاً: أطلت علينا المجلة قبل سنة من الآن، وقد تزامنت إطلالتها مع تسارع كبير في الأحداث، وبروز الكثير من الحركات والتنظيمات الأصولية.

في ظل ما سبق، كان على المجلة، وفق معطوب، أن تتبنى خطاً تنويرياً، يعمل وبكل ما توفر من أدوات بحث ووسائل نشر حديثة على التصدي للأفكار والممارسات التي تهدد مستقبل التنوير في العالم العربي والإسلامي.

وأضاف: من خلال المواضيع المختلفة والكثيرة التي تم تناولها في المجلة بشيء من الدرس والتحليل خلال سنة كاملة، نعتقد أن المجلة قد نجحت وبشكل جيد في تحقيق أهدافها التنويرية، ولعل أهمها إبراز المفاهيم والقراءات الخاطئة التي تتبناها الحركات الأصولية، وتقديم مفاهيم وقراءات تعبر عن روح العصر من جهة، وسماحة الرسالة المحمدية من جهة أخرى.

داعش، المرأة، الهوية، التنوير، الفتوى، الحرية، التجديد

الديني، اقتصاد المعرفة، ..إلخ، كلها مواضيع تناولتها المجلة عبر أعدادها المختلفة بشيء من الدرس والتحليل، وفق معطوب الذي يقول إن قليلاً من التأمل في عناوين الملفات التي تناولتها المجلة يدفعنا إلى القول بارتباط المجلة بأهم المواضيع والأسئلة التي اشتغل، ولا يزال يشتغل عليها الفكر العربي المعاصر من جهة، وارتباطها بالواقع المعيش للإنسان العربي من جهة أخرى.

ورأى معطوب أن ارتباط المواضيع التي تناولتها المجلة بأسئلة الفكر العربي المعاصر وواقع الإنسان العربي هو ما جعل مواضيع «ذوات» تكون في مستوى تطلعات متابعي وقراء المجلة، خاصة وأن طريقة تناول المواضيع تحمل نوعاً من التميز والحداثة في التناول والطرح.

وشدد على أن تجربة «ذوات» في شكلها الإلكتروني هي «جد متميزة»، وأن ما قدمته لحد الآن يعتبر إلى حد كبير «أرقى محتوى إلكتروني عربي»، لذلك ومن خلال متابعتنا الدائمة للمجلة، فإننا نتطلع إلى استمرار المجلة في العمل بهذا الشكل من الجدية والتميز».

وتابع الكاتب حديثه «نتطلع وبكثير من الشوق إلى رؤية المجلة تنشر ورقياً وتصل إلى كل الأقطار العربية، ولعل أقصى ما يتمناه رجل مثلي يقطن في مدينة ليس فيها من المكتبات إلا ما يسوق إلى الكتب والأدوات المدرسية، أن تصل مجلة «ذوات» في شكلها الورقي إلى مدينتي «خنشلة»».

نتطلع وبكثير من الشوق إلى رؤية المجلة تنشر ورقياً وتصل إلى كل الأقطار العربية

مهنانة: منارة تنويرية في بحوثها ومقالاتها وحواراتها وملفّاتها

ورأى الكاتب والباحث الجزائري المتخصص في الفلسفة المعاصرة، إسماعيل مهنانة، أن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود» تحولت في ظرف سنوات قليلة إلى ظاهرة ثقافية وأكاديمية كبيرة، وهي الآن تقود مشروعا تنويريّا فريدا من نوعه في كل العالم العربي، وخاصة بمجّلاتها الثلاث: «ألباب»، «يتفكّرون»، و«ذوات».

وأضاف أن مجلة «ذوات» خفيفة الظل، سهلة التناول تجمع بين المتعة والعمق والخفة في تقديم المسائل الفكرية والفنية، ويمكن تصفّحها بسرعة على النيت، مباشرة. المجلة منارة تنويرية في بحوثها ومقالاتها وحواراتها وملفّاتها، وتستحقّ أن تصدر في حلّة ورقية شعبية، لأن مادتها خفيفة ومفهومة من القاعدة الواسعة للقراء، قائلا: «شخصيا أتابع كل ملفاتهما ومقالاتها، وأحاول أن أكتب وأنشر فيها كلما سنحت الفرصة بذلك».

مصر: «ذوات» نافذة لعوالم الفكر والفلسفة والتنوير

صالح: أقواس مفتوحة على مدارات الفكر

رأت الأكاديمية والروائية المصرية هويدا صالح أن مجلة «ذوات» تمتلك رؤية للعالم «مميزة ومفارقة»، فهي تتبنى طريق التنوير، وتسعى إلى تشكيل وعي مغاير؛ إنها نافذة يطل منها القارئ العربي على عوالم الفكر والفلسفة والسياسة..، وتشكل مساحة فكرية تسائل التراث وتراجع مقولاته التي تتحكم في الحاضر والمستقبل.

ويسجل لـ «ذوات» وفق، صالح، أنها تطرح ملفات فكرية وثقافية متنوعة تجترح كل مدارات الفكر الإنساني، وتتناول الهوية العربية والإسلامية، وعلاقة الشرق بالغرب، تلك العلاقة الجدلية التي تتجاذبها اتهامات بالتبعية أحياناً، وأحياناً أخرى تتجاوز هذه الاتهامات، وتتعامل مع المنتج الفكري الغربي، باعتباره منتجاً إنسانياً نأخذ منه ونضيف إليه.

وتابعت الروائية أن الملفات التي تفتحها المجلة، وتقبل فيها مشاركات الكتاب والنقاد العرب، إنما هي «أقواس مفتوحة على مدارات الفكر الإنساني كله».

وتطمح صالح، بصفتها قارئة متابعة للمجلة وكاتبة، أن تركز «ذوات» في الأعداد المقبلة في طروحاتها وملفاتها على كشف «المسكوت عنه» في الثقافة العربية، ليس بهدف تشويهها، بل بغية مراجعتها وتنقيتها من الأفكار العنصرية والطائفية التي تقصي وتهمش بعض المكونات الثقافية في المجتمعات العربية، مبينة أن مراجعة النسق الثقافي بهدف تنقيته من الأفكار المتطرفة والعنصرية «طموح كبير يساعد على إصلاح وتعديل وتقويم، بل وتجديد الخطاب الديني الذي يستغله البعض، ليسلب وعي الشباب العربي».

كما تتمنى الكاتبة أن تعد المجلة ملفات تشتغل أكثر على وضعية المرأة العربية، وتحاول أن تنحاز لها «في ظل الثقافة الذكورية الإقصائية التي تنال من المرأة العربية وتهمشها».

كما تتوق أن تفتح المجلة أبوابها على الآخر وثقافته، مستدركة «ليس شرطاً أن يكون الآخر هو الغرب الأوروبي والأمريكي، فثمة أواخر كثر لا ننفتح عليهم، مثل المجتمعات الإفريقية والآسيوية والحضارات الشرقية التي لا تقل أهمية وقيمة إنسانية عن الحضارة الغربية».

عبد العال: مبادرة الطرح وجرأة العرض

من جهته، أكد الكاتب والباحث المصري سامي عبد العال أن التجربة الثقافية لـ «ذوات» تجربة «بالغة الأهمية»، وقد لا تستطيع دورية في زمنها القصير خوض غمار الواقع العربي المعقد بهذا الأسلوب، وخاصة مع ضغط التحولات على الخريطة العربية سياسياً واجتماعياً وإقليمياً، ليس هذا فحسب، إنما استند خطُّها الإعلامي إلى عمل فكري وتحليلي لا مجرد أصداء للمشاهد.

وإنْ كانت مجلة «ذوات» تُضيء شمعتها الأولى، فقلَّما عانت من عثرات البداية عادةً، تكمن قوتها في مبادرة الطرح وجرأة العرض. أما أبرز ملامحها العامة، فهو كيفية أنْ تصير الثقافة كشفاً لمواطن الخلل. ولخصها عبد العال في النقاط التالية: رأينا - في عدد داعش - ذلك السبق تحذيراً من خطورة هذا التنظيم، كانت تحليلات «ذوات» إنذاراً مبكراً إزاء دمويته وتضخم مساره كظاهرةٍ عولمية. وقد أثبتت الأحداث الإرهابية الأخيرة صدق قراءات «ذوات» محلياً ودولياً. ومع اهتمام «ذوات» بالشؤون الراهنة كانت أكثر تجذيراً لقضاياها، وهو ما يعكس استراتيجية المعالجة المعرفية ارتباطاً بالتراث الاجتماعي والفكري لعالمنا العربي.

نطمح إلى أن تركز مجلة «ذوات» في الأعداد المقبلة في طروحاتها وملفاتها على كشف «المسكوت عنه» في الثقافة العربية

وتابع عبدالعال أن «ذوات» أشاعت روح المكاشفة الرصينة دونما ابتعاد عن عقلانية العرض وتماسك الرؤية، كما حرصت على وحدة الموضوعات كي تغذي بعضها البعض.

وعن مضمون المجلة وطرق تناولها في أعدادها على مدار العام وما إذا كانت ضمن التوقعات، أوضح: لاحظنا تنوع موضوعات «ذوات» ما بين السياسي والفكري والمعرفي والأخلاقي؛ لأنَّ أية ظاهرة ثقافية لها جوانبها المتعددة، فالثقافة تتمتع بآفاق كلية مع تجلياتها الخاصة نوعياً، والأهم، وفق عبدالعال، أن معالجة المجلة واكبت تطور الظواهر وتغيرها، فعلى سبيل المثال، إذا تأملنا قضايا المرأة كما قرأنا نجدها تلتصق بسلطة التقاليد، وهذه بدورها تختلط بتأويلات الدين ثم تمرّر على أجنحة النصوص المقدسة. وإذ يبدو الغبن الواقع على المرأة سلوكاً فردياً، فإنَّه ينال موافقةً شبه جماعية تبعاً لمغالبة التقاليد لأي نزوع تحرري. من ثم كم رجَّحَ تناولُ ذوات لقضاياها منظوراً بين معرفي (متداخل التخصصات). فليس الملف اجتماعياً فقط ليعالجه الباحث الاجتماعي، ولا نفسياً فحسب، حتى يرتاده السيكولوجي، ولا دينياً ليطرحه هكذا دارسو الدين، لكنه كل ذلك معاً.

ويأمل الباحث من المجلة مستقبلاً أن تطرح كافة الملفات الشائكة بنفس الطريقة من زوايا متنوعة، فالأجدى طريقة التناول من حيث الرؤية؛ لأنَّ ثقافتنا العربية تحتاج إلى رؤى مبدعة لا عرض القضايا، وهنا ثلاث ملاحظات يدرجها عبدالعال أهمها: هناك تناول

للقضايا دون توجه تعبوي، لكن النبرة التعبوية لبعض الأوراق- إن وجدت- تفقد بُصلة المجلة نحو التغيير المنشود، فضلاً عن ضرورة توسيع نطاق الملفات بكل مجالات الثقافة، مثل قضايا المجتمع والتراث والحداثة وما بعد الحداثة والفكر النقدي والقراءات المختلفة للواقع والمشروعات الفكرية والسياسية والإبداع بجوانبه. وفي هذا يمكن إبراز الطابع العضوي للثقافة كما يقول أنطونيو جرامشي؛ أي طابعها المؤثر والثوري في الحياة.

وتابع عبدالعال حديثه: إن للمجلة عادة مقدمتين (مقدمة التحرير+ مقدمة الملف)، وفي هذا الصدد يتساءل: لماذا لا يكون الملف أوراقاً متعمقة مع تضمين مقدمة الملف داخل مقدمة التحرير؟ ذلك حتى لا يحدث انفصال، كما أن تقديم الملف طرح لما سيُعرض، بينما يُحبذ أن يكون رؤية للقضية (ومن ثم الأوراق) نقداً أو تحليلاً، بذات الوقت لماذا تكتب المراجع بعد الملف في ورقة مستقلة، فهي توجد في الهوامش ابتداءً، منوها إلى أنه يُفضل الحد من الأوراق التقليدية وإعطاء الأفكار المبتكرة مجالاً أوسع.

وللنهوض بـ «ذوات» يتطلع عبدالعال، على قدر أهمية المجلة، إلى تطورها أسلوباً وفناً ومضموناً، وذلك بتجديد المعايير والأهداف التي تحكم آلية العمل.

ورأى عبدالعال أن الملفت فنياً أنَّ بعض الصور المصاحبة للمقالات قد تأخذ حيزاً كبيراً على حساب المضمون، مستدركاً «صحيح الصور معبرة غير أنها أحياناً ترهق النص وتقطع تدفقه، وأحياناً لا تكون مناسبة للمعنى»، كما أنَّ ترتيب المقالات من حيث المضمون، «لا يجري وفقاً لعناصر القضية المطروحة»، وكذلك رأي «ذوات» إذ هناك مقالات، وفق قول عبدالعال، أقرب لموضوع الملف من غيره، وحين لا يوجد ترتيب مناسب، سيحدث انقطاع ثم اتصال مرة ثانية. وفي هذا يُراعى لو ثمة مقال قريب لملف العدد أن يتناوله من زاوية مكملة.

أما مضمون «ذوات» فكان، بحسب الباحث «خصباً» في كل الأعداد تقريباً، لكن من الضروري عرض الآراء المتباينة أيضاً، كيلا يغدو الهدف البعيد سبباً في تشابه الأفكار والمضامين، مشيراً إلى أن دلالة اسم المجلة «ذوات» يشي بالاختلاف والابتكار والخصوصية، وهذا ما تؤكده دائماً. وعليه، لِمَ لا يُراعى هذا البعد؟

واقترح عبدالعال تعدد المحاورين في باب حوار «ذوات»، ولا يكون بين «المحاور المحرر» وبين الضيف فقط. كما يمكن استحداث باب خاص بالنقد «فكراً وممارسة»، حرصاً على مساءلة الأطروحات والاتجاهات السائدة وتبيان حقيقتها، ويُعنى أيضاً بعرض تجارب التعايش والمشروعات الثقافية المفتوحة، وفي كل ما سبق يُفضل اختيار الإسهام الحقيقي.

المهدي: تجربة رائدة في قبول الأنا والآخر

أما الباحث والأكاديمي المصري الدكتور سامح المهدي، فيعتبر نفسه أحد المهتمين والمتابعين للصحافة الإلكترونية بصفة عامة، وبصفة خاصة تلك التي لها صلة بالأبحاث العلمية خاصة الثقافية والأدبية منها، متابعاً أن أهم ما تتميز به مجلة «ذوات»، يعود إلى أنها إحدى نوافذ نشر الثقافة والفكر من خلال إظهار وتبني أعمال الباحثين والكتاب، كما أنها تعطي حرية الاطلاع للمريدين من رواد الفكر الذين يجدون في النشر أو الاطلاع ما يفوق طاقتهم المادية، حيث اتخذت بعض المجلات الإلكترونية من الأعمال الفكرية مصدراً للربح.

وتمتاز «ذوات»، بحسب المهدي، بتنوع موضوعاتها ما يقدم للقارئ غذاء عقلياً متنوعاً، وكذلك حرية إبحار العقول في موضوعات لا قيود عليها وليست حكراً على فئة بعينها دون أخرى، مؤكداً أنها تجربة رائدة في قبول الأنا والآخر.

أما عن مستوى الأبحاث التي عرضت من خلال المجلة، فهي بلا شك، في نظر المهدي، تستحق كل التقدير؛ حيث التفاوت في أساليب العرض للموضوعات، وهي من مميزات «ذوات» نظراً لاختلاف البيئات الثقافية في بيئتنا العربية، والتي ينتمي إليها أصحاب الموضوعات والأبحاث المنشورة لدى المجلة.

وفيما يخص التطلعات المستقبلية للنهوض بالمجلة، رأى الباحث أن على المجلة أن تهتم بتكثيف نشر الموضوعات التي تمس شعوبنا العربية بصورة مباشرة، وتحاول من خلالها أن ترق بتفكيره وثقافته، وتعالج بصورة أو بأخرى تلك السفاهة الفكرية والاضمحلال الأخلاقي التي ساهمت وسائل الإعلام المتعددة- التي لا حصر لها- في نشره؛ إذ ابتعدت عن الدور الحقيقي الذي نشأت من أجله منذ بداية التلفاز العربي في الستينيات، فالمجلات الإلكترونية تحمل على عاتقها ذلك الدور الذي كانت تلعبه الصالونات الثقافية قديماً بما تحمله في داخلها من تنوع، وهو الدور الذي كتب على مؤسسة «مؤمنون بلا حدود»، وما يصدر عنها من مجلات وخصوصا «ذوات» الارتقاء بمستوى شعوبنا الأدبي والفكري والوقوف أمام الوجه القبيح للمتطرفين فكرياً.

أشاعت مجلة «ذوات» روح المكاشفة الرصينة دونما ابتعاد عن عقلانية العرض وتماسك الرؤية



سوريا: «ذوات».. العلم كله في العالم كله

الجباعي: مجلة تنويرية، تندرج في مشروع تنويري

رأى المفكر السوري جاد الكريم الجباعي أن الكتب والمجلات والصحف «شخصيات» أو أشخاص معنوية: فكرية وأدبية وفنية وعلمية وثقافية وإعلامية وتعليمية وترويحية.. يؤكد هذا أنها تُعامَل، في بلادنا، معاملة الأشخاص الطبيعيين، فتمنع من الانتقال والتنقل، أي من الانتشار والتداول هنا أو هناك، أو تحتاج إلى تأشيرة دخول (فيزا)، وتحبس أو تسجن (تصادر)، وتتعرض للتعذيب، بمقص الرقيب، ففي سوريا، على سبيل المثال تُمزع من المجلات «المستوردة» بعض المقالات مزعاً، لكي تظل آثار التعذيب ماثلة على جسدها.

وتابع الجباعي حديثه: نشكر الله أن الرقيب السوري لم يفطن إلى مؤسسة «مؤمنون بلا حدود» ومجلاتها القيمة، ومنها مجلة «ذوات»، فلم يحجبها عن القارئات والقراء والباحثات والباحثين.

وأردف المفكر أن «كل وصف لشخص طبيعي أو معنوي ينطوي على تقليص، ويخفي أكثر مما يظهر، ومع ذلك، لا بد من الوصف، لذلك سأصف مجلة «ذوات» بأنها مجلة تنويرية، تندرج في مشروع تنويري، اختارته لنفسها مؤسسة «مؤمنون بلا حدود». والتنوير بلا حدود؛ لأنه نشاط يتجه إلى المستقبل، ويتوخى الأفضل والأجمل، وما يمكث في الأرض، فيعمرها ويعمر نفوس أهلها».

ولعل ميزة المجلة التنويرية تكمن، بحسب الجباعي، في كونها «ذوات»، (جمع ذات)، بلا وصف، أي بلا تحديد، ذوات بلا حدود، كل منها تقول نفسها، وتكتب ذاتها، وتفكر بعقلها هي، وتحكم بضميرها هي، وذلكم هو التنوير.

وأضاف: حين نتحدث عن ذوات مفكرة وأخلاقية، إنما نتحدث عن ذوات مختلفة في الرؤى والمواقع وزوايا النظر والمرجعيات، تشكل مجتمعة، في فضاء المجلة، ما يشبه ألوان قوس قزح، وهذا وجه آخر من وجوه التنوير؛ أعني الاحتفاء بالاختلاف وتباين وجهات النظر، وكأني بهذه المجلة تترجم قول أبي حيان التوحيدي: «العلم كله في العالم كله».

إن ملفات المجلة، بحسب المفكر، من ملف الظاهرة الداعشية (العدد الأول) إلى ملف ما بعد الإسلاموية (العدد التاسع عشر) ومما بينهما، تشير كلها إلى عطش المجلة، بل إلى تحسسها عطش القارئات والقراء والحاجة إلى التنوير، لأن طيف الملفات بين هذين الحدين: الداعشية وما بعد الإسلاموية، يطرح أسئلة محورية على الفكر العربي عامة، ويختبر مقاربات، لا يتوقع أحد أن تكون متشابهة، ولا

سيما الأسئلة المتعلقة بأوضاع المرأة وحرية الاعتقاد وأخلاق التسامح واقتصاد المعرفة.

غير أن المهم في هذا المجال، وفق الجباعي، أن تظل الأسئلة مفتوحة، وتحتمل مقاربات جديدة، لا إجابات. فقد يكون من الضروري فتح ملفات النسوية الجديدة أو ما تسمى بالموجة الثالثة، على سبيل المثال، لتجاوز الرؤى المبسَّطة والحقوقية غالباً لقضية المرأة، بما هي قضية مفتاحية لسائر القضايا الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، تتوقف عليها سلامة الهيكل الأساسي وحداثته، لأي مجتمع، وملفات الكشوف العلمية الأحدث وإشكاليات علاقة العلم بالعمل، ورهانات الكونية والمعاصرة وأثر المعرفة العلمية في تغيير زاوية النظر إلى الكون والعالم، وفي إصلاح النظم التربوية والتعليمية وتأهيل السلطات البيداغوجية واستقلال المجالات، وفقاً لرؤية أيكولوجية تدمج منجزات العلوم الطبيعية والإنسانية في نسيج معرفي متناغم، هو شرط ضروري للنمو والتقدم.

ويأمل الجباعي ألا يكون الاحتفاء بمرور سنة على مجلة «ذوات» «نوعاً من تحيين لحظة البداية، وإعجاباً بما تحقق، وهو مما يستحق الإعجاب، بل لحظة اسئناف، تستفيد من تراكم المعرفة والخبرة، ولا تطمئن إلى شيء أكثر من النقد. لذلك لن نطفئ شمعة السنة الأولى، بل سنشعل شمعة أخرى. مبروك وكل عام وأنتم بخير».

إسبر: منارةً للأدباء والكتاب والباحثين

من جهتها، قالت الشاعرة السورية فرات إسبر إن العالم شهد ويشهد، خاصة خلال هذه السنوات القليلة، تغيرات مرعبة على الصعيد الثقافي والسياسي والديني؛ إذ دخل العالم في متاهةِ القتل والدماء تحت ما يسمى ظاهرة الإرهاب.

وبالرغم من كل المحن التي نمر بها، تبقى هنا وهناك جوانب مضيئة في حياتنا وواقعنا، جوانب من المعرفة والثقافة والعلم، تفضح ملامح هذا القبح وتبين أسبابه في عالم عجز عن فهم ظاهرة الإرهاب كحالة نفسية عقيمة يعاني منها هؤلاء البشر.

في خضم هذا العالم متراكم التعقيد، والذي نحن بحاجة فيه إلى كشف الضوء عنه، جاءت «ذوات» بعددها الأول، والذي كان «ظاهرة مهمة» في جرأة البحث والتقصي والكشف عبر انطلاقتها الأولى، والذي خُصص للظاهرة الداعشية لتثبت لنا المجلة بأن الكلمة «أقوى من الموت والظلام».

وإذ تأتي ذوات بهذه القوة، فهي تتابع، وفق إسبر، طريقها في كشف عالمنا عبر ملفات غنية وقيّمة، وأصبحت بعمرها القصير

نشكر الله أن الرقيب السوري لم يفطن إلى مؤسسة «مؤمنون بلا حدود» ومجلاتها القيمة، ومنها مجلة «ذوات»، فلم يحجبها عن القراء

«منـارةً للأدبـاء والكتـاب والباحثـين مـن جميـع أنحـاء العالـم»، منوهـة إلى أن المجلـة لـم تكـن منغلقـةً عـلى ذاتهـا، وإنمـا أنـارت لنـا عـبر باحثيهـا وكتّابهـا أسـماء جديـدة ومتمـيزة ومختلفـة، لـم نكـن نسـمع بهـم عـبر المجـلات الأخـرى الـتي لهـا تكتلاتهـا الخاصـة، كمـا هـو معـروف وظاهـر في واقـع الثقافـة العربيـة.

فمـن عددهـا الأول الـذي انطلـق بملـف الظاهـرة الداعشـية إلى عددهـا الثالـث الـذي ضـم ملـف هويـة المـرأة العربيـة بـين الدينـي والثقـافي، والـذي كُشـفت فيـه هواجـس كثـيرة مـا زالـت تعيشـها المـرأة، ومـروراً بأعدادهـا مختلفـة المواضيـع، والـتي لا يشـبه أحدهـا الآخـر، ففـي كل عـدد جديـد نـرى أبحاثـاً جديـدة وأسـماء جديـدة، وقضايـا كثـيرة كشـفت عنهـا «ذوات» في مراحـل إصدارهـا الـتي بـدأت بقـوة وثبـات إلى جميـع الأعـداد الـتي أراهـا تمثـل رافـداً غنيـاً وثريـاً للمكتبـة العربيـة عـلى مختلـف الجوانـب، وآمـل أن أراهـا مطبوعـة ورقيـاً، كي لا نخـسر هـذا الكـنز الثمـين، لنغـني بـه مكتبتنـا العربيـة عـلى مـدى أجيـال وأجيـال.

دقوري: تنوع الموضوع وغنى المضمون

في حـين بينـت الكاتبـة والأكاديميـة السـورية الدكتـورة شـيرين دقـوري أن مجلـة «ذوات» الصـادرة عـن مؤسسـة «مؤمنـون بـلا حـدود» تجربـة «رائـدة ومميـزة، أكاد أجـزم أنهـا في المرتبـة الأولى بـين التجـارب الإعلاميـة الثقافيـة مـن حيـث تنـوع الموضـوع وغـنى المضمـون».

وبالنسـبة إلى الملفـات الـتي تطرحهـا المجلـة وطريقـة عرضهـا، أوضحـت دقـوري أنهـا «متنوعـة وغنيـة، وربمـا تصلـح لأن تكـون المرجـع الأول للباحـث أو القـارئ للاطـلاع عـلى الحركـة الثقافيـة والفكريـة في العالـم العـربي والغـربي؛ كونهـا تواكـب القضايـا والأحـداث المسـتجدة دون إهمـال لأصـول تلـك القضايـا وجذورهـا تاريخيـاً».

وعـن المقترحـات الـتي تسـهم في الارتقـاء بالذائقـة الأدبيـة والثقافيـة والنهـوض بالمـشروع التثقيفـي والتنويـري للمجلـة، طالبـت دقـوري بأهميـة «التركيـز أكـثر عـلى الـرأي والـرأي المخالـف، والتوسـع في القضايـا الخلافيـة، ولنـترك للقـارئ الحكـم فيمـا بينهـا واختيـار المجـال الثقـافي الـذي يرتضيـه روحـاً وعقـلاً».

صالح: تؤسس لإمكانية مفتوحة من الحرية العقلية والنقد الرصين

أمـا الكاتـب والباحـث السـوري نبيـل عـلي صالـح، فأشـار إلى أن تجربـة عـام مـن عمـر مجلـة «ذوات» الإلكترونيـة، كمجلـة ثقافيـة تعـنى بالشـأن المعـرفي التوعـوي لأجيالنـا العربيـة الشـابة، لا يمكـن

تقييمها والتأمل بها، في خلاصة مصغرة لا تتعدى بضعة أسطر، ولكن بالإجمال العام- وبعد المتابعة والتدقيق في طبيعة الحيثيات الفكرية والإشارات المعرفية التي ألمحت إليها والتزمتها في منصتها الإلكترونية عبر عام كامل- أمكننا القول بأنها تجربة مهمة كماً ونوعاً، تؤسس لإمكانية مفتوحة من الحرية العقلية والنقد الرصين في عموم اشتغالاتنا الثقافية العربية الواسعة.

وبين صالح أن المجلة بدأت تحث الخطى بثقة وهدوء ملفت، ورزانة واقعية، وتثبت حضوراً حياً في عالم الفكر والثقافة العربية من خلال نوعية الملفات التي عالجتها باختصاصات رائدة، وهذا ما لاحظناه من خلال زيادة معدلات ونسب متابعيها من الجمهور الثقافي المميز، ونوعية الباحثين الذين بدأت باستقطابهم إليها.

قيمة (وأهمية) هذه المجلة، بحسب صالح، تكمن أيضاً من حيث كونها جزءاً من مشروع فكري تنويري عام رائد يشتغل على العقول والأفكار، أعني به مشروع المؤسسة الأم «مؤمنون بلا حدود»، وهي جاءت لتكمل (أو لتكون) حلقةً مهمة من حلقات هذا المشروع الحيوي لشبابنا ومجتمعاتنا العربية التي كان الترهل الفكري، والضعف الثقافي النقدي لشبابنا، من جملة مسببات انحطاطها، وعطالتها العملية المستمرة حتى اليوم.

وأوضح أن المشاريع المعرفية التنويرية التي تعمل على إثارة دفائن العقول باتجاهات الفكر والنقد والمعرفة الرصينة، وتهيئة أرضية متينة ومعيارية من الوعي (الفعال) بالذات والعصر، هي «من أصعب أنواع المشاريع، وأقلها تحصيلاً للعوائد الاستثمارية (حتى في مجالاتها العقلية القريبة المدى بطبيعة الحال)؛ لأنها تحفر في الوعي والتاريخ وجذور الثقافة العتيقة، وإشكاليات الحاضر المعيش لأمة يشعر شبابها بالهزيمة النفسية والحضارية، وهنا بيت القصيد.

وأعرب صالح عن أمله في أن تصبح «ذوات» - التي تقف اليوم في مراجعة نقدية لعام فائت من عمرها الزمني الثقافي - قابلة للتجدد في ملفاتها ومبانيها ومنهجيتها، وتنوع الآراء النقدية للباحثين في المواضيع المطروحة فيها، في ظل مناخات قاسية مفروضة عليها وعلينا جميعاً كعاملين في الشأن الثقافي، من هيمنة نوعين؛ الثقافة والإعلام (الإلكتروني والورقي)، ثقافة وإعلام تجهيلي قروسطي، وإعلام سلطوي رسمي «دوغماتي» تضليلي، يزيف الحقائق، ويغطي على الأحداث، ويحرف الوقائع، يمنع الناس من قول الحقيقة، ويقوم بتزييفها كيفما يريد.

قيمة هذه المجلة تكمن أيضاً في كونها جزءاً من مشروع فكري تنويري عام رائد يشتغل على العقول والأفكار، وهو مشروع المؤسسة الأم «مؤمنون بلا حدود»

المغرب: «ذوات» فتحت أعْيُناً كثيرة على موضوعات لها خطورتها

أمعضشو: ملفات وازنة فيها الكثير من الوهج والتأثير

وفي معرض تقييمه لما طرحته المجلة، قال الباحث المغربي د. فريد أمعضشو: لا يملك مَنْ يتصفح أعداد مجلة «ذوات» الإلكترونية، منذ عددها الأول إلى العدد التاسع عشر، منذ إصدارها ملفّاً عن الظاهرة الداعشية إلى ملفها الأخير عن «ما بعد الإسلاموية»، إلا أن يثمّن عاليا هذه التجربة الصِّحافية التي تَعِدُ بالكثير، والتي يُنتظر منها أن تستمر في نهجها اللاحب الرامي إلى إشاعة فكر تنويري مسؤول، وإلى الوقوف في وجه أية أفكار منحرفة أو شاذة، لاسيما في اللحظة الحضارية الآنية التي تمر منها الإنسانية جمعاء بمرحلة دقيقة تستلزم غير قليل من التيقظ والتكاثف.

وللثقافة الجادّة دور أساس في هذا الإطار؛ وفق أمعضشو الذي رأى أن هذه الثقافة التي ينبغي أن توفَّر لها منافذ للترويج والانتشار، سواء عبر مَحامِل ورقية أو رقمية؛ وقد جاء صدور مجلة «ذوات»، قبل عام من الآن، لتضطلع بهذه المهمّة الحاسمة؛ فقد آمن القيّمون عليها، منذ البداية، بـ «الدور الاستراتيجي والفاعل للثقافة والفكر في تنمية المجتمعات، وصناعة الحياة، ونهضة الإنسان، ومساعدته على مواجَهة التحوّلات والانقلابات الخطيرة التي يشهدها العالم العربي اليوم»؛ كما جاء في افتتاحية العدد الأول.

وأضاف الباحث أن ملفات المجلة كلها كانت في المستوى المطلوب؛ لأنها عالجت قضايا وإشكالات تحظى بالرّاهِنِيّة والأهمية القصوى، وتستأثر بالاهتمام الواسع في جميع الأوساط الرسمية وغير الرسمية، ولأنها فتحت أعْيُناً كثيرة على موضوعات لها خطورتها يستوجب من الجميع أخذها بالاعتبار، والتعامل معها بالجدّية اللازمة.

وممّا زاد الملفات أهمية وتميّزاً، وفق أمعضشو، طريقة تناولها، من قبل باحثين مشهود لهم بالكفاءة والاختصاص، من شتى الأقطار العربية، والتي تمتاز بعمق التحليل والمعالجة، ومقارعة الحجة بالحجة، والابتعاد عن الإقصاء والتعصب المَقيت، ولعل هذه الطريقة العلمية المؤسسة على قواعد راسخة، ومنطلقات ثابتة، هي التي ضَمِنَت لعددٍ من أبحاث المجلة وملفاتها الوازنة كثيراً من الوهج والتأثير.

ودعا أمعضشو المجلة، ومَنْ يرعاها، إلى الاستمرار في نهجها الذي أشار إلى بعض معالمه، وإلى الانفتاح على طاقات وكفاءات أخرى مؤهّلة لإثراء النقاش في ملفاتها القادمة، وإلى تخصيص حيّز أكبر للشأن الأدبي والفني بوصفه يُسْهم، هو الآخر، في تحقيق رهانات المجلة الكبرى، وإلى الإسراع بتحويل هذا المنبر الإعلامي، الذي سجّل تألقاً ملحوظاً في ظرف وجيز؛ بفضل طاقم صِحافيّ نشيط متمرّس، إلى مجلة ورقية شهرية.

بن الوليد: مكّنت أسماء جديدة من الكتابة

في حين رأى الناقد والأكاديمي المغربي يحيى بن الوليد أن انتظام مجلة «ذوات» ضمن «مؤسسة مؤمنون بلا حدود» أعطاها مصداقية وشرعية في الحقل الفكري العربي ككل بالنظر للمرجعية الفكرية المحكمة للمؤسسة وعلى نحو ما تتأكد من خلال الأبحاث المنشورة؛ والرصينة، للمناسبة، مشيراً إلى أن «الأبحاث المنشورة، في «ذوات»، لا ترقى إلى الأبحاث المنشورة في موقع المؤسسة».

وفيما يتعلق بالملفات التي عالجتها «ذوات» لفت بن الوليد إلى أنها «متفاوتة»، والأهم أنها «مكّنت أسماء جديدة وغير معروفة من الكتابة والتدخّل»، منوهاً إلى أنه «من الأفضل تخصيص ملفات حول أسماء محدّدة أيضاً».واقترح الباحث على المجلة إعادة النظر في الإخراج، فالخط ضاغط، وفق رأيه.

لمودن: ترسيخ ثقافة التواصل والحوار

أما الناقد والكاتب المغربي حسن لمودن، فرغم أنه لا يدعي أنه يتابع مجلة «ذوات» في كل أعدادها وأنشطتها عن كثب، لكنه لا يخفي أنها أثارت انتباهه أكثر من مرة، وتحديداً بفضل ما تتميز به من جرأة في معالجة موضوعات حساسة مرتبطة بالراهن المعيش، موضوعات لا تخفى أهميتها بالنظر إلى ما يعرفه مجتمعنا والعالم من حولنا.

وهنأ لمودن «ذوات» لإضاءتها شمعتها الأولى بعد سنة من العمل والعطاء، وتمنى لها المزيد من التألق. واقترح أن تنفتح المجلة على التحليل النفسي، ليس لأن مفهوم الذات مركزي في التصور النفساني فقط، بل لأن هذا التحليل لم يستطع بعد، أن يجد له موقعاً ملائماً داخل المجتمع/ الفكر العربي، مع أن العديد من ظواهر هذا المجتمع - وبعضها كان موضوع درس في أعداد المجلة - لا يمكن تحليلها من دون أن يكون التحليل النفسي واحداً من أدوات التحليل، وأن تُخصص المجلة أكثر من عدد لموضوعات لا تخفى أهميتها منها: الإنسان العربي والتحليل النفسي، الفكر العربي والتحليل النفسي، النقد الأدبي والتحليل النفسي، المجتمع العربي والتحليل النفسي، الإسلام والتحليل النفسي.

كما اقترح لمودن، من جهة أخرى، أن تنفتح المجلة على الدراسات البلاغية والحجاجية وتحليل الخطاب، وخاصة ما يتعلق بالدرس التطبيقي وتحليل خطاباتنا اليومية والإعلامية والسياسية والدينية، مع استثمار ما تحقق من تطورات في التصورات والمنهجيات والمفهومات في حقول البلاغة والحجاج وتحليل الخطاب، وذلك من أجل العمل على ترسيخ ثقافة التواصل والحوار والإقناع بديلاً لكل هذا العنف الذي يهدد المجتمع الإنساني.

الطريقة العلمية المؤسسة على قواعد راسخة، ومنطلقات ثابتة، هي التي ضَمِنَت لعددٍ من أبحاث المجلة وملفاتها الوازنة كثيراً من الوهج والتأثير

الأردن: «ذوات» منبر جاد وجريء وفضاء يتعدى الجغرافية العربية

العدوان: إطلالة مختلفة على مساحات خطيرة ومهمة

يأتي مشروع مجلة «ذوات» وفق قول الكاتب المسرحي والقاص الأردني مفلح العدوان، كتحدٍّ حقيقي، وفضاء تنويري، يتعدى الجغرافية العربية، إلى الآفاق العالمية إنسانياً، ويحفر عميقاً في مواضيع كانت لفترة قريبة لا يجرؤ أي منبر إعلامي على الخوض فيها.

وتابع العدوان حديثه «بين الأسئلة الملحة، والأجوبة الجريئة، تابعتُ ملفاتها، ومواد أعدادها، ونخبة المفكرين والكتاب الذين أضافوا بشكل نوعي نقاشاً وتحليلاً ورؤى مفيدة لكل التجليات التي تم طرحها عبر أعداد المجلة»، ولعل تلك الملفات التي شكلت، بحسب الكاتب، إطلالة مختلفة على مساحات خطيرة، ومهمة، تعطي مؤشراً لتوجه المجلة التثقيفي والتنويري، في عصر يشكل منعطفاً على المستوى العربي والعالمي، ويحتاج الى تناول جريء لما هو مكرس وموروث، ليكون في المنتج النهائي تكوين رؤى مختلفة، وجديدة، وجريئة لكثير مما كان مطروقاً بطرق وثنية كلاسيكية كانت تحتاج إلى مراجعة وتطوير، وكثير منها كان لا بد من نسخه وهدمه، واجتراح منظور حداثي موضوعي، يتواءم مع التطورات والتغيرات التي تعصف بالعالم وبتسارع قل نظيره.

ورأى العدوان أن مع هذا المنجز الذي تحقق خلال عام كامل من عمر المجلة، وترك أثراً على الساحة الثقافية، والمنابر الفكرية، لا بد في المستقبل من البناء عليه، وبجرأة عالية، مع الانفتاح أكثر على أثر الميديا ووسائل التواصل الاجتماعي الحديثة، مع إدماج للمؤسسات الأكاديمية للخروج من عزلتها، لتوريطها في هذا الحراك الفكري، إضافة إلى المؤسسات الثقافية، والباحثين والأشخاص النشيطين، لتكون هناك مزاوجة بين الثقافي والسياسي، والعلمي والإنساني، فتكون المحصلة إثراء للمشهد بشكل عام، عبر منبر جاد وجريء متمثل في مجلة «ذوات»، ومؤسسة «مؤمنون بلا حدود» الأمّ.

عبدالخالق: إخلاص معرفي ورؤية فنية ضاعفت من مصداقية المجلة

من جانبه، نوه الأكاديمي والباحث الأردني الدكتور غسان عبدالخالق إلى أن مجلة «ذوات» اجتازت خط الاختبار بسرعة قياسية؛ فقد تمكنت من جذب اهتمام المثقف العام والمتخصص على حد سواء، من خلال إصرارها على ترسيخ ثقافة المراجعات الجذرية لعدد من المسلّمات السائدة وفق منظور عقلاني معتدل مسوق بدافع الإخلاص للحقيقة وليس بدافع الاستفزاز. ولحسن

الحظ، فقد تعزز هذا الإخلاص المعرفي برؤية فنية مهنية ضاعفت من مصداقية المجلة لدى المتلقي؛ فتطابق تميز المضمون مع تميز الشكل.

وبين أنه يتطلع على صعيد المضمون أن تفسح «ذوات» المجال أمام عدد أكبر من المثقفين والفنانين الشباب كي يدلوا بدلوهم إلى جانب جيل الرواد وجيل المخضرمين. أما على صعيد التقنية، فحبذا لو تم تمكين الكتاب من الحصول على روابط مقالاتهم منفردة إلى جانب رابط العدد مجتمعاً، معرباً عن أمله في أن تواصل المجلة مشروعها التثقيفي والتنويري.

رفايعة: مشروع ثقافي يحارب جيوش الظلام

بدورها، أشادت القاصة الأردنية جواهر رفايعة بمجلة «ذوات»، وقالت إنها استطاعت في السنة الأولى من عمرها أن تفتح ملفات تطرح من خلالها مسائل خلافية وإشكاليات تتعلق بقضايا كبرى في ثقافتنا العربية والإسلامية، وفي حاضرنا الراهن، خاصة في هذا الوقت الذي يشهد فيه العالم مواجهات فكرية حول التطرف والإرهاب والتسامح، وحرية الفرد ومسؤوليته ضمن هذه الحرية، وأسئلة ثقافية وأدبية تنشغل فيها الساحة الثقافية العربية.

وأبدت، الكاتبة المقيمة في الإمارات، إعجابها بالمعالجات التي قدمتها المجلة خلال مسيرتها القصيرة نسبياً الحافلة بالإنجاز، سيما في موضوعة المرأة، والتي تناولتها بموضوعية وإخلاص وبعيداً عن خطابات الندية، مستندة في ذلك إلى موروث المرأة الديني والثقافي والحضاري الذي تنطلق منه لتحقيق ذاتها وكينونتها وشرطها الإنساني الفاعل والمؤثر.

ما يحسب للمجلة، وفق رفايعة، أنها قدمت بعض هذه الملفات تزامناً مع الأحداث التي تجري في العالم من قضايا تتعلق بالإرهاب والتطرف، إذ حاولت من خلالها الإجابة على كثير من الأسئلة المعلقة التي يتم تداولها وطرحها في المحافل الإعلامية والفكرية وحتى المحافل الاجتماعية وعند الأفراد العاديين، كما قدمت ملفات اجتماعية وتطرقت إلى مقالات في التربية والمرأة من وجهة نظر باحثين ومختصين تم ربطها بجوانب نفسية وتربوية وثقافية.

وبما أن الفكرة سلاح له من السلطة والتأثير والقوة ما ليس للرصاص والقنابل، وفق قول القاصة رفايعة، فإنها تتطلع أن تواصل «ذوات» مشروعها وخطتها الثقافية والفكرية وتحارب من خلال الكلمة والفكرة جيوش الظلام، وتبقى كما هي الآن مواكبة للقضايا الساخنة والمصيرية التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية.

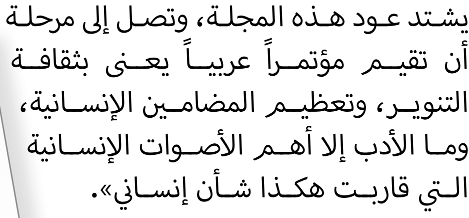
تعزز الإخلاص المعرفي للمجلة برؤية فنية مهنية ضاعفت من مصداقيتها لدى المتلقي؛ فتطابق تميز المضمون مع تميز الشكل

كما اقترحت رفايعة على المجلة أن تفتح آفاقها أكثر للكاتبات العربيات، لا سيما الشابات منهن، فضلاً عن أهمية إشراك الشباب العربي الواعي في نقاشاتها ودراساتها، آملة أن تخصص المجلة زاوية للإبداعات المتميزة في الشعر والقصة والأصناف الأدبية الأخرى، كون الثقافة كلاً لا يتجزأ وللإبداعات أيضاً دوراً لا يستهان به في إحداث الفرق.

برجس: المهنية والموضوعية ميزة المجلة

في حين أبدى الشاعر والروائي الأردني جلال برجس سعادته بمجلة «ذوات»، إذ وجد فيها «المهنية والموضوعية التي تميز هذا المشروع الثقافي، وهذه ميزة تطيل في عمر هكذا مشاريع ثقافية، بل وتؤسس لاستمراريتها لتتجذر في وعي القارئ العربي الذي يستحق منها الجدية والمهنية والموضوعية فيما هو موجه إليه».

ونوه برجس أنه حتى تنال المجلة إعجاب أكبر شريحة من القراء، كان لابد من التنوع، وهذا تحقق في «ذوات»، فالذائقات متنوعة، والاهتمامات مختلفة، لكنها في محصلة الأمر تصب في خانة الارتقاء بالسوية الثقافية، وهو تنوع جميل من حيث المحتوى، ومن حيث الشكل البصري.



وتمنى برجس على المجلة أن تذهب نحو «أفكار جديدة تعلي من شأن إنسانيتنا، كأن تتبّع الأعمال الأدبية التي عاينت المواضيع الإنسانية، أو أن تقوم بتخصيص ملفات حول هذا الموضوع، ليتسنى للقارئ العربي مطالعتها»، متابعاً «لابأس أن نحلم بأن يشتد عود هذه المجلة، وتصل إلى مرحلة أن تقيم مؤتمراً عربياً يعنى بثقافة التنوير، وتعظيم المضامين الإنسانية، وما الأدب إلا أهم الأصوات الإنسانية التي قاربت هكذا شأن إنساني».



اليمن: «ذوات» مرجع مهم لكل طالب علم ومعرفة

القيسي: ملتقى كتاب المشرق مع كتاب المغرب

ذكر الباحث والكاتب اليمني، عصام صالح القيسي، أن أفضل معيار لتقويم عمل ما هو معيار «الحاجة» إليه، أو المنفعة التي يقدمها للمستهدفين. ويزيد من قيمة العمل أن يأتي في «اللحظة» المناسبة من الاحتياج، اللحظة الحرجة. ووفقاً لهذين المعيارين قال إن إصداراً كمجلة «ذوات»، لا بد أن يكون عملاً قيماً، أولاً: لأنه يقدم فكراً مغايراً وناقداً يستهدف تفكيك بنية الفكر المسؤول عن تخلف الإنسان العربي وضعفه، وهو في الغالب فكر ديني مستتبت محلياً. وثانياً: لأنه جاء في لحظة حالكة من تاريخنا المعاصر انفجرت فيها كل كوامن الفكر والثقافة والسلوك، بخيرها القليل وشرها العميم، وكأننا كنا على موعد مع كرنفال الجنون والعظمة في آن معاً. الجنون الذي تبدى في مظاهر القمع والتطرف والاستبداد والفساد والدعارة السياسية، جنباً إلى جنب مع مظاهر التضحية والفداء والنضال من أجل تحقيق مستقبل أشرف وأنظف لهذا الإنسان.. وهو ما يدعو إلى التفاؤل أكثر مما يدعو إلى اليأس، لأن الإنسان إذا أراد التغيير الإيجابي، فلا بد أن يتعرف على حقيقة نفسه أولاً، والإصدارات القيمة هي التي تقوم بدور المرآة حيناً، وتقدم خرائط للوصول أحياناً أخرى، وهذا ما تسهم فيه مجلتنا الموقرة ذوات بنجاح يحتاج فقط إلى وقت كاف للانتشار.

وأضاف القيسي أنه بالنظر إلى الأعداد الماضية لمجلة «ذوات»، يبدو واضحاً أن للقائمين عليها رؤية واضحة للأهداف والرسالة، فهي على المستوى الأفقي تتناول قضايا الساحة والساعة في المشهد العربي الراهن بصورة ممتازة، وهي على المستوى الرأسي تقدم هذه الموضوعات بتركيز جيد وتحليل عميق في معظم الأحيان. ومن حسناتها أن أصبحت مقهى يلتقي فيه بعض كتاب المشرق مع بعض كتاب المغرب، في تواصل ضروري ربما نحتاجه نحن المشرقيون أكثر من إخواننا في المغرب العربي. والقارئ المشترك يحتاج للاعتياد على أساليب الكتابة لدى الطرفين، إذا ما صدقنا بوجود أسلوبين كتابيين أحدهما مشرقي يميل إلى التبسيط والوضوح، والآخر مغاربي يميل إلى التدقيق والضبط.

ولتطوير المجلة، قدم القيسي بعض المقترحات التي قد توصل المجلة إلى شرائح جديدة من المهتمين والمثقفين، منها:

١- إعداد ملفات دورية لبعض الكتاب العرب الكبار، في ذكرى وفاتهم، وتحديداً أولئك المحسوبين على عصر النهضة العربية الحديث، من أمثال طه حسين، وتوفيق الحكيم، وسلامة موسى، وغيرهم، للنظر في ما تبقى منهم، وما اكتمل من مشاريعهم أو اندثر، فهذا مهم لإحداث تراكم معرفي عربي.

لابأس أن نحلم بأن يشتد عود هذه المجلة وتصل إلى مرحلة أن تقيم مؤتمراً عربياً يعنى بثقافة التنوير

٢- إعداد ملفات تتناول تطورات بعض القضايا التي أثيرت في القرن الماضي وأحدثت دوياً في وقتها، مثل كتب: «مقدمة في فقه اللغة العربية» للويس عوض، و«الفن القصصي في القرآن» لمحمد خلف الله، و«في الشعر الجاهلي» لطه حسين، وما شابه ذلك.

٣- عمل ملفات لقضايا كوكبية ذات أهمية في رفع مستوى وعي القارئ من الهم المحلي إلى الهم الإنساني، مثل: قضايا المناخ، والتوازن البيئي، والانفجار السكاني، وما شابه ذلك، بالتركيز على أبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية.

حمادي: تضاهي كبريات المجلات العالمية

من جانبه شدد الكاتب اليمني رياض حمادي على أن وجود مؤسسة «مؤمنون بلا حدود» بإصداراتها التنويرية في هذه الفترة «أمر ملحّ؛ لأن للدين والدين المنفتح دوراً ما زال يؤديه في ظل التطرف الفكري والمادي»، مبيناً أن صدور مجلة «ذوات» الثقافية إحدى أدوات تبليغ هذا الدور.

وعلى الرغم من أن دور «ذوات» قد يكون «محدوداً» نظراً لكونها مجلة إلكترونية، لكنها تتواءم مع العصر الرقمي بشكل ممتاز يضاهي كبريات المجلات العالمية من خلال ملفاتها المختلفة وإخراجها البصري المحترف.

وعن محتوى ما تقدمه المجلة، قال حمادي إنها تناولت العديد من الملفات السياسية والدينية والفكرية والأدبية والثقافية المختلفة، وهي بذلك تغطي كافة اهتمامات القراء بشرائحهم المتعددة، مضيفاً «لا أبالغ في القول إن المجلة بكوادرها الخبيرة وملفاتها ومواضيعها، أصبحت مرجعاً مهماً لكل طالب علم ومعرفة».

وعن طريقة تناولها للقضايا المختلفة، قال إنه ومن خلال حديثه عن «ذوات» مع الأصدقاء الكتاب وجد أنها مجلة لا يختلف عليها اثنان؛ فطرحها الموضوعي جنبها الدخول في منطقة المختلف عليها.

وللنهوض بالمجلة، يأمل حمادي أن تواصل «ذوات» الاستمرار في نهجها التنويري مع جرعات إضافية من الجرأة، ويا حبذا لو يتم إصدارها ورقياً حتى تصل لفئة من القراء ما زالت غير قادرة على قراءة الكتب والمجلات الإلكترونية.

ومما يعتبره حمادي مأخذاً على المجلة، من وجهة نظره، أن «حجم الصور المرافقة للمقالات كبيرة نوعاً ما»، لافتاً إلى أهمية إعادة النظر في كيفية إخراجها.

الكميم: تشخص أزمة العربي على كل المستويات

إلى ذلك، قال الباحث اليمني محمد الكميم إن تجربة مجلة «ذوات» «مميزة ومختلفة»؛ لأنها استطاعت أن تمس قضايا فكرية وثقافية وفنية وأدبية إشكالية ومرتبطة بواقع المجتمعات العربية وأسئلتهم الراهنة والملحة، وهذا هو الذي حمل بعض قرائها على تصنيفها في خانة الوسائل الإعلامية الجريئة والكاسرة للتابوهات، والسبب وراء تصورهم هذا، وفق الكميم، يرجع إلى فكرة «سطحية» ملخصها أنها تعيد عرض تلك التابوهات، وتروج لها، ولكن الأمر ليس كذلك؛ لأنها تتجاوز ذلك إلى تقديم قراءات مُسائلة تسعى إلى تشخيص أزمة العربي على كل المستويات، واقتراح بدائل يستطيع بها أن يعيش ويتعايش بعد أن يقبل حتميات التغيرات الحضارية التي تتوطن فيه وفي مجتمعه بالفعل أو بالقوة، ولكن ما سيطرح من علامات استفهام على ما تقدمه، سيرتبط بطبيعة هذا البديل وجدواه ومن يقف وراءه.

مهما كان نوع الأسئلة المشككة، فيكفي تجربة مجلة «ذوات» أنها استطاعت، كما يقول الكميم، أن تواكب المتغيرات السريعة التي تطرأ على الساحة العربية، وتطرح أسئلة وإشكاليات متعلقة بحاضر الإنسان العربي والمسلم ومستقبله، وتعيد مساءلة مسلماته وتابوهاته وحساسياته التي حكمت حياة أسلافه، وغدت تحكمه اليوم دون أية مقاومة تذكر.

حسن: حصيلة معرفية ذات قيمة

من جهته، وصف الكاتب اليمني جمال حسن تجربة مجلة «ذوات» بـ «الفريدة والمميزة»؛ إذ استطاعت أن «تشق لها طريقاً ذا ملامح واضحة وسط ضجيج من الغثاثة الإعلامية»، مبيناً أنها مجلة «رصينة في مضمونها، ومتنوعة في القضايا المعرفية والفكرية التي تتناولها».

وتابع أن في كل عدد من «ذوات» هناك حصيلة معرفية ذات قيمة، وما يلفت النظر أيضاً، هو مساحة الحرية الشاسعة، والجرأة في تناول مواضيع اعتادت الثقافة العربية أن تطرحها في حكم الممنوعات أو المحرمات، لكن السياق الذي تسير عليه المجلة في كسر التابوهات، يأتي ضمن معايير علمية واحترافية عالية المستوى، لافتاً إلى وجود إنجازات للمجلة على كافة المستويات، سواء في المادة الصحفية، أو في الشكل الفني للمجلة وإخراجها.

مجلة لا يختلف عليها اثنان فطرحها الموضوعي جنبها الدخول في منطقة المختلف عليها



وأكـد حسـن أن انطلاقـة «ذوات» كانـت قويـة جـداً مـع انبعـاث الحالـة الداعشـية، وبالتـالي أخـذت المجلـة تنبـش في المـوروث الفقهـي الإسـلامي، وفي الجـذور الذهنيـة والواقعيـة لتلـك الجماعـات المتطرفـة؛ إذ حملـت «ذوات» عـلى عاتقهـا منـذ اللحظـة الأولى مسـؤولية إزاء نـشر خطـاب تنويـري.

وفيمـا يخـص القضايـا والملفـات الـتي تطرحهـا «ذوات» بـين حسـن أنـه «حـتى الآن تعكـس المجلـة جهـداً كبـيراً، منحتهـا بصمـة، والملفـات تبـدو النـواة لـكل عـدد، حيـث يجـري تناولهـا مـن زوايـا متعـددة، وفـق تحاليـل نظريـة شـاملة ومتأملـة في جوهـر تلـك القضايـا، منوهـاً إلى أن كل ملـف تتناولـه المجلـة، هـو محاولـة لإعطـاء صـورة متكاملـة ومتعـددة، ومـع كل عـدد تـبرز قضيـة أو ملـف كنـواة يمكنهـا أن تكـون مـادة تشـبع جمهـوراً مـن المتسـائلين والباحثـين.

ويأمـل حسـن أن تسـتمر المجلـة بنفـس الثقـة والطمـوح لتأديـة مهمتهـا في نـشر فكـر تنويـري وعلمـاني، يسـاهم في نـشر قيـم التعـدد وقبـول الاختـلاف، إلى جانـب مـا تقـوم بـه عـبر خطابهـا في الارتقـاء بالذائقـة الأدبيـة والفنيـة، مشـيراً إلى أنـه وجـد في مجلـة «ذوات» كثـيراً مـن التطلعـات العقلانيـة والجماليـة، راجيـاً لهـا مواصلـة نهجهـا والاسـتمرار في مشروعهـا.





تونس: «ذوات» تنوير وتحديث للفكر العربي انطلاقاً من قضايا حارقة

الجليدي: مضمون جيد وتصاميم جذابة

سلط الباحث والأكاديمي التونسي د. مصدق الجليدي الضوء على النقاط المضيئة التي تحسب لمجلة «ذوات» منذ انطلاقتها، من أبرزها: الوصول إلى عدد محترم من الكتاب العرب الشبان والمجددين أو الذين هم في أوج عطائهم وإبداعهم الفكري، وفي هذا الاختيار قطع من البحث عن مجرد «الأسماء الكبيرة» التي تجتر نفس الأفكار منذ سنوات عديدة، فضلاً عن تنويع المداخل والمقاربات إلى ذات الموضوع، بما يمكن من النظر إليه من زوايا مختلفة، وهو ما يساعد على تكوين فكرة شاملة ومتعددة عنه.

ومما يحسب لذوات، وفق الجليدي، عدم التطويل على القارئ، الذي يبحث عن العمق والإيجاز في نفس الوقت، مع التزام قدر معقول من الروح العلمي في الطرح، إلى جانب التركيز على مسألة التنوير الديني وتحديث الفكر العربي انطلاقاً من القضايا الحارقة، بعيداً عن التنظير المنبت عن الواقع المعيش. وهنالك تركيز خاص على موضوعات التشدد الديني والعنف، والمرأة، والتعليم والمعرفة والإعلام، والأدب.

هذا من ناحية المضمون- أما من ناحية الشكل، فقد اعتمدت المجلة، بحسب الباحث، تصاميم جذابة، تكشف عن عقل شبابي مبدع خلاق، كما وظفت تقنيات إلكترونية مستحدثة.

ورأى الجليدي، رغم تنوع طرق الولوج إلى المعلومة داخل المجلة، إلا أنها تبقى بحاجة إلى قدر من تبسيط الحصول عليها، وجعلها في متناول متصفح المجلة أو الفضاء الرقمي بشكل أيسر، ومن مداخل عدة (الموضوع - المؤلف - المفاهيم الرئيسة.. إلخ).

وذكر الباحث أنه ما زال أمام المجلة الكثير من الملفات الحيوية التي يمكن أن تفتحها من أجل تحقيق أهدافها، وبعمق أكبر، مثل: الفن والموسيقى والصورة والمسرح والسينما في الفكر الإسلامي المعاصر، الثقافة الإسلامية والعلوم الإنسانية، الفلسفة في الثقافة الإسلامية، التصوف وديانة المحبة الكونية، البحث العلمي في مجال العلوم الإنسانية في العالم العربي، أو كيف نبني العلوم الإنسانية في العالم العربي الإسلامي؟، كيف نبني الحداثة في السياق العربي الإسلامي؟ باعتبار أن الحداثة حداثات، بالرغم من وجود المشترك الكوني، القضية الفلسطينية وكيف نوجه بوصلة الوعي الشبابي النضالي إليها عوضا عن التيارات الدينية العنيفة؟

وقدم الجليدي نصيحة- بالمعنى المنهجي للكلمة- لتطوير المجلة، وهي أن يقع تشجيع الباحثين والكتاب في مجلة «ذوات» على

هناك علمية واحترافية عالية المستوى في إنجازات المجلة على كافة المستويات، سواء في المادة الصحفية، أو في الشكل الفني للمجلة وإخراجها

الحفر في إمكانيات تحديث العقل العربي الإسلامي من داخل ممكنات هذا العقل.

وفي ما يتعلق بمقترحات أخرى للنهوض بالمجلة ومواصلة عملها التثقيفي والتنويري، أوضح الجليدي أن الهدف من هذا الجهد النوعي المكثف لـ «ذوات» هو نشر التنوير الديني، وتحصين الشباب العربي من التطرف والعنف، وهنا لا بد من التساؤل عن كيف يمكن أن نصل مباشرة إلى هذا الشباب، الذي من بينه طلبة وحتى خريجون من الجامعات؟ حيث لا يكفي أن نتحدث عنهم في غيابهم، وأن نتدبر «لهم» ما نعتقد أنه صالح بهم؟

هذا التوجه يستوجب، وفق الجليدي، نوعاً آخر من الخطاب، فيه محاورة وفيه تثقيف وفيه نوع من «النقل المعرفي»؛ أي إعادة بناء للمعرفة والفكر، حيث يكون مادة تثقيف وتوعية وتبصرة جذابة بالمعنى العميق للكلمة عقلياً ووجدانياً، دون تطفيل للشباب أو ممارسة نوع من الوصاية على عقولهم.

ولمحاولة تجسيد ما سبق في إطار النشر الفكري الالكتروني، دعا الجليدي إلى التفكير والتحاور والتجريب والتشريك للشباب أنفسهم في إنتاج هذا الضرب من التواصل المعرفي والذوقي الرقمي.

السلامي: ثقافة الحياة اليومية

في حين أوضح الكاتب والشاعر التونسي عبدالدائم السلامي أن كثيراً من وقائع معيشنا الاجتماعي والسياسي والثقافي تنبئ بأن المواطن العربي يتعرّض الآن إلى «اعتداء وجودي مؤلم» تقوده قوّة ظلامية وظالمة تجذبه إلى الخلف، وتتغيّا تجريدَه من كلّ سُموٍّ الأخلاقيّ -وهو جوهر كينونته الحضارية- عبر السعي إلى شحنِه بطاقة كبيرة على نبذ الآخر وإيذائه وإقصائه رمزياً ومادياً.

وقد تقصدت مجلة «ذوات» في المَحاور التي طرحتها للنقاش في أعدادها السابقة التفكيرَ في طبيعة هذا الاعتداء تفكيراً لا تحكمه العواطف والانفعالات، وإنما هو ينهض على دعامة تفكيك أسباب هذه الظاهرة العنفيّة، وتبيّن مراجعها عبر نقاش موضوعيّ بقدر ما اختلفت فيه وجهات النظر تآلفت في التنبيه إلى مخاطرها الحضارية.

ولمزيد من التنويع في محامل المحاور المطروحة للنقاش اقترح السلامي أن تنفتح المجلة، إلى جانب موضوعاتها الفكرية الصّرف، على موضوعات ثقافة الحياة اليومية (اللباس، الفلكلور، العادات الاجتماعية، إلخ...)؛ ذلك أنّ مثل هذه المحاور قد تمكّن القارئ من حسن التواصل مع مدلولات عناصر واقعه والتنبّه إلى سُبُل توظيفها لتحقيق التواصل مع الذات وإكسابها مناعة ضدّ

كلّ انحراف تأويلي ظلامي. ونبه إلى أهمية إصدارها ورقياً، فإن نسخة ورقيّة من المجلّة قد تمنحها قدرة الحضور المادي الجليّ في مكتباتنا الشخصية والعامة، وهو أمر يسهّل قراءتها.

الغزال: في مستوى تطلعات المثقف وأسئلته الراهنة

من جهته، عبر الباحث التونسي عادل الغزال عن سعادته بتجربته مع «ذوات»، وذلك بمساهمته في كتابة مقالات في المجلة منذ انطلاقتها.

وأكد الغزال، أن المجلة كانت في مستوى تطلعات المثقف وأسئلته الراهنة، وهذا تجلّى في كثير من الأسئلة والمشاغل التي قدمتها في ملفاتها الخاصة، في أبوابها المختلفة.

واقترح الغزال، أن تولي المجلة المزيد من العناية والاهتمام بقسم الفنون والأدب، كما عبر عن رأيه بإخراج أعداد جماعية تصدر ورقياً ولو كل ستة أشهر، لتكون في متناول أيدي القراء والباحثين، كأن تكون ملخصة لأهم مقالات الأعداد السنوية. وهنّأ «ذوات» بمرور عام على صدورها، متمنياً أن تبقى منارة فكر مدني يؤمن بسلطة المعرفة وبقيمة الإنسان.

يجب تشجيع الباحثين والكتاب في مجلة «ذوات» على الحفر في إمكانيات تحديث العقل العربي الإسلامي من داخل ممكنات هذا العقل







العراق: «ذوات» واحة الحرية للمثقفين والمفكَّرين

رسول: فسحة ثقافية وفكرية وجمالية للحوار

وفي السياق ذاته، أكد المفكِّر والروائي والناقد العراقي د. رسول محمد رسول أنه حرص منذ ظهور مجلة (ذوات) على قراءتها، وهي الآن في عددها العشرين، «أجدها فسحة ثقافية وفكرية وجمالية للحوار بين المشرق والمغرب، حتى تلقيت يوماً دعوة للمساهمة في كتابة مقالات فيها».

وتابع «في عددها العشرين غدت هذه المجلة جزءاً من قراءاتي الخاصة، أجد فيها دائماً ما يشغلني من التفكير في مشكلات معرفية وثقافية وجمالية راهنة».

وبين رسول أن «ذوات» وفي خلال شهور قليلة، أصبحت محطّ عناية الكثير من المثقفين العرب، والأجمل في ذلك أنها تنفتح على الجيل الجديد من الكتاب، فضلاً عن كبار مثقفي الرعيل الأول والثاني.

ولدت مجلة «ذوات»، وفق الناقد رسول، يسيرة التناول كونها إلكترونية، بدت حاتمية في كرمها من حيث قراءتها أو تحميلها إلى الحاسوب الشخصي، وفي إعادة إشهار أية مقالة تريدها في «بروفايلك» أو في «بروفايل» صديق ما، فهي متاحة للجميع كونها سلسة التحصيل والتصدير، وغالباً ما يغريك اقتناء أية مقال فيها دون تردُّد كونها تصدر برؤية إخراجية جميلة وواضحة.

وأقر رسول بميزة تنفرد بها «ذوات» قائلاً: لم أجد حرجاً في قول ما أريد، لم يتم حذف أية كلمة أو سطر أو سطور قلتها في كل مقالاتي ودراساتي التي نشرتها فيها، وذاك أمر قيّم لأن مجلة «ذوات» هي واحة الحرية للمثقفين والمفكَّرين والمبدعين العرب».

ناصر: متعة فكرية ورصانة علمية

وعن تجربته في الكتابة مع «ذوات» قال الكاتب والشاعر العراقي عواد ناصر «توجست خيفة، مرتين، عندما تم التواصل معي للكتابة بسبب اسم المؤسسة (مؤمنون بلا حدود)، لأكون أحد المساهمين في هذا الموقع»، وأما سبب خوفه، فعزاه ناصر إلى سببين: الأول «ما تنطوي عليه فكرة «الإيمان» الديني من التباس يجعله محترساً إزاء نوع من الانغلاق في وجه «إيمان» مغاير، وهذا الإيمان يولّد سبب خوفه الثاني؛ فأي «إيمان» يجعل من الأفكار المختلفة «غير مؤمنة» لينشأ التعارض غير القابل للحل، كما هو سائد في ثقافتنا العربية والإسلامية.



وتابع الكاتب، المقيم في لندن، «لكنني فوجئت، بعد زيارتي للموقع، بأنني في المكان الصحيح، إذ أتيحت لي فرصة «المتعة الفكرية»، وأنا أفتح الأبواب المتنوعة للموقع إذ اكتشفت تلك الرصانة العلمية في منشوراته، وتعدد زوايا النظر في مقالات ودراسات كتابه المرموقين، وهو «تعدد» يندر أن نجده في مواقع إعلامية تعرض بضاعتها للفرجة، وتجير أقلام كتابها لممول يحوّل كل الأفكار والاقتراحات والأسئلة إلى مادة إعلانية مؤدلجة تتوجه نحو قارئ مرسوم سلفاً ومبرمج على «نمط» لغوي وسياسي محدد قابل لامتصاص أية فكرة، مثل إسفنجة بلا عقل، تعمل تقنياً على «تجفيف» المنابع المتنوعة للمعرفة، بينما نعيش مرحلة مضطربة نجمها «داعش» ومتفرعاته، وهو يضرب ما تبقى من أوطان ورموز معرفية وحضارية على امتداد الأرض من بغداد إلى باريس!

ونبّه ناصر إلى أننا بحاجة إلى مؤسسة «مؤمنون بلا حدود» وما يصدر عنها من إصدارات ومنها مجلة «ذوات» موقعاً يتميز بالأداء العقلاني للتنوير، والمواظبة على تكريس الاختلاف، قولاً وفعلاً، حتى لو مثل هذا مفارقة في أن يكرس الموقع «مؤمنون» ملفاً خاصاً بالإلحاد!.

وهنأ «ذوات» بمناسبة مرور سنة على انطلاقتها، معرباً تأييده لهذا المنبر وكل من يعمل على تطويره ونجاحه.





نحن بحاجة إلى مؤسسة «مؤمنون بلا حدود» وما يصدر عنها من إصدارات ومنها مجلة «ذوات» موقعاً يتميز بالأداء العقلاني للتنوير

فلسطين: «ذوات» عشرون زهرة على الطريق الطويل

أبو رحمة: قوة وزخم في زمن تردت فيه الثقافة

ووجدت الباحثة والمترجمة الفلسطينية أماني أبو رحمة الفرصة مناسبة لتبارك لمجلة «ذوات» والقائمين عليها هذا الإنجاز الرائع، ففي عامها الأول أطلقت عشرين عدداً مميزاً وجاداً وسط كل هذه الإصدارات في زمن المتاحية الرقمية، وهو أمر «ليس بالهيّن»، منوهة إلى أن المجلة تشكل «إضافة نوعية ومتميزة للثقافة العربية». تميز «ذوات» الرئيس، بحسب قول الباحثة، هو صدورها بهذه القوة والزخم في زمن «تردت فيه الثقافة واختلط حابلها بنابلها وعاليها بسافلها، في زمن خلخلة المفاهيم ومساءلة السرديات الكبرى في هذه المنطقة من العالم، وعلى رأسها الدين والتاريخ والقومية العربية التي تشهد تفسخاً لا مثيل له، تقف «ذوات» ومعها كل إصدارات مؤسسة «مؤمنون بلا حدود» لتواجه سيل الانهيارات وتزيح الركام عن النقي والجيد، وتطرح الأسئلة التي تزاحمت في عقل القارئ المثقف الذي يشهد اختلال كل ما تربى عليه بوصفه مقدساً غير قابل للمساءلة، تطرح أسئلته على المختصين والمهتمين والباحثين الجادين، علّنا نبلور أسساً جديدة لائقة حضارياً ومتماشية مع روح المنطقة واشتباكها الأزلي مع الآخر، وبما يهيئ لنا مكاناً للنهوض ثم البقاء الحضاري.

وقالت أبو رحمة: «بوصفي قارئة متابعة للمجلة أتمنى أن نصل معاً إلى هذه النقطة؛ أن ينتهز العلماء والمفكرون الفرصة لحسم الموقف من قضايا عولجت سابقاً بالتوفيق والتلفيق»، مشيرة إلى أن الحسم «مفردة لا تليق بما بعد الحداثة ولكنها ضرورية لمن لم يعايش اشتراطاتها، حتى يصل إليها وإلى ما بعدها».

وأبدت المترجمة إعجابها بكل الملفات التي تعالجها «ذوات»، متوجهة بالشكر لكل المساهمين فيها والقائمين عليها، كما ثمنت جرأة الطرح ومسؤوليته بلا حسابات ضيقة أو ذاتية.

وتتطلع أبو رحمة أن ترتقي المجلة بكل ما أصبح أساساً ثابتاً فيها، مشيرة إلى أن القراء والباحثين لن يرضوا من «ذوات» إلا النجاح والإبهار، آملة أن توسع المجلة دائرة المساهمين والموضوعات، وأن تركز على الشباب المتميز؛ فهو من يتحمل عبء الفشل الذريع الذي منيت به مغامرات العلماء والمثقفين والسياسيين في العقود الماضية، وهو من سيتحمل أيضا عب ء النهوض القادم وتبعاته إن جاء.

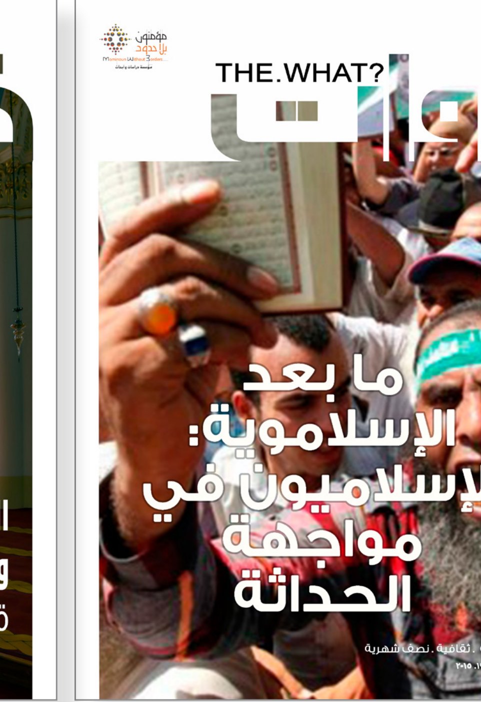
أبو الحسن: تجمع بين الأصالة والمعاصرة

يعدّ الباحث والأكاديمي الفلسطيني الدكتور وائل أبو الحسن، «ذوات» تجربة «رائدة ورائعة»، فضلاً عن أنها مجلة تجمع بين «الأصالة والمعاصرة».

وأشاد أبوالحسن بما تطرحه المجلة من موضوعات «فذة ترتقي إلى مستوى ما نتطلع إليه»، كما أن «التسلسل وتناول القضايا المطروحة من زوايا مختلفة يجعل منها موضوعات متكاملة وبينية في المحتوى والمضمون».

ونبه أبو الحسن إلى ضرورة وأهمية تواصل المجلة مع من هم من غير العرب، كأن يكونوا في شبه القارة الهندية وفي ماليزيا وأندونيسيا وغيرها واستكتابهم، ومحاولة إشراكهم في قضايا الأمة الشائكة، فهم جزء لا يتجزأ من الأمة، ولهم وجهة نظر لما تتعرض له من إرهاصات وتواجهه من تحديات جسام، ومن هنا «تتمدد التجربة وتتعدد الرؤيا، وتتضافر الطرق والوسائل والأساليب لما فيه خير الأمة، بدلا من التمترس وراء أقلام محدودة ومحصورة فيمن هم عرب».

كما اقترح استكتاب باحثين غربيين سيما المناصرين لقضايانا، وعقد حوارات ما بين أصحاب الفكر لمناقشة ما هو شائك في الواقع العربي، ويكون الاحتكام في ذلك للحكمة والعقل والمنطق، وتكون الراية لـ «ذوات» ومن خلال «ذوات».





إن القراء والباحثين لن يرضوا من «ذوات» إلا النجاح والإبهار، وتوسيع دائرة المساهمين والموضوعات، والتركيز على الشباب المتميز

عبود: كسرت حواجز الإعلام العربي

بدوره، أكد الكاتب السعودي جاسم عبود أن قوة تيار مجلة «ذوات» الثقافية قادها للطفو على السطح لتتلقفها البصيرة قبل البصر، وهذا يحاكي قوة ونفوذ تلك البحوث وتلك المقالات، متابعاً أنه رغم «الضوابط الرسمية العربية، إلا أنني أرى أن «ذوات» حققت نصراً عظيماً نفتخر به، في كسر حواجز الإعلام العربي، وحققت تفوقاً ملموساً في محاكاة الإنسانية والمساواة وإعادة الثقة لدى كثير من القراء العرب لما تتناوله من ملفات متنوعة.

وحسب متابعة عبود للمجلة، فقد جاءت ملفاتها وقضاياها «في المستوى الذي نتطلع له بطريقة تصنف قريبة من أرض الواقع الذي نتعايشه، بل تنوع هذه الملفات مادة دسمة لمعرفة كثير من الثقافات العربية».

وأضاف «من وجهة نظري كمواطن عربي يرزح تحت قوانين تحد من حريته الإعلامية، وككاتب مختنق بحروفه أرى في مجلة «ذوات» المتنفس للحياة الفكرية»، متابعاً فقد كسرت «حواجز الصمت البائس».

ورأى في المجلة «مستقبلاً واعداً للأقلام العربية، ونشر ثقافة السلام والإنسانية داخل الأقطار العربية، وهذا بحد ذاته مكسب عظيم في توحيد العقول والقلوب، والنظر للمصلحة الإنسانية عامة».

الأنصاري: التنويع في الموضوعات وبتعدد المشاركين

وقال الكاتب المالي في الدراسات الشرعية محمد بن حسين الأنصاري، والمقيم بالسعودية، إن تجربة «ذوات» الإعلامية الثقافية «تجربة مميزة ومحفزة للاستمرار»، منوهاً بحسن صفها وإخراجها، وطريقة عرضها الجميلة.

وأضاف الأنصاري بأن المجلة، تتسم بالتنويع في الموضوعات، وبتعدد المشاركين، مؤكدا أن يطمح لاستمرارها، و»التنويع أكثر، وفتح قنوات المشاركة أمام الجميع حتى المخالفين، وربما تتحول بعض الملفات لكتب وتنشر، وتطبع المجلة كما هي، وتعرض خاصة في معارض الكتب».

السعودية: «ذوات» كسرت حواجز الصمت البائس

مجلة «ذوات» هي المتنفس للحياة الفكرية، إنها كسرت حواجز الصمت البائس

أهمية اللعب في حياة الطفل

بقلم: محمد حمدي
أستاذ مغربي، مهتم بالبحث في قضايا التربية والتعليم

يُعَدُّ اللعب أول شكل من أشكال النشاط الإنساني، واللعب هو ما يجعل الإنسان إنسانا، ويجمل الحياة الاجتماعية وينشطها، وينطوي على أشكال مختلفة: الألعاب الحركية والألعاب التركيبية والألعاب التمثيلية والألعاب الإلكترونية والألعاب الرياضية والألعاب التعليمية؛ وأن النمو النفسي عند الإنسان لا ينفصل مطلقا عن نشاطه وعمله؛ إذ إن خصائص شخصية الإنسان وصفاتها ودوافعها وميولها، تتجسد فيما يقوم به من أفعال، بل وتتكون من خلالها. وتؤلف أفعال الإنسان مع المواد وأدوات العمل والأشياء الجانب الخارجي لهذا النشاط. واللعب مدخل أساس لنمو الطفل عقليا ومعرفيا، وليس نموا اجتماعيا وانفعاليا فقط، ويتمخض اللعب عند الطفل عن تغيرات كيفية في تكوينه النفسي؛ وفي اللعب تكمن أسس النشاط الدراسي الذي سيكون نشاطا مسيطرا على حياة الطفل في سنوات الدراسة.

١) أثر اللعب في تشكيل شخصية الطفل، ومعرفته بذاته:

ويهدف النشاط اللعبي إلى معرفة العالم الخارجي، عن طريق ما يقوم به الأطفال من إسهام فعلي في حياة الناس وعملهم. واللعب حاجة طبيعية في ذات الطفل منذ بداية تكون القدرات الحركية عنده؛ فالطفل في أمس الحاجة إلى النشاط والحركة والفعالية. ويشكل مجال اللعب الذي تحيا فيه شخصية الطفل بعفوية وحرية وتلقائية، قاعدة اجتماعية، يرى منها الطفل ذاته. ويتبع اللعب عند الطفل، تدرجا منتظما وثيق الارتباط بنموه الذهني والاجتماعي والعاطفي؛ فاللعب هو المحرك الرئيس للتعلم وبناء شخصية الطفل، لأنه حيث يوجد اللعب يوجد التعلم وتوجد المتعة، وأن نوع اللعب الذي ينتمي إلى مرحلة عمرية من حياة الطفل قد نلاحظه بهيئة في مرحلة موالية

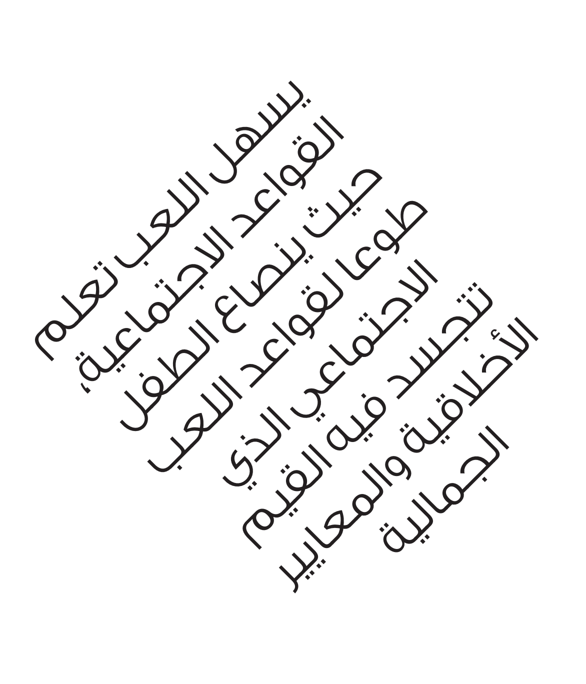
أو متأخـرة مـن حياتـه، فاللعـب بالمـواد المرنـة كالطـين والعجـين وتشـكيلاتها، يسـتمر في كثـير مـن الأحيـان عـلى شـكل هوايـة أو فـن جميـل تتبلـور فيـه مكتسـبات الطفـل السـابقة مـن المعـارف والمهـارات. والطفـل الـذي يلـج اللعـب ويتفاعـل مـع اللاعبـين، يكـون مسـتعدا لتغيـير تفكـيره، بشـكل إيجـابي. والتعديـل في التفكـير هـو أسـاس الاستكشـاف والتعلـم والإبـداع؛ فاللعـب عنـد الطفـل - في مختلـف مراحـل حياتـه- هـو شـكل مـن أشـكال النشـاط الإبداعـي؛ حيـث إن الطفـل مـن خـلال ألعابـه، سـواء كانـت فرديـة أو جماعيـة، أو حـرة تلقائيـة غـير منظمـة أو منظمـة، أو نشـيطة، أو هادئـة؛ لا يقـوم بتصويـر الواقـع الخارجـي تصويـرا فوتوغرافيـا أو يقلـد تقليـدا أعمـى، بـل إنـه كثـيرا مـا يدخـل في لعبـه أمـرا مـن نسـيج خيالـه ومـن صنـع تمثلاتـه للواقـع؛ وفي هـذا الاختـلاف والتأليـف والرغبـة في ذلـك، يكمـن مصـدر سـعادة الطفـل وفرحتـه الـتي ترافقـه في لعبـه عـلى الـدوام.

-١-

والطفـل الـذي يمـضي أكـثر ممـا يلـزم مـن الزمـن في لعبـة، ولا ينتقـل إلى نشـاط آخـر، فهـو طفـل غـير طبيعـي؛ لأن: + حيـاة الإنسـان تاريخيـة واجتماعيـة، وقوامها الانتقال باسـتمرار مـن نـوع مـن النشـاط إلى آخـر. وأن كل مرحلـة مـن مراحـل النمـو النفـسي لـدى الإنسـان، تتميـز بنشـاط معـين يكـون شرطـا لعمليـة النمـو. وأن موضـوع اللعـب الـذي يختـاره الأطفـال، يتغـير وفقـا للظـروف والأحـوال التاريخية والاجتماعيـة، لحيـاة النـاس الذيـن يؤلفـون المجتمـع الـذي يطبـع ألعـاب الأطفـال بطابعـه الخـاص؛

+ لـكل لعبـة هدفـا مزدوجـا: أ) هدفـا مبـاشرا؛ هـو المتعـة والمعرفـة، الـتي تجلبهـا اللعبـة للاعـب مـن خـلال عمليـات تنشـيط وظائـف أعضـاء جسـمه وتجديـد مختلـف قـواه الحيويـة؛ وواضـح أن الطفـل يتوقـف نفسـيا عـن لعـب لعبـة مـا، حينمـا يسـتطلع عناصرهـا ويسـتمتع بهـا؛

ب) هدفا عمليا ونفعيا؛ وهو هدف نفسي اجتماعي، ليس مباشرا، ولا يدركه الأطفال اللاعبون دائما بوضوح، والذي يتجسد لدى الطفل في توازنه النفسي وهدوئه العصبي، وتغلبه على اضطراباته النفسية وتكيفه مع أفراد مجتمعه ورضاه عن نفسه وعن قيم مجتمعه؛ + كل لعبة، كيفما كانت، فهي ذات بنية منطقية، وتخضع لقواعد، ويستخدم فيها الطفل قدرا من المعرفة المكتسبة لديه عن عناصرها، وتمارس بأدوات في تصورات الطفل وكلامه ومشاعره وأفعاله وعمليات الأخذ والعطاء؛ + اللعب يسهل تعلم القواعد الاجتماعية، حيث ينصاع الطفل طوعا لقواعد اللعب الاجتماعي الذي تتجسد فيه القيم الأخلاقية والمعايير الجمالية، التي تظهر في آراء الناس وأحكامهم على ما يصدر عنهم من تصرفات وما يبدر منهم من مواقف.
وتتمثل نتيجة اللعب في كل ما





ملموسة أو شفهيا. ونجاح الطفل في اللعب، يحقق له توازنا نفسيا جسديا، قوامه الفرح والرضى والنظر إلى المستقبل بنوع من الأمل، وبما اكتسبه من معلومات ومعارف ومهارات، جديدة؛ + التعدد الوظيفي لألعاب الأطفال؛ يجنب الطفل خطر التأخر الدراسي بكثير من الفعالية، حيث نجد في الواقع أن الطفل المتفتح والمنشط بما يلزمه من الألعاب الفردية والجماعية، في المرحلة ما قبل مرحلة المدرسة الابتدائية؛ يكون مهيأ للنجاح في الدراسة مستقبلا، بقليل من الصعوبات والتعثرات؛ وأنه عندما يدرج التعلم في سياق لعبي، يصبح كل شيء لعبا، فينصرف إليه الطفل بتلقائية وسرور؛ + الألعاب، تنشط وتنظم العلاقات الإنسانية، وتعزز التفاعلات الاجتماعية؛ فهي شديدة الفعالية في إقامة الاتصال ما بين الأطفال أنفسهم، وبينهم وبين الآخرين من أمهات وآباء وإخوة ومربيات ومربين وأستاذات وأساتذة. وتتمظهر نتائج الألعاب يحمله الأطفال من تصورات عن الظواهر الطبيعية والحوادث الاجتماعية والمواقف الإنسانية والاهتمامات المعرفية والقدرات العقلية والحالات الانفعالية ؛ + وأن المربي(ة) الناجح(ة) هو الذي يحب اللعب، ويتمتع بالقدرة على استغلال أية لعبة يختارها الأطفال، في مختلف الشروط والظروف، لتكون أداة ناجعة للوصول إلى الأهداف التي يسعى إليها؛

والمهارات الأساسية التي ينميها اللعب عند الطفل، يمكن إجمالها في ما يأتي: - تحقيق التوازن الحركي والنفسي بالتدريج؛ - استعدادات الاتصال والتواصل؛ - القدرة على إقامة علاقات مع الغير، بواسطة نظام مشترك من الرموز، كلغة التعبير مثلا؛ - مهارة النطق؛ - مهارة اللمس؛ - القدرة على الإنصات للذات وللآخر؛ - القدرة على الحديث والتفاعل مع الآخرين؛ - مهارات التفكير والاكتساب؛ - مهارات التذكر والاسترجاع والخيال.



> يشكل مجال اللعب الذي تحيا فيه شخصية الطفل بعفوية وحرية وتلقائية، قاعدة اجتماعية، يرى منها الطفل ذاته

ففي الألعاب التعليمية الخاصة بتوظيف الرياضيات والمنطق في اللعب، يتعود اللاعب على الإفلات من التراكيب الذهنية التي يسجن نفسه فيها، والشروع في مقاربة وضعية / مشكلة جديدة بذهنية جديدة. والطفل الذي يتوفق في هذا النوع من الألعاب المسلية، والتي توقظ العقل وتفتح الفكر، يتعلم الانتقال بخفة من مستوى منطقي إلى آخر، ويؤهل نفسه على هذا النحو، بدون أن يدري، لمقاربة مبادئ المنطق الرياضياتي التي سيتعرف عليها في مستقبل حياته التعليمية.

-٢-

يبدأ الطفل محاولات اللعب مع أمه؛ ويشرع في تنظيم ممارسته للألعاب بشكل تلقائي بسيط من خلال التفاعل مع أمه وإخوته الصغار، ثم مع أقرانه بعد ذلك. ففي مرحلة الرضاعة التي تستغرق العامين الأولين من حياة الطفل، تتألف ألعاب الطفل من حركات عشوائية ومن استثارة لأعضائه الحس / حركية. ومع تطور نمو الطفل عقليا، يصير لعبه معقدا بشكل متزايد، وتنمو لديه اهتمامات جديدة للعب.

فالطفل منذ الشهر الثالث من حياته، يصبح أكثر اهتماما بالأشياء، ويبدأ حبه للعب؛ حيث يبدي حبه للحركات المتكررة الإيقاعية من النوع الذي يرافق «الهدهدات» (أو الربت على الأطراف) التي تلاعبه بها أمه، ويلعب بيديه، ويقوم بحركات تشبه حركات السباحة عندما يكون مستلقيا على بطنه ويضحك. ومن الشهر التاسع إلى الشهر الثاني عشر، يصبح الطفل فاعلا في اللعبة بشكل تعاوني، ويمكن أن نذكر في هذا المجال لعبة «الغميضة» ولعبة «تبادل الأشياء» ولعبة «البحث عن أشياء توارت عن ناظره»، حيث يكون الطفل، من خلال مثل هذه الألعاب، فكرة عن

المفاهيم المرتبطة بالأشياء والمكان والمسافة والزمان والعلاقات السببية، ويكتسب الحس بدوام الشيء، وتنمو نسبيا مهاراته الحسية والحركية والإدراكية، وينزع إلى التدمير بسبب نقص في الاتزان الحسي الحركي لديه، فهو قد يجذب الشيء(اللعبة) بعنف أو قد يلقي بها بعيدا، ويحاول الوقوف مستندا على ذراع كرسي.

أما في السنة الثانية من مرحلة الرضاعة،

الرمزية التي تلبي حاجته إلى تنمية مهاراته الأساسية، والتعرف على وضعه الخاص ومحاولة التحكم فيه. وأهم المهارات الأساسية التي ينميها اللعب بصورة تدريجية عند الطفل في السنة الثانية من عمره، هي التي تغطي الجوانب التالية: + الاتصالات / الألعاب التعاونية / التفاعلات، الألعاب مع عدة أشخاص خاضعة لعادات وأعراف معينة؛ +تقليد الأصوات والإيماءات والحركات؛ +التأكد من دوام الأشياء والأشخاص (الألفاظ الخاصة بالأشخاص



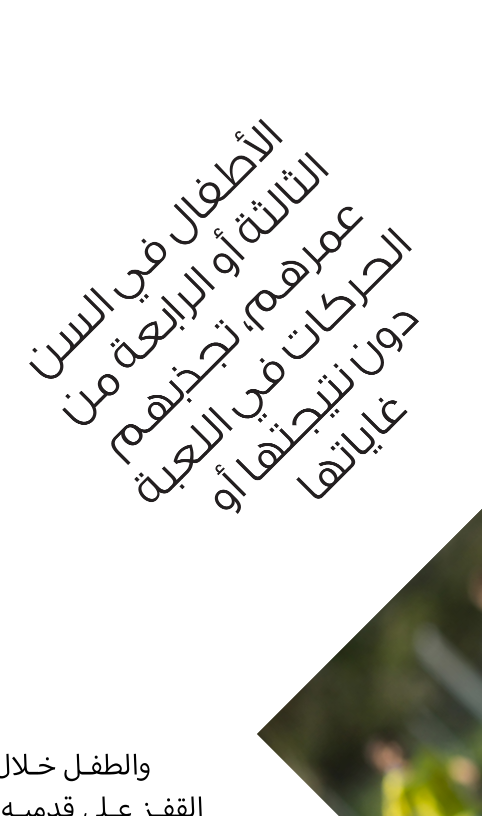
في كل أشكال اللعب، يمكننا أن نميز نسقا نمائيا لتطور نمو النشاط اللعبي عند الطفل بشكل مستقل

فتبلغ المهارات الأساسية عند الطفل ذروتها، ويقوم باستخدامها في تشكيلة واسعة من الألعاب التركيبية البنائية والأنشطة التي يشبع بها فضوله الحاد، حيث يلعب بمواد «العجين من الطين»، و»الرمل»، و»المكعبات»؛ ويصبح لديه وعي مختلف عن ذاته، سواء على الصعيد الجسدي أو الحركي، ويتعلم المشي، فهو حين يزحف، ويتسلق، ويجري، ويقفز، ويعمل بيديه، ويستمتع باللعب عندما يجري مهاجما من ركن في البيت إلى ركن آخر أو يختبئ عن أنظار الآخرين، ويستطيع أن يلعب بعدد كبير من الأشياء في زمن واحد، ويجعل الأشياء موضع أبحاث شتى، ويختبر النار وهو يلعب بالأشياء. ويحقق تقدما كبيرا في وعيه بذاته، وعن تصوره للأشياء والأشخاص والأحداث، بمعزل عن سياقها المكاني- الزمني الملموس، مما يجعله قادرا على استخدام وتشكيل أنواع شتى من الألعاب

والأشياء)؛ + تكوين علاقات سببية عملية؛ +تكوين علاقات مكانية؛ + استراتيجيات لربط الأشياء بعضها بالبعض الآخر؛ + تكوين الوظائف الرمزية.

والطفل في السنة الثالثة من حياته، ينمو عنده الاستعداد أكثر للتمثيل الرمزي، الذي يقوم على استبدال شيء بشيء آخر، ويبدي رغبته في تجميع بعض الأشياء التي تستثير اهتمامه في موقف معين بقليل من الاهتمام؛ ويمارس اللعب الرمزي بسلوك حركي، يتمثل في لعبة «الأدوار» التي تسمح له بانتحال هوية وخصائص شخص آخر، وتعوده على التخلي عن وجهة نظره الخاصة وأحكامه المسبقة وأنانيته، ليعتنق مؤقتا وجهة نظر شخص آخر وأحكامه المسبقة وأنانيته. ويشوب لعبه مع أقرانه العدوان والشجار (يكون على شكل صراخ أو دفع أو ركل أو

الأطفال في السن الثالثة أو الرابعة من عمرهم، تجذبهم الحركات في اللعبة دون نتيجتها أو غاياتها



-٣-

والطفل خلال السنة الرابعة من عمره يمارس لعبة القفز على قدميه معا داخل تربيعة، ويلعب بالكرة، حيث يقذفها إلى الأمام وإلى اليمين وإلى اليسار، ويبني بروجا بواسطة مجسمات هندسية، ويصعد السلم بوضع قدم واحدة على كل درجة من السلم، يبحث عن أشياء مخبأة، يبدأ يساير في لعبه بعض القواعد والإجراءات التنظيمية المتصلة بالواقع الموضوعي، فيصبح شكل لعبه أكثر نظامية وتهديفا، ويقوده إلى التخفيف التدريجي من نزعته إلى التمركز حول الذات، وإلى التوحد التدريجي مع جماعة اللعب.

بكاء) لأتفه الأسباب وسرعان ما ينتهي هذا التصرف، ويعود الأطفال إلى اللعب من جديد. هذا التصرف الذي يتضح عند الطفل في السنة الرابعة من عمره. والأطفال في السن الثالثة أو الرابعة من عمرهم، تجذبهم الحركات في اللعبة دون نتيجتها أو غاياتها؛ ويكون من المفيد جدا لهم أن ترفق ألعابهم ببعض الكلمات التي تتحدث عن مضمون اللعبة التي يمارسونها، أو التي تعبر عن إشارة إلى تنفيذ كل حركة من حركات اللعب. هذه الكلمات التي يفضل أن تصاغ في أغنية قصيرة أو في أناشيد، تعبر عن سلوك اللعب بإيقاعات محفزة بالصوت على اللعب الممتع، وتساعد على نشوء الكلام عند الأطفال وتطويره، وتنمي قدرتهم على التواصل الشفهي، وتظهر قدراتهم الإبداعية على التحكم في اللعب بالحركة والإيقاع والصوت.

والطفل في عامه الخامس، يميل إلى ممارسة الألعاب الجماعية التي يختبر بها مهاراته، ويكون فيها عنصر المنافسة ذا أهمية قليلة نسبيا، كالتظاهر بأنه شخص آخر، والسير على رصيف مكسر، والقفز من أماكن عالية، والوثب والقفز فوق الحبل، والتقاط الكرات برشاقة، والمشاركة في لعب «أدوار مركبة» ذات عدة أشخاص، تقوم بينها علاقات مقابلة لأدوار عدة، محددة هي ذاتها، تبعا لموضوع مشترك. وفي أداء الأدوار بدون مساعدة من الكبار، تتبلور عند الطفل القدرة على تصور أشياء وأحداث دونما حاجة إلى معاينتها في الواقع؛ هذه القدرة التي تضفي على حياته بعدا جديدا وتمنحه، في الزمن نفسه، إمكانية التحكم في ذاته وما تتضمنه من نمو في شخصيته، وهي إمكانية جديدة كليا في هذه الفترة من عمره.

والطفل منذ السن السادسة من عمره حتى مرحلة المراهقة، يميل بشكل قوي إلى القيام بنشاطات «تجميع الأشياء» وإعطائها معنى في حياته وفي تعلماته المدرسية؛ وتتجسد الأنشطة في إنجازات الفرز والتصنيف والترتيب، وأعمال الرسم والمعارض والمتاحف، والتي تنمي المهارات الحركية لديه، وتشحذ طاقاته العقلية والمعرفية.

والطفل الصغير في بداية ممارسته للعب، لا يعرف الحد الفاصل بين اللعب - الذي هو رغبة في اللعب - وغير اللعب، ولذا فإنه قد يصيب جسده أو جسد الآخرين، بجرح أو بحرق. ولكنه مع تقدمه في أنشطة اللعب، يكتسب رويدا رويدا فكرة عن الحد الفاصل بين اللعب وغير اللعب، ويتعود تدريجيا على المسؤولية من خلال اللعب، ثم يحس أكثر بانتمائه للجماعة البشرية المحيطة به.

و يستمد الأطفال ألعابهم من المجتمع الذي يعيشون فيه، ويحاولون في لعبهم الرئيس الأول محاكاة من هم أكبر منهم سنا، في أفعالهم؛ كما يحاولون محاكاة ذوي المآثر من الشخصيات الوطنية والأسطورية التي سمعوا عنها. ولذا، نجد أن ألعاب الأطفال تكون مختلفة باختلاف الثقافات السائدة داخل مجتمعاتهم، وأيضا حسب تأثيرات مكونات البيئة الطبيعية وعالم المصنوعات، على تكوين شخصيتهم ومعرفتهم بذاتهم. وأن درجة تفضيل لعبة عن لعبة أخرى، ومستوى حبها، يختلف من طفل لآخر. ومع هذا ينبغي أن نميز بين اللعب العفوي واللعب المنظم، فالطفل بمجرد أن يلعب سواء لوحده أو مع الآخرين، فإنه يسلي نفسه حسب ميوله في تلك الفترة الزمنية؛ ففي اللعب العفوي هناك من البنات من يلعبن بالدمى ويرتدين ملابس يتظاهرن بها كأمهات أو ممرضات أو ملكات جمال أو أميرات أو فنانات... ويمثلن أدوارا عن المناسبات الخاصة كحفلات الزفاف والمآتم. أما البنون، فيميلون أكثر إلى اللعب العفوي الذي يتظاهرون فيه كآباء أو أطباء أو جنود وشرطة أو لصوص أو شخصيات ونجوم... ويلعبون بالأسلحة الصغيرة وبالسيارات وبالخيول الخشبية...

-٤-

واللاعبون في أية لعبة منظمة يخضعون لقوانين(قواعد) مقررة من قبل؛ إذ إن اللعب المنظم عادة ما ينطوي على نوع من المنافسة، سواء في المهارة أو في القوة أو في الحظ أو في هذه العناصر مجتمعة.

فعندما يغمض الأطفال عيونهم ويتظاهرون بالعمى، فإنهم يعتقدون بأن متعة اللعبة تزداد حينما يصطدم أحدهما بالآخر. ولكن عندما تعصب عينا طفل في لعبة «الرجل الأعمى» ويتحرك ليمسك بلاعب آخر، فإن ذلك اللاعب يكون مضطرا ليحل محل الرجل الأعمى، ولن تنزع عنه العصابة حتى يكون هو بدوره قد أمسك بطفل آخر.

إن الأطفال لا يقومون بإعادة اللعبة بحذافيرها كل مرة، بل إنهم يعيدون اللعبة ذاتها كما



لو أنهم يلعبونها من جديد وبشكل آخر. ففي إعادة لعبة الأدوار مثلا، قد يضيفون جملة ما أو يسقطون مشهدا معينا أو يختصرون في أحد الأمكنة أو يفضلون مكانا آخر. فاللعبة تغتني بخيالهم وابتكاراتهم، وتعيش ما داموا قادرين على مثل هذا العطاء، وهي تتوقف ويتوقف معها اللعب حينما لا يتمكن الممثلون لها من إدخال أي جديد من أفعال وعلاقات وقيم وعادات، ليتمكنوا من تضمينه في لعبتهم، ولكي تكتسب اللعبة صفة الترغيب والتشويق والإمتاع.

و قد أدت الابتكارات الجديدة لوسائل التسلية والترفيه والتعلم، إلى تغيير كبير في دينامية الحياة اليومية للطفل المعاصر، وجعلته يخلق لنفسه لعبا بسيطة معبرة عما يلاحظه من تطور؛ مثل لعبة «الطائرة الورقية» التي يمكنه من خلالها، أن ينمي مهاراته اليدوية في صنع الطائرة الورقية، ثم بالتأثير



إن أهمية اللعب في تشكيل شخصية الطفل ومعرفته بذاته، تتحدد بوعي الكبار عامة، والآباء والأمهات والمربين والمربيات خاصة، بالدور الفعال للعب في تنمية شخصية الطفل

على صعود وهبوط هذه الطائرة التي يتحكم فيها أحيانا بواسطة خيط رفيع، وهي تتحرك في الفضاء بفعل الرياح، ويعمق إدراكه للعلاقات السببية المتصلة بالفضاء ومستوى تسلسل الأحداث.

وفي كل أشكال اللعب، يمكننا أن نميز نسقا نمائيا لتطور نمو النشاط اللعبي عند الطفل بشكل مستقل، وبالاعتماد على ذاته في الاختيار والإنجاز، من مرحلة إلى مرحلة أخرى. فمثلا، نشاط لعب الطفل بالمكعبات، يسير في أربع مراحل محددة من النمو، حيث يكون اللعب عنده في المرحلة الأولى، عبارة عن مجرد تناوله للمكعبات التي بحوزته، وحملها وتجميعها، مكونا بها مجموعات منتظمة؛ وفي المرحلة الثانية، يبدأ في تكوين أعمدة بهذه المكعبات؛ وفي المرحلة الثالثة، تنمو قدرة الطفل على عمل نماذج من هذه المكعبات، وتتضح أمامه بعض الطرق التي يتبعها في بنائه للمكعبات؛

وفي المرحلة الرابعة، يقوم الطفل ببناء تكوينات حقيقة تعبر عن معان متكاملة، ويستطيع إعادة البناء وتجويده. ومن تم يكون قد استمتع باللعبة، وأحس بنمو شخصيته، وأثبت ذاته بين المحيطين به من الأشخاص. والجدير بالذكر أن هذا النوع من اللعب بالمكعبات، الذي هو في حد ذاته نشاط تعلمي، يتضمن مفاهيم رياضياتية أساسية، يستخدمها الطفل الصغير بدون وعي، في ممارسة نشاطاته الحياتية؛ وهذه المفاهيم التي يتطور إدراكها عند الطفل تبعا لتطور مراحل نموه، هي كالتالي:

أ) مفهوم المجسم الهندسي الوجوهي، هذا المجسم الذي يتكون من وجوه وأحرف ورؤوس، يلمسها الطفل بيديه ويشاهدها بعينيه، ويحاول إدراك دورها في بناء الأعمدة، فيحصل نمو في تمثيلاته المعرفية وقدراته الذهنية، بالإضافة إلى نمو مهاراته

الجسمية الحركية وتطور تفاعلاته الاجتماعية؛ ب) مفهومي التصنيف والترتيب المرتبطان بمفهوم العلاقة الاثنائية بين الأشياء، هذه العلاقة التي يبدأ نشوء مفهومها عند الطفل في الشهور الأولى من عمره، حينما يكون الطفل في تفاعل ثنائي مع الشيء المحيط به؛

-٥-

ج) مفاهيم الفضاء (تحت / على / فوق، أعلى / أسفل، يمين / يسار، بين، قبل / بعد، ...)، ذات الأهمية في تحديد الطفل للمكان والتموضع فيه؛ د) مفهوم الطول، الذي يظهر في هذه اللعبة، من خلال تشكيل الأعمدة بواسطة المكعبات، ومقارنة أطوالها باستخدام العلاقات الاثنائية «أطول من»، و«أقصر من»، و«نفس الطول»، وهي علاقات يستخدمها الطفل ضمنيا (دون التصريح بها) منذ سن مبكرة، أثناء تفاعله مع الأشياء، وتكون نوع من المعرفة بجسمه قبل أن يتكلم؛ هـ) مفهوم العدد، الذي ينشأ في هذه اللعبة من خلال تمثيله بمجموعات متقادرة من المكعبات تكون مقارنتها باستخدام العلاقات الاثنائية «أكثر مما»، و«أقل مما» و«بقدر ما»؛ ومن خلال تمثيله بمجموعات متقادرة من الأعمدة، يتم فيها توظيف علاقة «نفس الطول».

وإذا كان الهدف التعليمي من هذا النشاط اللعبي بالمكعبات هو «جعل الطفل يكتشف أعدادا صحيحة طبيعية ممثلة بمجموعات من المكعبات، وبصفوف مكونة من المكعبات أو بأعمدة من المكعبات؛ فإن التكوين الإبستيمولوجي للعدد، يفرض مراعاة خصائص مرحلة النمو عند الطفل في ممارسة هذا النشاط التعلمي عن طريق اللعب، مع اختيار الأسلوب البيداغوجي المناسب في التعامل مع الطفل في هذا المستوى من النمو، حتى يستفيد الطفل من هذا اللعب في إنماء شخصيته وإثبات ذاته، من خلال تعلمه مفاهيم وأساليب جديدة، ينمي بها خبرته ومعلوماته. والأمر هنا يقتضي تدبيرا منهجيا لهذا النشاط اللعبي، يقوم على ما يأتي: ١) اللعب التعاوني، حيث يسمح لكل مجموعة من الأطفال باللعب الحر، بما بحوزتهم من المكعبات؛ ٢) ملاحظة وتتبع لعب كل مجموعة من الأطفال، مع العمل على التحفيز على اللعب المنظم ومساعدة المجموعة على تنظيم لعبها إذا تعثرت، بهدف الوصول إلى تشكيل أعمدة أو صفوف بواسطة المكعبات؛ ٣) التحاور مع كل مجموعة من الأطفال حول الوضعية النهائية للعبهم، واستدراجهم إلى ذكر عدد الأعمدة التي قاموا ببنائها أو عدد الصفوف التي كونوها؛ ثم عدد المكعبات في كل عمود أو في كل صف؛ ٤) وأخيرا مطالبة كل مجموعة من الأطفال، بتفكيك الأعمدة أو الصفوف، والقيام بعد المكعبات، حيث يتم الحصول على العدد الجديد المستهدف من اللعب بهذا العدد من المكعبات.

والحقيقة أن أهمية اللعب في تشكيل شخصية الطفل ومعرفته بذاته، تتحدد: + بوعي الكبار عامة، والآباء والأمهات والمربين والمربيات خاصة؛ بالدور الفعال للعب في تنمية شخصية الطفل. وبدورهم المهم في توجيه نشاط اللعب الجماعي للأطفال والإشراف عليه وتقويمه، لكي يكون مصدر سعادة لهم وشرطا لنموهم العقلي والاجتماعي والأخلاقي والجمالي(الفني)؛ لأن توجيه انتباه اللاعبين - مثلا- نحو ألوان أدوات اللعب وأشكالها وحجومها، يساعد الطفل اللاعب على الإحساس والإدراك بصورة واضحة لعناصر اللعبة. كما أن إثارة انتباه اللاعبين إلى ضرورة تنظيم الألعاب وتوزيع الأدوار، ومتابعة تنفيذ كل منهم لدوره، وتقويم النتائج على نحو موضوعي يشعرهم بأهمية التصرف بكياسة ولباقة والتعود على الأسلوب الصحيح في المخاطبة ؛ يزيد من فعاليات الطفل اللاعب وينمي لديه القدرة على التذكر الإرادي والمحاكمة وتكوين مفاهيم جديدة؛ + وبالوعي بأن الشيء الذي يلعب به الطفل، هو الذي يضفي على ألعاب الأطفال طابعها الرئيس ومعناها الخاص في تنشئة الطفل؛ + وبمدى إتاحة الفرص أمام الطفل، لتحقيق ذاته في أنشطة اللعب والاستفادة منها في إغناء رصيده المعرفي وتطوير مهاراته وتنويع مواقفه الإيجابية وتقويم سلوكاته وزيادة قدرته على الاندماج والتوافق. مع العلم بأن التركيز على الإعداد الفردي للطفل بتحصيل المزيد من التعليم وتحقيق النجاح الفردي في المستقبل، قد يحرمه من متعة اللعب التي لها أثر فعال في تكوينه النفسي والمهاراتي.

-٦-

هذا مع العلم بأن الطفل الصغير في مستهل عامه الدراسي، غالبا ما يعتبر الأدوات المدرسية ألاعيب أكثر منها أدوات للعمل. فنجده، مثلا، يلعب بالأقلام، وهو يمارس أنشطة التعبير الشفهي؛ وقد يتوقف عن التعبير عندما يتم توقيف لعبه هذا؛ لأن

مع ازدياد النمو اللعبي عند الطفل، يبدأ اهتمامه بتأثير نشاطه الخاص في محيطه

اللعـب والتعلـم ينتميـان إلى ميـدان الحريـة النسـبية في اختيـار النشـاط المناسـب والهـادف.

٢) طبيعـة ألعـاب الأطفـال، ومزاياهـا الحياتيـة بالنسـبة إلى الطفل:

الألعاب الشعبية:

تعـد الألعاب الشـعبية ضرورة مـن ضرورات الطفولة، تصاحـب الطفـل منـذ بدايـة تكـون القـدرات الحركيـة عنـده، وتتطـور تبعـا لتطـور نمـوه الجسـمي والنفسـي والاجتماعـي، وهـي لا تحتـاج إلى تربيـة معينـة لتعويـد الطفـل عليهـا أو جذبـه إليهـا، وقـد تحتـاج فقـط لتنظيـم ممارسـته لهـا. لكونهـا تتصـف بمـا يـأتي: أ) بالبسـاطة الـتي لا تتطلـب مسـبقا أيـة اسـتعدادات خاصـة، أو مهـارات معينـة لمـن يـود ممارسـتها مـن الأطفـال؛ ب) أنهـا تنمـي الاسـتعدادات والمهـارات لـدى الأطفـال؛ ج) أنهـا تدبـر بأبسـط الإمكانيـات وبمـا هـو متـاح في البيئـة المحليـة للطفـل وفي أي مكان مناسـب للعـب؛ د) بالتنـوع والتـدرج ـ حسـب أعمـار وقـدرات الأطفـال؛ هـ) بـأن القواعـد الـتي تحكمهـا سـهلة وميـسرة وبسـيطة؛ و) بأنهـا ذات طابـع محبـب يسـتهوي اللاعبـين؛ ز) بأنهـا مزيـج بـين حركـة الجسـم والمضمـون الـذي تعـبر عنـه؛ ح) بأنهـا تحفـظ الكثـير مـن عنـاصر الـتراث ذات الدلالـة الواضحـة والقويـة بالنسـبة إلى عالـم الطفـل؛ ط) بـأن حـركات اللعـب فيهـا، تتحـدد بإيقاعـات الأغـاني أو الكلمـات المسـجوعة المصاحبـة لهـا، والـتي تتضمنهـا، وتنظمهـا، وتدخـل في تكوينهـا، مكونـة معهـا نسـيجا عضويـا متماسـكا في شـخصية الطفـل. هـذه الشـخصية الـتي تتطـور مـع اطراد نمـو الطفـل، فيحـدث الاختـلاف مـا بـين الإنـاث والذكـور في التعاطـي مـع هـذه الألعـاب، حيـث تظـل الإيقاعـات الغنائيـة والرقـص الإيقاعـي والكلمـات المسـجوعة، تنظـم

حركة اللعب التي تتسم بالهدوء عند البنات. أما عند البنين، فتتجه الألعاب إلى اتخاذ الطابع الحركي الذي يتسم بالجري والضجيج والعنف، واستخدام القوة البدنية.

لعبة «الرش بالماء»

- من خلال أعمال العناية اليومية للأم بطفلها، يتشكل بينها وبينه نظام لعب تعاوني يعيه الطفل، تنتظم فيه الألعاب تدريجيا في مجموعة من العادات الثابتة تستلزم استباقا للتفاعلات؛ فالأم برشها الماء على يد طفلها وعلى يدها في الزمان نفسه أثناء الاستحمام، ثم بتوسيع اللعب برش الماء على جسم طفلها بواسطة قفاز، فإنها تولد عند طفلها عادات حول الشيء أو النشاط الواحد، وبإعادتها لهذه اللعبة في كل مرة يستحم فيها، وبإضافة عناصر جديدة في اللعبة نفسها، يكتسب الطفل حس الدعابة الذي يظهره بالضحك. وبفضل التكرارات المستمرة في اللعب وإدخال عناصر جديدة إليه، يستبطن الطفل تسلسل اللعبة؛ ويصبح مهيأ لممارسة لعبة تخضع لعدد من القواعد وترتكز على نشاط تعاوني، حيث يعرف ما ذا سيحصل، ويستبق ما ستفعله أمه، ويلعب دوره في النشاط التعاوني، بأن يتدخل هو الآخر فيه إلى جانب أمه. وعندما يتقدم الطفل في السن، يلعب بالماء مع زملائه للتسلية والترفيه على النفس، لما يتواجدون خاصة في مسبح أو في حمام.

-٧-

لعبة «رمي الأشياء»

ومع ازدياد النمو اللعبي عند الطفل، يبدأ اهتمامه بتأثير نشاطه الخاص في محيطه. فيرمي مثلا أشياء على الأرض ليلتقطها الراشد، ويكرر حركته بلا ملل وبسرور، إلى حد أن الراشد غالبا ما يتعب ويقنط من هذا النشاط قبل الطفل بكثير؛ وفي الزمن نفسه يرغب الطفل في تحديد موقعه ضمن المجال البصري الذي يحيا فيه، فيسعى إلى إدخال المفاهيم التي تكون مرتبطة بأنشطة هي ذاتها مقرونة بأشياء شتى. فالكوب مقرون بفعل الشرب، والملعقة مقرونة بفعل الأكل، والثدي مقرون بفعل الرضاعة،... وبإدخال الطفل مثل هذه الأفعال في تفكيره، يكون قد تعلم علاقات سببية، وتعرف مفاهيم عن الفضاء الذي يعيش فيه، وأدرك ماهية الشيء الذي يلعب به بطريقته الخاصة، وتعلم التنسيق بين البصر والسمع، وبين السمع واللمس، وبين البصر واللمس.

-ألعاب: «الكلل»، و«فقاقيع الصابون»، و«القفز فوق الحبل»، و«الغميضة»، و«المطاردة والعدو والمسك والاختفاء»، و«حل الألغاز»:

وهي من بين الألعاب الحركية التي يتناقلها الأطفال، الذين تنتمي أعمارهم إلى المجال العمري من ٥ سنوات إلى ١١ سنة؛ ومن خلال إنجازها ينمي الطفل اللاعب قدرته على التوازن والتناسق الحركي، وقدرته على ضبط الإيقاع، وقدرته على ضبط قواعد اللعبة.

يجب تجزيئ المساحات الواسعة داخل المدرسة إلى أجزاء (مناطق) تلبي حاجات الأطفال إلى الحركة واللعب، وذلك باستخدام الجدران والأعمدة الخشبية والنباتات التي توفر الحماية.

وقد يمارسها الأطفال في ملاعب المدرسة من أجل التسلية والترويح عن النفس، أثناء فترات الاستراحة. كما يحبون الاستمتاع بممارستها خارج المدرسة مع أقرانهم من أبناء الجيران أو غيرهم. ومن خصائصها أنها تحث الطفل على الفعل الحركي الذي يساعده على النمو الحركي الإدراكي، وأنها لا تحتاج إلى إعداد أو تجهيز أو ساحة اللعب أو عدد محدد من اللاعبين أو زمن طويل (معظمها يمكن إجراؤه خلال ٥ دقائق). فلعبة «الكلل» تحث الطفل على الفعل باليد والعين؛ ولعبة «فقاقيع الصابون» تحثه على الفعل بالفم والعين؛ ولعبة «القفز فوق الحبل» تحثه على الفعل بالرجلين والعينين، إذا كان يلعب مع طفلين يمسكان بطرفي الحبل ويلفانه حوله عندما يقفز إلى الأعلى متجنبا لمس الحبل؛ كما أن لعبة «القفز فوق الحبل» تحث الطفل على الفعل بالرجلين واليدين، إذا كان يمارس اللعبة بانفراد، حيث يمسك طرفي الحبل بيديه ويلفه حوله، عندما يقفز قفزات متتالية إلى الأعلى دون أن يمس الحبل برجليه. وألعاب «المطاردة والعدو والمسك والاختفاء» تحثه على الفعل بالرجلين والعينين واليدين؛ أما ألعاب «حل الألغاز»، فتحثه أكثر على استخدام مهارات التفكير. ويستنتج من هذا أن حرمان الطفل من اللعب مع أقرانه، قد يسبب له انكسارا في تعلماته، وتأثيرا سلبيا على اهتمامه بالتعليم المدرسي، ويحد من رغبته في نقل الخبرة التي اكتسبها إلى غيره من الأطفال؛ وبالتالي قد يحصل نوع من الاضراب في شخصية المحروم من اللعب.

«الألعاب الرياضية»:

وهي ألعاب للأطفال المتقدمين في السن، تخضع لقوانين، وتمارس داخل ملاعب خاصة، وبتجهيزات تناسب طبيعة اللعبة وأعمار الأطفال، وتتم تحت إشراف مختص تقني من الراشدين، يسهر على تحقيق الأهداف المتوخاة من وراء اللعب (كالبناء الصحي الجسدي للأطفال، والرفع من الروح المعنوية لديهم، وزيادة قدرتهم على التحمل، وإبعادهم عن النزوع إلى الأذى وإزعاج الغير، ...). ومن هذه الألعاب نذكر: كرة اليد، وكرة السلة، وكرة المضرب، وكرة القدم، والكراطي، والجيدو، والسباحة... وتحقق الألعاب الرياضية فوائد ملموسة ومعروفة تتعلق بتعلم المهارات الحركية والاتزان الحركي والفاعلية الجسمية، وهي فوائد تنعكس على تنشيط الأداء العقلي وعلى الشخصية كوحدة متكاملة النمو السوي.



-٨-
«الألعاب الإلكترونية»:

وهي ألعاب تربوية حديثة العهد، تبرمج في الحاسوب، واللعب بها، يتطلب من اللاعب الطفل، تشغيل الحاسوب بمهارات حركية وبمهارات لغوية، مكتسبة لديه، ثم تنمو هذه المهارات مع ممارسته للعب باللعبة الإلكترونية التربوية المناسبة لسنه؛ ويتمظهر هذا النمو في ما يأتي: - في ازدياد سرعة الحركة اليدوية عند اللاعب؛ - في تمثل اللاعب للأشياء والحالات الواقعية بواسطة الرموز؛ - في اكتشاف اللاعب بنفسه كيفية اشتغال الأشياء وردود فعلها وخصائصها (اللون والشكل والعلاقات فيما بينها)؛ - في تسارع النضج الذهني عند الطفل اللاعب؛ - في غنى الرصيد اللغوي لدى اللاعب الطفل؛ - في تحسن

> الألعاب التمثيلية ألعاب إبداعية، مسيطرة على نشاط الطفل في طفولته المبكرة، وتنطوي في أصلها على الكثير من الخيال عند الطفل

القـراءة والكتابـة واسـتعمال التسـميات، بالنسـبة إلى الطفـل اللاعـب.

«الألعاب التمثيلية»:

وهـي ألعـاب إبداعيـة، مسـيطرة عـلى نشـاط الطفـل في طفولتـه المبكـرة، وتنطـوي في أصلهـا عـلى الكثـير مـن الخيـال عنـد الطفـل؛ ففيهـا يعكـس الطفـل الكثـير مـن نمـاذج الحيـاة الإنسـانية والماديـة المحيطـة بـه، ويعيشـها بالخيـال غالبـا وبالواقـع أحيانـا، أثنـاء اللعـب. فالأطفـال في سـن مـا قبـل المدرسـة الابتدائيـة، يقـوم لعبهـم التمثيـلي الابتـكاري عـلى الخيـال والتخمـين والتسـاؤلات والاستفسـارات والتنقيـب والاستكشـاف، ويـنزع الطفـل إلى الدهشـة. ففـي اللعـب التمثيـلي الخيـالي، ينمـي الطفـل قدراتـه عـلى: - تجـاوز حـدود الواقعيـة؛ - تحقيـق رغباتـه بطريقـة تعويضيـة؛ - تخليـص نفسـه مـن الضيـق والسـخط والغضـب؛ - اسـتبعاد أو مغالبـة الظـروف الـتي تزعجـه أو تخذلـه في حياتـه الواقعيـة. والمعـروف أن الطفـل في البدايـة يكـون فرديـا، قليـل التعـاون في لعبـه، لأنـه يبتغـي السـيطرة عـلى اللعـب بـدلا مـن تحديـد جهـوده في إطـار دوره، إلا أنـه يتعلـم بالتدريـج التعـاون مـع الآخريـن المشـتركين في اللعـب ويتبـادل أدوار اللعـب معهـم، ونتيجـة لذلـك فإنـه يحظـى بغبطـة أكـبر، حينمـا يصبـح عضـوا فعـالا في فريـق ويتعـاون مـع أعضائـه ويخضـع لقواعـده. وتصـير الألعـاب التمثيليـة تنافسـية في مضمونهـا، في سـن مـا قبـل المراهقـة. ومـن مزاياهـا بالنسـبة إلى الطفـل: - أنهـا باعثـة للبهجـة في النفـس؛ - يتعلـم منهـا كيـف يسـلك وينسـجم مـع الأطفـال الآخريـن؟؛ - يتعلـم مـن خلالهـا كيـف يلعـب دور القائـد أحيانـا والتابـع في مواقـف أخـرى؟ - ويتعلـم كيـف يقـدر نفسـه ويقيـم قدراتـه بطريقـة واقعيـة.

«لعبة الرجيلة»:

وهـي لعبـة تنجـز عـلى شـكل منافسـة فرديـة بـين الأطفـال بالتنـاوب؛ ففـي إنجازهـا يحـاول كل لاعـب الوقـوف متوازنـا عـلى رجـل واحـدة، ثـم يقـوم بتحريـك الرجـل الأخـرى ليرفـع بهـا الأداة الخفيفـة «الرجيلـة» مـن الأسـفل إلى الأعـلى دون إسـقاطها، ولمـا تسـقط «الرجيلـة» تعطـى الفرصـة للاعـب آخـر، لـكي يبـدأ بـدوره اللعبـة.

-٩-

«ألعاب الدمى»:

وهـي مـن الألعـاب التقليديـة الموجـودة في الوسـط الاجتماعـي للأطفـال، والـتي تمـارس مـن قبـل الفتـاة بعفويـة وحريـة وتلقائيـة بعيـدا عـن الضوابـط المقننـة، وتحقـق بهـا التواصـل الجماعـي، وتكتسـب مـن خلالهـا معـارف متنوعـة حـول مكوناتهـا وأدواتهـا وظروفهـا ومـا تحملـه مـن رمـوز ثقافيـة تراثيـة وأخلاقيـة وترفيهيـة، لأن الفتـاة تصنـع بنفسـها العرائـس «الدمـى» مـن القمـاش والعصـي، وتلبسـها ملابـس مختلفـة باختـلاف الشـخصيات الـتي تتخيلهـا.

٣) ميادين اللعب، وأدواته:

«المؤسسات الأولية (الروض والتعليم الأولي)»:

تربية الأطفال في المؤسسات الأولية، لها ما يميزها عن التربية في محيط المنزل، بما يتوفر في هذه المؤسسات من مباني واسعة ومضيئة ومجهزة بأثاث خاص يناسب الأطفال، ومن ساحات مؤثثة بالأغراس وبتجهيزات اللعب، ومن مشرفات (ومشرفين) مختصات (ومختصين) في اختيار اللعب والأشياء ومواد وأنماط التربية والتعليم، والتي تستهدف تطوير قدرات الأطفال. فتحت عناية أهل الخبرة والتجربة من المربين والمربيات بالأطفال، تتحول العلاقات بين الأطفال إلى شعور رفاق عميق للسلوك وتنسق إلى قواعد معينة.

> يكمن دور المربية أو المربي، في الأخذ بيد الطفل ومساعدته على الاستفادة من الرحلات ومن الألعاب، في بلورة مكتسباته من المعارف والمهارات

ففي فضاءات الروض والتعليم الأولي بالنسبة إلى الأطفال ذوي الأعمار من سنتين إلى خمس سنوات، تمارس التربية البدنية، وتهتم بالعناية بالطفل من الناحية الجسدية، وذلك باللجوء إلى الألعاب والتمرينات الجماعية المنظمة والمناسبة لاستعدادات الطفل وقابلياته، كالمشي والجري والتسلق والاهتزاز والقفز ورمي الكرة...، والتي يمكن أن تكون مصحوبة ببعض الإيقاعات والآلات والأدوات والأجهزة الصوتية الخفيفة. وهي الألعاب التي يستغل فيها الطفل ما لديه من طاقة وحيوية، بإشراف المربية التي تلتزم في عملها التربوي هذا، بما يلي: - بعدم الإفراط في اللعب لدرجة إجهاد الطفل وإحساسه بالتعب؛ - مراعاة التدرج في ممارسة التمرينات الرياضية المقدمة من السهل إلى الصعب وفي مدة زمنية مناسبة لكل تمرين في اللعبة؛ - عدم وضع الأطفال في تيار هوائي بعد أدائهم لأدوارهم في اللعبة؛ - تجنب ممارسة التربية البدنية مباشرة بعد الأكل.

من أجل تحقيق الأهداف التالية: ١- أن يتملك الطفل قواعد العلاقات الاجتماعية التي توفرها له اللعبة، في تعامله مع الآخرين؛ ٢- أن يشعر الطفل بالمتعة والسرور بنشاطه البدني مع أقرانه؛ ٣- أن ينمي الطفل ثقته بنفسه ويعمل على ضبطها؛ ٤- أن يتعاون بشكل بناء مع أقرانه؛ ٥- أن يحقق الطفل تقدما في قوته البدنية، ويحسن استغلالها بالمثابرة وقوة العزيمة والإرادة.

ومن بين مواد اللعب التي تساعد على النمو الجسمي والحركي للطفل، نذكر: - أرجوحة التوازن الأفقي، والسلالم، وإطار التدحرج، وعربة يد خشبية للجر والدفع، وأرجوحة الحبل، وكرات للرمي، وسيارات ثلاثية العجلات.

-١٠-

ومن بين مواد اللعب التي تساعد الطفل على صنع الأشياء، نذكر: مكعبات مختلفة الأحجام، وقطع خشبية متباينة الأشكال، وأوتاد خشبية، وأكوام من الرمل النظيف، وصناديق فارغة من الداخل وقابلة للتركيب والبناء.

ومـن بـين مـواد اللعـب الـتي تسـاعد عـلى تنميـة التـذوق لـدى الطفـل، نذكـر: لوحـة خشـبية قيـاس مسـاحة سـطحها ٣m× ١m تثبـت عـلى ارتفـاع مناسـبة للرسـم والتلويـن، وأقـلام رصـاص وأقـلام ملونـة وطباشـير ملـون وورق ملـون، ولوحـات مثقوبـة للخياطـة والتطريـز، وقطـع مـن الكارتـون لتفصيـل العرائـس وصنـع المنـازل، وبعـض آلات الطـرب والموسـيقى السـهلة الحمـل والاسـتعمال.

ومـن بـين مـواد اللعـب الـتي تدفـع الطفـل للعنايـة بممتلـكات منزلـه وسـبل اسـتخدامها، نذكـر: أدوات الأكل والطبـخ، ومناضـد، وكـراسي خشـبية أو مـن اللدائـن، وأسرة صغـيرة.

ومـن بـين مـواد اللعـب الـتي تدفـع الطفـل إلى الاهتمـام بالزراعـة والبسـتنة، نذكـر: نمـاذج مـن الحفـارات والجـرارات والحاصـدات، ونمـاذج مـن أدوات الحفـر والسـطول، وأقفـاص للطيـور، وحظائـر للدواجـن، وأحـواض للأسـماك، وبسـاتين للأزهـار والنباتـات، وعربات حقيقيـة لنقـل الرمـال.

«ميادين الرحلات»:

إن إنجـاز لعبـة، يتطلـب مـن الأطفـال اسـتخدام المعـارف المكتسـبة لديهـم والمتصلـة بمكونـات وأهـداف اللعبـة، الأمـر الـذي يقتـضي، أن يكـون الأطفـال عـلى قـدر مـن الاطـلاع عـلى العنـاصر المكونـة للعبـة. وممـا يفيـد الأطفـال في أخـذ معلومـات أو تصـورات عـن الأشـياء الـتي يمكـن أن يلعبـوا بهـا مسـتقبلا، هـو اصطحابهـم إلى الأماكـن والمرافـق، حيـث توجـد هـذه الأشـياء والأفعـال المصاحبـة لهـا. ولـو أن هـذه التصـورات والانطباعـات الـتي يكونهـا الطفـل عـن الأشـياء والأفعـال الـتي يلاحظهـا، غالبـا مـا ينقصهـا الوضـوح والدقـة في ذهنه، ولكنهـا تشـكل دافعـا لـه للعـب باللعـب الـتي تحسـن هـذا النقـص في تمثلـه للمعرفـة بنـوع مـن الدقـة في الإدراك الـذي يخلصـه مـن الشـوائب الـتي امتزجـت في الانطباعـات الأوليـة لديـه عـن الأشـياء والأفعـال. وهنـا يكمـن دور المربيـة أو المربي، في الأخـذ بيـد الطفـل ومسـاعدته عـلى الاسـتفادة مـن الرحـلات ومـن الألعـاب، في بلـورة مكتسـباته مـن المعـارف والمهـارات. ومـن المعلـوم أن الرحـلات المنظمـة بـإشراف المربـين والمربيـات، يمكـن أن تشـمل مـا يـلي: - البيئـة المحليـة، حيـث يتعـرف الأطفـال عـلى مـا بهـا مـن حدائـق أو حقـول أو بسـاتين أو غابـات أو تضاريـس أرضيـة أو حيوانـات أو أنهـار أو بحـيرات أو مشروعـات الـري أو آثـار معماريـة أو أسـواق أو منشـآت الخدمـات العامـة كالبريـد والـدرك والشرطـة والأبنـاك وإدارة الحالـة المدنيـة والقيـادات والجماعـات القرويـة والحضريـة؛ - المصانـع والمعامـل، حيـث يتعـرف الأطفـال عـلى مكوناتهـا مـن الآلات والعمـال والمنتوجـات الصناعيـة؛ - المعـارض والمتاحـف، حيـث يتعـرف الأطفـال عـلى بعـض المنحوتـات والمصنوعـات الأثريـة والإبداعـات الفنيـة.

«ميادين الرسم»:

يمكـن اعتبـار الرسـم مـن بـين مجـالات الألعـاب الـتي تدخـل ضمـن التربيـة البدنيـة والتربيـة الجماليـة (الفنيـة) في الوقـت نفسـه؛ لأن الطفـل يحقـق مـن خـلال الرسـم اسـتثمار مهاراتـه الحركيـة ومكتسـباته المعرفيـة، المتصلـة بألعابـه. ويبـدأ الطفـل الرسـم في عمـر مبكـرة، فيرسـم في بـادئ الأمـر مـا يعرفـه مـن الـشيء الـذي يلعـب بـه لا مـا يدركـه منـه. ففـي السـنة الثانيـة مـن حياتـه يهتـم بعمـل تخطيطـات غـير منظمـة في اتجاهـات متباينـة، ينمـي بهـا مهاراتـه اليدويـة، وحينمـا يـدرك العلاقـة بـين حـركات يديـه وبـين أثرهـا عـلى الـورق أو الجـدران، يـشرع في عمـل تخطيطـات تأخـذ اتجاهـا أفقيـا أو رأسـيا أو مائـلا. وفي حـدود السـنة الثالثـة مـن عمر الطفـل تنمـو قدرتـه عـلى التحكـم في عضلاتـه والسـيطرة عـلى حركاتـه المختلفـة. فتتطـور تبعـا لذلـك القـدرة عـلى التخطيـط المنظـم الـذي يتحـول إلى تخطيـط شـبه دائري(خطـوط مغلقـة). وفي حـدود السـنة الرابعـة تتحـول رسـوم الطفـل، إلى بلـورة نتائـج خيالـه المعتمـد عـلى التفكـير في عنـاصر اللعبـة الـتي يلعبهـا، كأن يرسـم خطوطـا معينـة ليرمـز بهـا إلى أبيـه أو أمـه أو أحـد إخوتـه أو إلى شـخوص أخـرى يتخيلهـا. ففـي الأدوار- مثـلا- الـتي يعيشـها الطفـل، ويحـاول ايجـاد علاقـة بـين رسـومه والواقـع؛ ويسـتخدم الألـوان مـن أجـل المتعـة والتفرقـة بـين عنـاصر الأشـكال الـتي رسـمها بكيفيـة تجعـل الصفـة الهندسـية تغلـب عـلى قسـم كبـير منهـا.

-١١-

«ميادين التعليم الابتدائي»:

إن الألعـاب الحـرة الـتي تقابـل احتياجـات الأطفـال في مرحلـة المدرسـة الابتدائيـة، تزدهـر ازدهـارا منعشـا للـذات، في ظـل الحريـة، وفي فضـاء رحـب لا يكـون واسـعا أو مفتوحـا أكـثر مـن الـلازم. لـذا يجـب تجـزئ المسـاحات الواسـعة داخـل المدرسـة إلى أجزاء(مناطـق) تلـبي حاجـات



الأطفال إلى الحركة واللعب، وذلك باستخدام الجدران والأعمدة الخشبية والنباتات التي توفر الحماية من آثار العناصر المتصلة بظروف المناخ المحلية، والوقاية من ضربة الشمس والمطر وصدمات البرد القارص؛ وتضفي على ساحة المدرسة الطابع الحي الجميل بما يتوفر فيها من أزهار وأغراس فصلية، وأحجار متنوعة ملونة، وأقفاص للدواجن والطيور، وأكوام رملية نظيفة، وألعاب مختلفة للتمرينات الرياضية،... يؤثر الأطفال أنفسهم في اللعب، على بيئتهم ويغيرونها ويكتشفون بأنفسهم العلاقات الطبيعية بين الأشياء، ويتعلمون الكثير مما لا يمكن تعلمه من الكتب، ويزداد حبهم لمدرستهم كمركز اجتماعي نشيط حيوي، يجتمع فيه الصغار مع الكبار، وتتنوع فيه العلاقات والتفاعلات الاجتماعية البناءة، وتتعدد فيه الخبرات والتجارب المتقدمة، وترسم فيه تخطيطات الآفاق والملامح المستقبلية لعالم الناشئة بصفة خاصة والمجتمع بشكل عام. وهنا يكمن دور كل الفاعلين والفاعلات في حقل التربية والتعليم والتكوين.

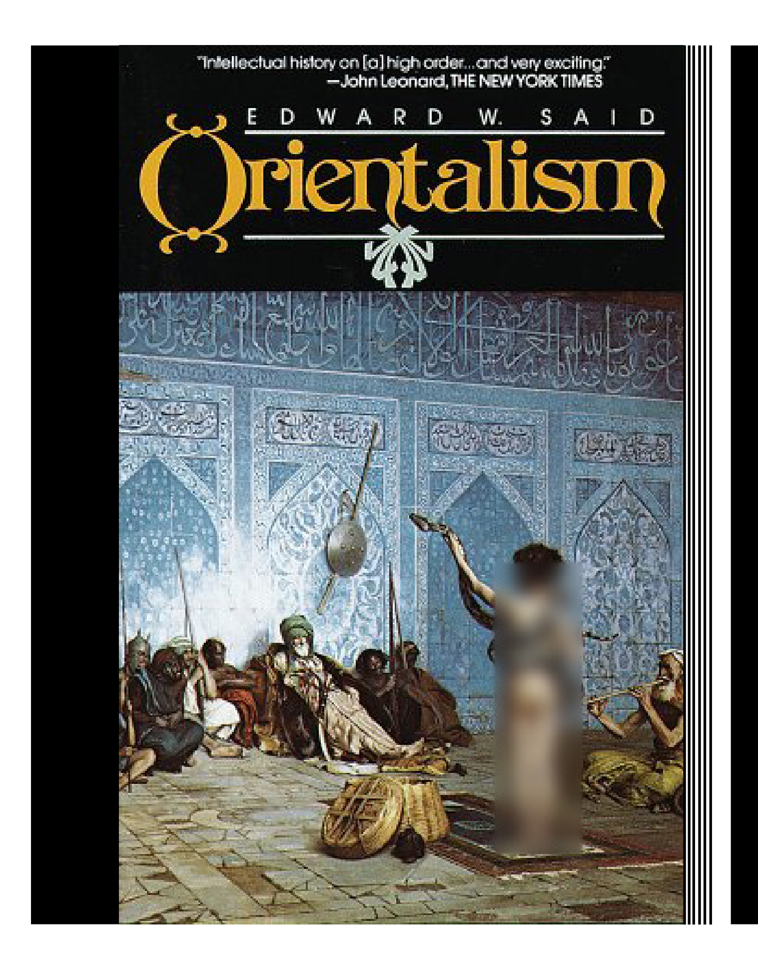
المراجع

- **الدكتور مصطفى حدية / الطفولة والشباب في المجتمع المغربي- قضايا تربوية ونشوئية - / شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع / الرباط ١٩٩١**
- **مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر / العدد الثالث- خاص بالطفولة، / أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر / ١٩٧٩**
- **مجلة الجامعة، العدد الثالث- خاص بمناسبة العام الدولي للطفل / السنة العاشرة / كانون الأول ١٩٧٩ / مطابع مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر.**
- **المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية / العدد الأربعون - تربية الطفل اجتماعيا- / السنة العاشرة / يوليو - سبتمبر١٩٨٠ / اليونسكو.**
- **مستقبليات / المجلد السادس عشر، العدد ٤ - اللعب في التربية - / اليونسكو، سنة ١٩٨٦ / منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة.**
- **مجلة مستقبل التربية / العدد الرابع- ملف خاص: التربية البدنية والرياضية - / اليونيسكو، سنة ١٩٧٩، مركز مطبوعات اليونسكو.**
- **مجلة المعرفة، السنة الثامنة عشر، العدد ٢١٤ / ٢١٥ - عدد خاص عن ثقافة الطفل / (ديسمبر- يناير) ١٩٧٩- ١٩٨٠، وزارة الثقافة / سوريا.**
- **مجلة المعرفة، العدد الأول - التنشئة الاجتماعية للطفل- / نوفمبر ١٩٩٨ / تأليف الدكتور محمد عباس نور الدين، منشورات رمسيس.**
- **مجلة الموسوعة الصغيرة، العدد ٤٤ - سيكولوجية الطفل في مرحلة الروضة- / تموز ١٩٧٩ / تأليف مدحت عبد الرزاق عبد النبي، منشورات وزارة الثقافة والفنون / الجمهورية العراقية.**





بقلم : د. غسان إسماعيل عبد الخالق
كاتب وناقد أدبي من الأردن



الصوت والصدى

مع أن إدوارد سعيد قد وجّه للاستشراق ضربة مؤلمة وتحت الحزام مباشرة، عبر كتابه الأشهر (الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء) الذي صدر بالإنجليزية في عام ١٩٧٨، ونقله إلى العربية كمال أبو ديب في عام ١٩٨١، إلا أنه لم يفعل - في الواقع- أكثر من أنه أيقظ مارد الاستشراق الذي استغرق في النوم منذ العقد السابع من القرن العشرين، في سرير العلوم الإنسانية والاجتماعية. وعلى قلّة ما كان يعرفه مثقفو العرب في الثمانينيات، من الاستشراق وعن الاستشراق الذي توارى عن الأنظار منذ الستينيات - بفعل تصاعد المد القومي واليساري والإسلامي - فقد تطفّل كتاب إدوارد سعيد بالإجهاز على ما تبقى من هذه المعرفة لأسباب عديدة منها:

اقتصاره تقريبًا على المضمون الاستشراقي السياسي (الخفيف) الخاص بعدد من كبار مسؤولي الإدارات الاستعمارية والرحّالة والمغامرين الغربيين، وافتقاره إلى الاشتباك مع المضمون الاستشراقي الفكري (الثقيل) الذي يمثل جوهر وصلب الاستشراق.

اتجاه التيارات القومية واليسارية والإسلامية العربية، لتوظيف الكتاب توظيفًا أيديولوجيًا وسياسيًا واسع النطاق، ضد الغرب الأوروبي والأمريكي.

أسطرة الكتاب والكاتب، بوصفهما اختراقين معرفيين تاريخيين، لخطاب ومؤسسات الغرب الأوروبي والأمريكي.

أطلق الكتاب سيلاً جارفًا من الكتب والدراسات والمقالات العربية حول الاستشراق، اتسم معظمها بالسطحيّة والسعي، لقطف ما يمكن قطفه من ثمار هذا (البزنس) المعرفي الذي أعاد كتاب إدوارد سعيد إحياءَه.

ما تقدّم، قد يتسبّب بصدمة عنيفة لكثير من المثقفين العرب الذين سلّموا تسليمًا يكاد يكون تامًا بأن الاستشراق هو (الاستشراق) الذي وصّفه وعاينه إدوارد سعيد. ويستوي في ذلك من قرأ الكتاب مع من لم يقرأه! لكن الاستشراق -في الواقع- يكاد يكون كيانًا





إدوارد سعيد إذ يثبّت صورة الاستشراق في المشرق العربي

مختلفًا تمامًا عن (الصورة الثابتة) التي رسّخها إدوارد سعيد في أذهان الأجيال الجديدة من المثقفين العرب، لأن مقولات هذا الاستشراق، في معظمها وفي حد ذاتها، قد ترددت بطريقة أو بأخرى لدى بعض المثقفين العرب (قديمًا وحديثًا) في سياق مراجعاتهم ونقوداتهم للتاريخ العربي والفكر العربي والأدب العربي والشخصية العربية (ابن سلام الجمحي وابن جبير وابن خلدون والكواكبي والوردي... على سبيل المثال لا الحصر)، فبدا ما قالوه ضربًا من ضروب النقد الذاتي البنّاء، فيما بدا ما قاله بعض المستشرقين ضربًا من ضروب التحامل والتشكيك والتجريح. وقد أسهمت المواجهات التاريخية الممتدة -عسكريًا وسياسيًا وعقائديًا وثقافيًا- بين الشرق والغرب، في إظهار مقولات المستشرقين بمظهر الطعون المتعمّدة الهادفة، لتحطيم وتدمير الشخصية العربية، ما أدى إلى تغييب الاشتباك مع (ماذا وكيف قالوا ما قالوا؟) لصالح الاشتباك مع (لماذا قالوا ما قالوا؟)!!! أي أن معاينة خطاب الاستشراق قد ظلّت في الغالب خارج سؤال (المعرفة) وداخل سؤال (التأويل). علمًا بأن إدوارد سعيد قد أقر إقرارًا لا مجال للشك فيه، بأن كتابه (الاستشراق) قد تم توظيفه على نحو مخالف تمامًا، لما أراد له في الوطن العربي، وذلك في معرض تقديمه النسخة العربية من كتابه (الثقافة والإمبريالية)! ونظرًا للأهمية الاستثنائية التي ينطوي عليها هذا الإقرار، فسوف أورده كاملا. يقول إدوارد سعيد: (لقد أثار «الاستشراق»، حين صدر في صيغته الأصلية الإنكليزية عام (١٩٧٨)، قدرًا لافتًا من الاهتمام في العالمين العربي والإسلامي، إضافة إلى اهتمام القرّاء والدارسين المتخصصين بالشرق الأوسط. وفي عام (١٩٨١) صدر «الاستشراق» في ترجمة عربية لافتة قام بها الدكتور أبو ديب، ليتعزّز مقام هذا الكتاب بوصفه، إما دفاعًا عن الإسلام أو هجومًا مقذعًا عنيفًا ضد الغرب؛ وكلا الأمرين لا يمت بصلة إلى ما كنت قد انتويته أصلاً من تأليف الكتاب. ومع مرور الزمن، اكتسبت كلمة «الاستشراق» شهرة واسعة باعتبارها لفظة تجريح وتشهير (ومن المفارقات اللاذعة أنني شخصيًا هوجمت من قبل إذاعة ياسر عرفات الرسمية، أثناء زيارة قُمتُ بها لفلسطين عام ١٩٩٦، بتهمة أنني مستشرق) وذهبت أدراج الرياح التحديات المعرفية والمنهجية الأساسية التي جسدها الكتاب. لقد كانت ثمة محاولات جزئية قام بها بعض القرّاء والنقاد العرب لمعالجة تنقيدي لماركس، أو للمؤسسة الأمريكية؛ غير أن الاستشراق جوهريًا، أفرد في العالم



سلم كثير من المثقفين العرب تسليمًا يكاد يكون تامًا بأن الاستشراق هو (الاستشراق) الذي وصّفه وعاينه إدوارد سعيد

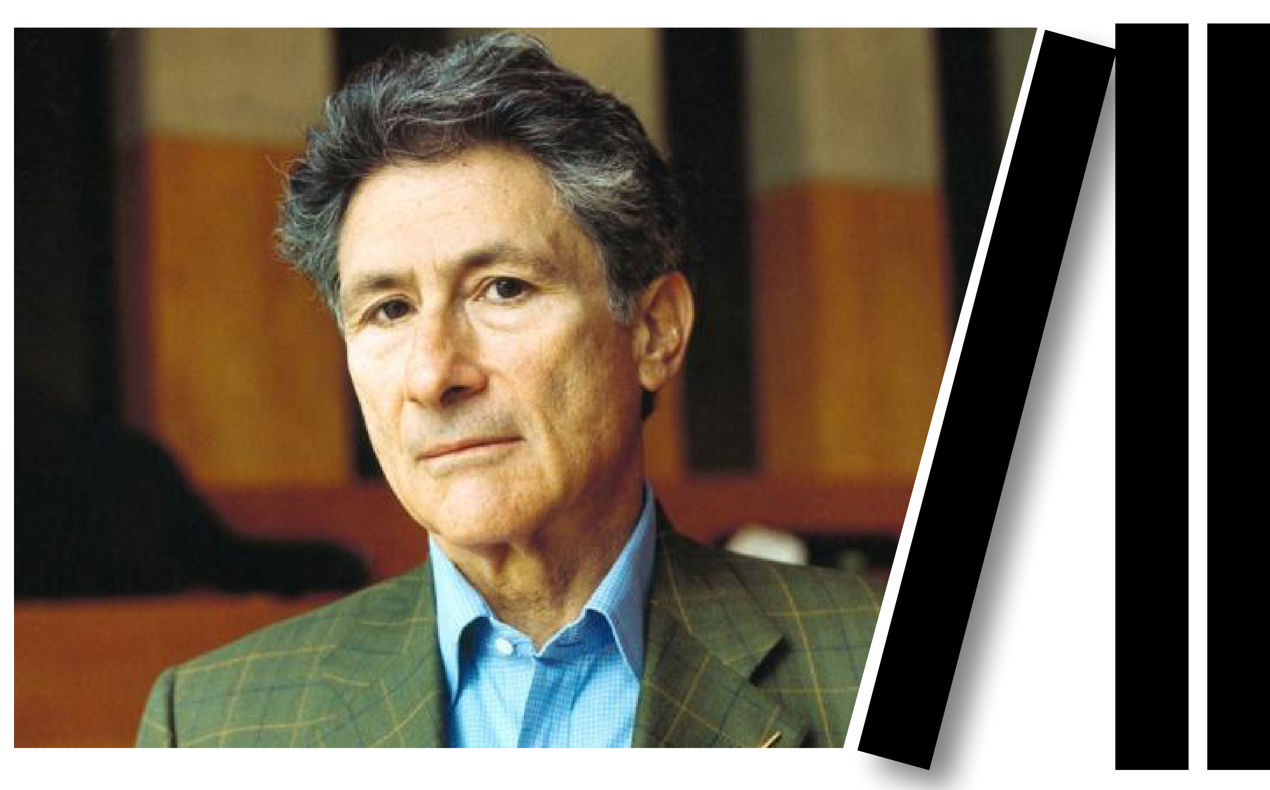
العربي وأسند إليه دور يقع في نقطة ما بين صرخة الحرب ولائحة من الاستنكارات وإعلانات الشجب. إن الأمر في نظري ليقع على مشارف اللغز أو السرّ؛ لماذا ساعد «الاستشراق» في باكستان والهند وإفريقيا واليابان وأمريكا اللاتينية وأوروبا والولايات المتحدة، على إطلاق العديد من أنهاج الإنشاء الجديدة وأساليب التحليل الجديدة، وإعادات تأويل للتاريخ والثقافة، فيما ظلّ تأثيره في العربي محدودًا؟!

وعلى الرغم من هذا الإقرار المدوّي المسهب، يتصدّى الدكتور كمال أبو ديب في هامش الإقرار للقول: (أودّ أن أعبر عن وجهة نظر مخالفة تمامًا لوجهة نظر مؤلف «الاستشراق» حول تأثيره في العالم العربي؛ فلقد كان هذا التأثير في المجالات التي أعرفها، عميقًا وجذريًا إلى درجة يستحيل وصفها هنا. ولقد جاء هذا التأثير في مفصل تاريخي حاسم تمامًا)!!

إدوارد سعيد يوقظ مارد الاستشراق

ولد المفكر والناقد الأمريكي من أصل عربي فلسطيني في مدينة القدس عام ١٩٣٠، وتوفي في نيويورك عام ٢٠٠٣. وقد نشر العديد من الكتب في النقد الأدبي والحضاري والسياسي والموسيقى، أهمها في حقل النقد الأدبي والحضاري: جوزف كونراد / ١٩٦٦، بدايات /١٩٧٤، تغطية الإسلام / ١٩٨٠، العالم والنص والناقد / ١٩٨٣، الثقافة والإمبريالية / ١٩٩٣، تمثّلات المثقف / ١٩٩٤، إلا أن ثمة إجماعًا على أن كتابه (الاستشراق) الذي نشر باللغة الإنجليزية في عام ١٩٧٨، وترجمه الدكتور كمال أبو ديب إلى العربية في عام (١٩٨١)، هو أكثر كتبه شهرة ودويًّا، وخاصة في الوطن العربي.

يقع الكتاب في ٣٦٦ صفحة من القطع الكبير، ويشتمل على مقدمة طويلة للمترجم وكشّاف اصطلاحات، ومقدمة طويلة جدا للمؤلّف عرض فيها ملابسات ودواعي تأليف الكتاب، فضلاً عن المنهجية التي اتبعها بوحي من ميشيل فوكو الذي زاوج بين القوة والمعرفة، وعمل على تكثيف مظاهر وآليات هذا التزاوج.



في الفصل الأول من الكتاب، والذي تدثر بعنوان رئيس هو (مجال الاستشراق) أدار إدوارد سعيد الحديث من حول أربعة عناوين فرعية هي: (التعرّف على الشرق)، فكاد يقتصر على بلفور وكرومر وكتشنر - وهم أبرز موظفي الاستعمار البريطاني الكبار- و(الجغرافيا التخيلية وتمثيلاتها: شرقية الشرق) - وكاد يقتصر على (المكتبة الشرقية) لبارتلمي ديربيلو وقراءة غالان فيه- و(مشاريع)- وهو العنوان الذي اكتنف تحليلاته للعلاقة بين تنظيرات كبار الموظفين وبعض المستشرقين من جهة والإدارة الاستعمارية في كل من إنجلترا وفرنسا من جهة أخرى، وتمخضت عن إقدام إنجلترا على استعمار الهند، وإقدام نابليون على استعمار مصر- ويمكنني الجزم بأن هذا المقطع من الكتاب (ص١٠٠-ص١١٧) هو الأمتن في الكتاب كلّه، كما يمثل أيضًا النواة الصلبة للكتاب الذي سيصدره إدوارد سعيد لاحقًا تحت عنوان (الثقافة والإمبريالية في عام ١٩٩٣، فيما جاء العنوان الفرعي الرابع بصيغة (أزمات).

وأما الفصل الثاني من الكتاب (البنى الاستشراقية وإعادة خلق البنى)، فقد أداره إدوارد سعيد من حول أربعة عناوين فرعية أيضًا هي: (حدود أعيد رسمها، قضايا أعيد تحديدها والدين المُعَلْمَن) و(سلفستردوساسي وإرنست رينان: عالم الإنسان)- ومن الملاحظ أنه قد استطرد في الكلام عن فقه اللغة عند (رينان)، ولم يتطرّق من بعيد أو قريب إلى رد الأفغاني عليه- و(الإقامة في الشرق والبحث: متطلبات المعجمية والخيال) و(الحج والحجاج، بريطانيين وفرنسيين)، حيث أسهب في استعراض رحلات كل من: شاتوبريان، لامارتين، نرفالو، فلوبير، وكينغليكو بيرتن، خالصًا من هذه العروض المسهبة إلى القطع بأن المستشرقين ما هم إلا عملاء إمبرياليون.

في الفصل الثالث والأخير الذي تدثر بعنوان رئيس هو (الاستشراق الآن) يدير إدوارد سعيد الكلام من حول أربعة محاور فرعية هي: (الاستشراق الكامن والظاهر) و(الأسلوب، المعرفة الخابرة والرؤيا: دينونة الاستشراق)- حيث تصدّى مجدّدًا لعرض تجربة مغامريْن استعماريين آخرين هما: لورنس العرب وموريس بريس- و(الاستشراق الأنجلو فرنسي الحديث في ذروة الازدهار) - فعرض لجهود كل من ماسينيون الفرنسي وهاملتون جب الأمريكي، مع ضرورة الانتباه إلى حقيقة أن استطراده المتأخر في الكلام على ماسينيون المعروف بتعاطفه الشديد مع الثقافة الإسلامية

> أفرد الاستشراق جوهريًا في العالم العربي، وأسند إليه دور يقع في نقطة ما بين صرخة الحرب ولائحة من الاستنكارات وإعلانات الشجب

ومناصرته المشهودة للقضايا العربية، قد مثّل شكلاً من أشكال الشعور المتأخر بالذنب! -و(المرحلة الأخيرة)- حيث نوه بافتقار مكتبة الدراسات العربية الإسلامية الأمريكية للاعتناء بالأدب العربي خصوصًا، فضلاً عن قيامه بفتح النار على برنارد لويس بوصفه نموذجًا للمستشرق / الخبير المناهض للإسلام والمسلمين بإطلاق، ومستثنيًا في الوقت نفسه كلا من جاك بيرك وماكسيم رودنسون من حومة الاستشراق المشبوه، وذلك لقدرتهما الاستثنائية على الانعتاق منهجيًا من الدورات التدريبية الاستشراقية!!!

يمكننا القولن إن الملابسات التي اكتنفت كتاب «الاستشراق» قد تحدّرت من ثلاثة طرق؛

* **طريق الترجمة** التي يتحمّل وزرها الناقد الدكتور كمال أبو ديب، الذي لم يدّخر وسعًا لإقناع القارئ العربي بخطورة الكتاب، فقدّم له بمقدمة طويلة نافت عن ٣٠ صفحة، استعرض في معظمها ما يواجه المترجم من عقبات بوجه عام، ولم تخل من مغالطات تاريخية: كقوله بأن المترجمين العرب القدماء قد نجحوا في تعريب النص الفلسفي الأدبي إلى حد بعيد، مع أن ثمة إجماعًا على أن ترجمتهم لكتاب (فن الشعر) لأرسطو مثلاً، قد اشتملت على مغالطات حالت دون الإفادة من نظرية الشعر عند اليونان على صعيد تطوير مفاهيم وأدوات النقد العربي القديم. وكإصراره على ترجمة كلمة (Discourse) بـ (الإنشاء) بدلاً من (الخطاب) التي اقترحها هاشم صالح، مع أن كلمة (الإنشاء) في العربية تقترن بالعديد من الظلال السلبية كالحشو والتكرار والارتهان للمحسّنات اللفظية، فيما أن كلمة (الخطاب) مؤهلة دينيًا وتاريخيًا ومعرفيًا لاحتمال المعاني والدلالات التي استهدفها ميشيل فوكو. وكمبادرته سلفًا لوضع وعي القارئ بين قوسين،

> أشاع كمال أبو ديب في مقدّمة الكتاب بأن ترجمة الكتاب لا تقل أهمية عن الكتاب نفسه إلى الحد الذي أكاد أجزم معه بأن إدوارد سعيد نفسه قد شعر بالضيق حياله

من خلال إلحاحه على تقديم فهمه الخاص لأطروحة الاستشراق بوصفه التأويل الوحيد الذي يصعب الخروج بغيره من تأويلات، إلى الحد الذي أكاد أجزم معه بأن إدوارد سعيد نفسه قد شعر بالضيق حياله. وبوجه عام، فقد تمخض هذا الاستنفار الشديد الذي أشاعه كمال أبو ديب في مقدّمة الكتاب تحديدًا -ولم يخل من الإيحاء للقارئ بأن ترجمة الكتاب لا تقل أهمية عن الكتاب نفسه- عن ترجمة بالغة التعقيد والتصنّع لكتاب يتسم بالتعقيد أصلاً، سواء على صعيد المفردات أو المصطلحات، أو على صعيد تركيب الجملة وبناء الفقرة، ما أسهم إلى حد بعيد في ازورار كثير من قرّاء الكتاب عن إكمال قراءته، لا بل إن هذه الترجمة المعقّدة قد ألقت بظلها الثقيل على الصفحات الثلاث السابقة - كما لاحظ القارئ الفطين- فجاء عرضي للكتاب متخمًا بالجمل الطويلة والمعترضة، وتباعد المسافة بين المسند والمُسند إليه.

* **طريق المؤلّف** الدكتور إدوارد سعيد، الذي توجّه بهذا الكتاب إلى القارئ الغربي في المقام الأول، فبدت تطبيقاته اللافتة لمقولات ميشيل فوكو على صعيد تفكيك آليات الخطاب وتجلياته أشبه بالألغاز في نظر القارئ العربي الذي كان ما يزال حديث عهد بأطروحات فوكو، كما بدت كثير من الأسماء والمؤلفات التي تناولها بالتحليل أشبه بالأحاجي أيضًا، وخاصة لأن معظمها كُتب ونُشر بلغات أجنبية، ولم يترجم إلى اللغة العربية.

* **طريق آليات الاستقبال والتأويل** في الوطن العربي، التي كانت قد تسيّست وتأدلجت إلى درجة يصعب معها الفصل بين الجغرافي والتاريخي والمعرفي من جهة، وبين الغرب والاستعمار والرأسمالية من جهة ثانية. ومما زاد من حدّة التأويلات المضادة، أن كتاب «الاستشراق» قد صدر في طبعته الإنجليزية ثم في طبعته العربية (١٩٧٩ / ١٩٨١)، وقد بلغت المواجهات العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية أوجها بين العرب والغرب، فراحت مسوّغات هذه المواجهة على الجانب العربي تتصاعد إسلاميًا وقوميًا وماركسيًا.

مرآة إدوارد سعيد تحت المجهر

على أن ما تقدّم من ملاحظات بخصوص منهجية إدوارد سعيد -وهي ملاحظات لا يتحمل هو وزرها بقدر ما يتحمل وزرها هذا التباعد الذي قد وصل حد التناقض بين سياقين حضاريين، هما السياق الثقافي الغربي والسياق الثقافي العربي- ليست إلا دفعة أولى متواضعة من حساب، يمكن إيجاز أبرز تفاصيله على النحو التالي:

أولاً: في الوقت الذي لم يدّخر إدوارد سعيد جهدًا لإثبات حقيقة حضور المستشرق الغربي ومركزية خطاب الاستشراق الاستعماري من جهة، وغياب الشرق العربي بوجه خاص من هذا الخطاب من جهة ثانية، فقد غاب الشرق من كتابه غيابًا يكاد يكون تامًا؛ إذ على كثرة النصوص والمستشرقين الذين تصدّى لها / لهم بالتحليل والتتبّع، إلا أنه لم يجشّم نفسه عناء تمثيل الشرق العربي من خلال التصدي لتحليل وتتبع نصوص وأعلام النهضة في القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين. ومع أن مستوى وعدد هذه النصوص ومؤلفيها قد لا يرتقي إلى مستوى المقارنة بينها / بينهم وبين نظيراتها / نظرائهم من المستشرقين والمفكرين والأدباء الغربيين، إلا أن إغفالها / إغفالهم يؤكد أن إدوارد سعيد لم يكن في منأى عما حذّر منه وأفاض في التدليل عليه.

ثانيًا: على الصعيد التفصيلي البحت، نستغرب مثلاً ألا يخطر ببال إدوارد سعيد، أن يعقد فصلاً تحليليًا مقارنًا وواعدًا جدًا، بين إرنست رينان الذي استحوذ على كثير من اعتنائه، وبين جمال الدين الأفغاني الذي مثل ردّه - بتاريخ (١٨٨٣/٩/١٨) في صحيفة لوديبا على محاضرة رينان الشهيرة (الإسلام والعلم) التي ألقاها في السوربون بتاريخ (١٨٨٣/٣/٢٩) بخصوص قصور العقل العربي- أول ارتطام مباشر بين الاستشراق والشرق في العصر الحديث. كما نستغرب أيضًا أن لا يعقد فصلاً تحليليًا مقارنًا وواعدًا جدًا، بين ديفيد مرجليوث الذي



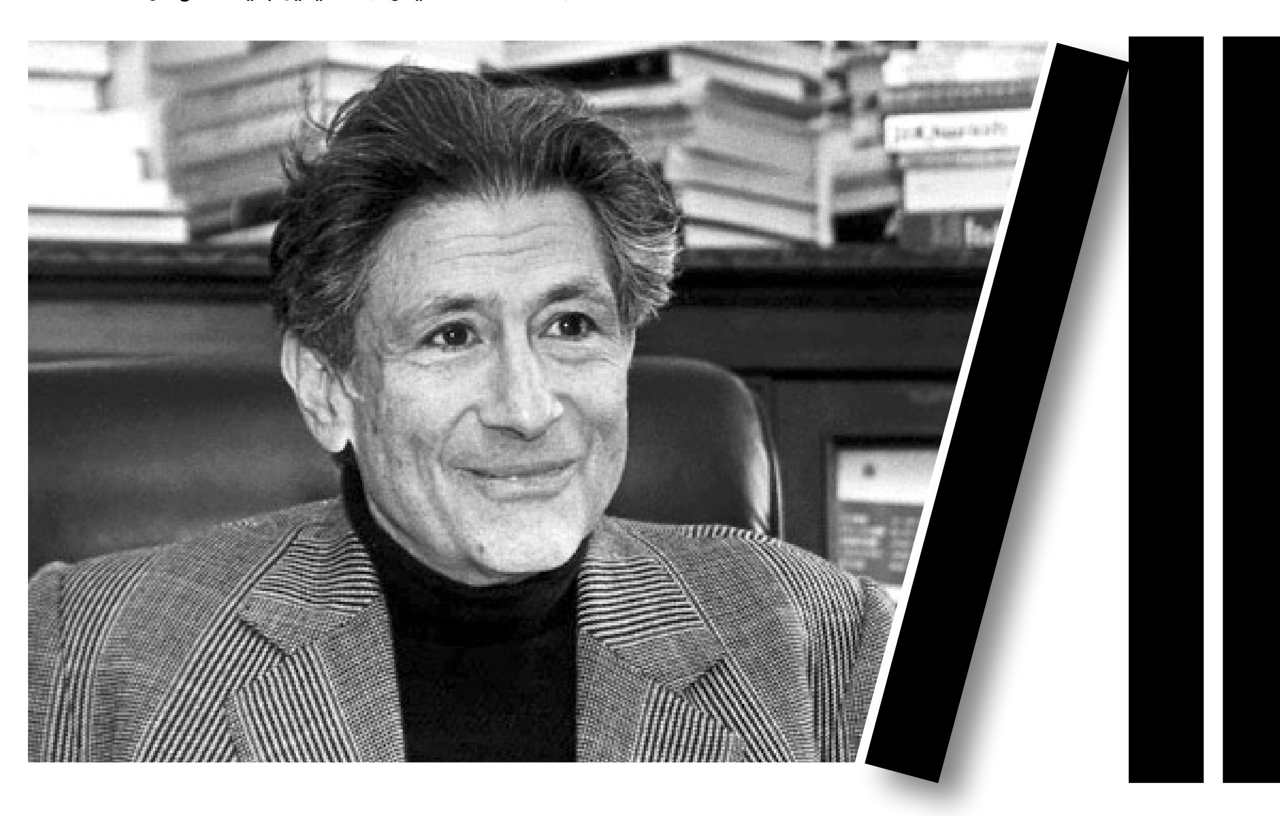
استحوذ في حينه بكتاباته عن الإسلام ونبي الإسلام والشعر الجاهلي على القسط الأوفر من اهتمام عدد من المفكرين والنقاد والأدباء العرب - ومع ذلك فقد غاب غيابًا تامًا في كتاب الاستشراق- وبين طه حسين الذي مثّل كتابه (في الشعر الجاهلي) الاختبار الأول والأقسى لمقولات الاستشراق في الثقافة العربية المعاصرة. علمًا بأن إدوارد سعيد نعى على مكتبة الدراسات العربية والإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية افتقارها إلى الدراسات الأدبية كما أن العديد من المقالات والدراسات التي دارت حول مرجليوث وطه حسين يمكن الإحالة بخصوصها إلى كتاب الدكتور ناصر الدين الأسد (مصادر الشعر الجاهلي).. على سبيل المثال لا الحصر.

ثالثًا: من الملاحظ أن الاستشراق الفرنسي قد استحوذ على القسط الأوفر من اعتناء إدوارد سعيد بوجه عام، وأن كلا من المستشرقين: دي ساسي وإرنست رينان، قد استحوذا على اعتنائه بوجه خاص، وذلك على حساب قطاعات رئيسة من الاستشراق الأوروبي، مثل الاستشراق الألماني والاستشراق الروسي. ولا يقلّل من خطورة هذه الملاحظة الفاقعة تجاهه لإيلاء الاستشراق الإنجليزي قدرًا ملحوظًا من اعتنائه أو تجاهه لاستدراك بعض النقص على صعيد الاستشراق الفرنسي ذاته من خلال إيلاء ماسينيون قدرًا من الاعتناء.

استحوذ الاستشراق الفرنسي على القسط الأوفر من اعتناء إدوارد سعيد بوجه عام، وذلك على حساب قطاعات رئيسة من الاستشراق الأوروبي، مثل الاستشراق الألماني والاستشراق الروسي

رابعًا: من الملاحظ أيضًا أن انشداد إدوارد سعيد لربط الخطاب الاستشراقي بالإدارة الاستعمارية - ما دفع به للمراوحة بين عدد من النصوص الفرنسية والنصوص الإنجليزية فقط- قد غيّب جانبًا مشرقًا أو موضوعيًا من الاستشراق الذي تمثل في جهود عدد من المستشرقين الألمان والروس بوجه خاص، مثل جهود بروكلمان وكراتشكوفسكي فضلاً عن عدد من الجهود الاستثنائية، مثل جهود المستشرق المجري جولدتسيهر.

خامسًا: من المستغرب أن ينطلق إدوارد سعيد في كتاب (الاستشراق) من تمثّل لامع لتفكيكات الخطاب عند ميشيل فوكو، ثم يتعامل مع الاستشراق بوصفه سلّة واحدة، لا تمايز ولا تمييز بين مكوناتها... تمامًا



إن الاستشراق مثّل حالة ذهنية صمّاء في وعي إدوارد سعيد إلى الحد الذي غابت معه الفروق النوعية بين الاستشراق الروسي والاستشراق الألماني من جهة والاستشراق الإنجليزي والاستشراق الفرنسي من جهة ثانية

كما تعامل المستشرقون الذين درسهم مع الشرق بوصفه سلّة واحدة لا تمايز ولا تمييز بين مكوناتها، فتمخّض استقراؤه الناقص عن تعميمات ليست دقيقة في الحد الأدنى كما تمخّضت استقراءات كثير من المستشرقين الذين درسهم عن تعميمات خاطئة أيضًا. فكما أن الشرق مثّل حالة ذهنية صمّاء في وعي عدد من المستشرقين إلى الحد الذي غابت معه حدوده الجغرافية -إذ إن جزءًا من هذا الشرق يقع جنوب أوروبا ممثّلاً في شمال إفريقيا- فإن الاستشراق مثّل حالة ذهنية صمّاء في وعي إدوارد سعيد إلى الحد الذي غابت معه الفروق النوعية بين الاستشراق الروسي والاستشراق الألماني من جهة والاستشراق الإنجليزي والاستشراق الفرنسي من جهة ثانية، لا بل إلى الحد الذي غابت معه الإشارة إلى التباينات الملبسة في مواقف بعض المستشرقين الفرنسيين وعلى رأسهم رينان نفسه، إذ من المعروف أن هذا المستشرق الإشكالي قد زار مصر وصلى في مساجدها، وصدرت عنه تصريحات متعاطفة جدًا مع الإسلام والمسلمين!

سادسًا: ومن الملاحظ أيضًا على صعيد النماذج التي اختارها إدوارد سعيد للدراسة - بلفور وكرومر وكتشنر- أنها لا تمثل نماذج استشراقية أصيلة أو جذرية في عالم الاستشراق، بل هي تمثّل نماذج لموظفين كبار في الإدارات الاستعمارية أو نماذج لمغامرين ورحّالة في المقام الأول. ومن المؤسف أن إدوارد سعيد قد استغرق كثيرًا في تتبّع وتحليل خطابات هذه النماذج إلى درجة الإملال. وأما بخصوص استطراداته المشابهة، لتتبّع وتحليل خطابات نماذج مثل نيتشه وشاتوبريان؛ ففضلاً عن كونها تتبّعات وتحليلات لنماذج أدبية تشتمل على صور وتجليات للشرق في أحسن الأحوال، وليست استشراقية بالمعنى الدقيق للاستشراق، فقد بدت قراءات أدبية بحتة في نصوص أدبية بحتة، وليست تفكيكات فلسفية بالمعنى الدقيق، للتفكيك من منظور فوكوي. وقد عمّقت الاقتباسات المتتالية والمطوّلة جدًا، فضلاً عن كل ما تقدم، شعور القارئ المدقّق، بأن إدوارد سعيد قد وصل إلى طريق مسدود، فأكثر من الحزّ في سبيل الكشف -عبثًا- عن المفصل!

سابعًا: على الرغم من الإضافة النوعية التي اجترحها إدوارد سعيد على صعيد معاينة الاستشراق الجديد، وبوجه خاص في طوره الأمريكي، إلا أن الطابع العملي والإحصائي والتقريري، قد وسم الفصل الأخير على حساب العرض والتحليل؛ فبدا الفصل أشبه بتقرير أعدّه ملحق ثقافي لدولة تشعر بالقلق الشديد جرّاء تصاعد الاستثمار الأمريكي في الدراسات العربية والإسلامية أو الشرق أوسطية! كما بدت الصفحات الأخيرة من الكتاب -وهي الصفحات التي كان ينبغي أن تكون الأعمق والأخطر- كما لو أنها كتبت على عجل ونزق شديدين، فضلاً عن أن إدوارد سعيد قد اختزل فيها -بكل ما في الكلمة من معنى- ردود الأفعال العربية تجاه الاستشراق بإشارات عابرة لأنور عبد الملك وعبد الله العروي، ناهيك بالتعريض بمن راحوا يتبنون مقولة (العقل العربي) في أوساط المثقفين العرب، وأحسب أنه قصد محمد عابد الجابري.




صدر حديثا
روي جاكسون
نيتشه والإسلام
ترجمة: حمّود حمّود
جداول Jadawel
مؤمنون بلا حدود



الدين والإمبراطورية




در حديثا ضمن منشورات مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث» وعن «المركز الثقافي العربي» بلبنان والمغرب، كتاب يحمل عنوان «الدين والإمبراطورية: في تنوير الإنسان الأخير» للكاتب والمفكر التونسي فتحي المسكيني.

وفي تصديره لهذا الكتاب، يتساءل الناشر: «هل يمكن فعلاً فكّ الارتباط الأخلاقي مع قصة الإله التوحيدي، ولا سيّما في صيغته الإمبراطورية: صيغة معلمنة، معولمة، بلا أيّة ضمانات ذاتية لغير الغربيين؟ هل الحلّ في تدريب الناس على فردانية متوحشة؟ أم في اختراع أنواع جديدة من الذات؟ وكيف يمكن أن ندرّب شعوباً بأكملها على التذاوت الحرّ؛ والحال أنها لم تبلغ بعد إلى القبول بالمنظومة الأوّلية لحقوق البشر؟ هل نحن كثرة فلانية حرّة فعلاً؟ أم نحن مجموعات قانونية من دون حقوق مدنية فعلية؟ هل الدولة هي سقف وجودنا التاريخي؟ أم علينا أن نطمح نحو إرساء ناد حرّ لأعضاء الإنسانية يكون خالياً من أيّ تنوير عنيف للآخر، باعتباره عبئاً أخلاقياً على النوع البشري؟».

ويضيف الكاتب متسائلا أيضا: ما معنى أن نفكر بأنفسنا في عصر الإمبراطورية؟ وكيف يمكن أن نجعل من مشاكلنا جزءًا لا يتجزأ من ماهية الإنسانية الحالية؟

تلك مجموعة من الأسئلة حاول المفكر التونسي فتحي المسكيني تأصيلها عبر استضافة عقول معاصرة، حمل هم التفكير وإعادة التفكير، من كانط إلى دولوز، ومن نيتشه وهيدغير إلى الإنسان

يمكن للقارئ أن يتعرف على تفاصيل أوفى عن كل هذه الإصدارات وغيرها من إصدارات المؤسسة، بالإضافة إلى التعرف على مراكز البيع والمكتبات التي تبيع جميع إصدارات المؤسسة عبر ربوع الوطن العربي عبر الولوج لموقع مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث» الخاص بالكتب على الرابط الرسمي التالي:
book.mominoun.com



الأخيـر.

وفتحـي المسـكيني كاتـب ومفكـر تونـسي، أسـتاذ التعليـم العـالي في الفلسـفة المعـاصرة في جامعـة تونـس. مـن مؤلفاتـه: «هيجـل ونهايـة الميتافيزيقـا» (١٩٩٧)، و«نقـد العقـل التأويـلي» (٢٠٠٥)، وغيرهـا.

ومـن ترجماتـه: «في جينيالوجيـا الأخـلاق» لفريديرك نيتشـه (٢٠١٠)، و«الكينونـة والزمـان» لمارتـن هايدجـر (٢٠١٣). نـشر العديـد مـن المقـالات والدراسـات في المجـلات والصحـف التونسـية والعربيـة والأجنبيـة.

الدراسات القرآنية في العدد ٦ من «ألباب»



أطـل العـدد السـادس مـن مجلـة «ألبـاب»، الفصليـة المحكمـة التـي تعـنى بالديـن والسياسـة والأخـلاق، والصـادرة عـن مؤسسـة «مؤمنـون بـلا حـدود للدراسـات والأبحـاث»، عـلى القـراء بتبويب مختلف، يخصص فيـه حيز مهم للدراسـات القرآنيـة، المجـال المعـرفي الـذي مـا فـتىء يتطـور ويتسـع منـذ القـرن التاسـع عـشر.

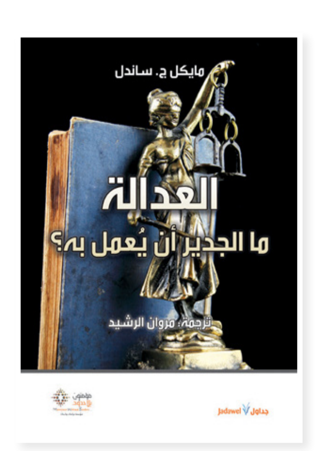
ويتضمـن بـاب الدراسـات القرآنيـة في هـذا العـدد ثـلاث ترجمـات وقـراءة في كتـاب، الترجمـة الأولى قـام بهـا الباحـث المغـربي سـعيد البوسـكلاوي تحـت عنـوان «اسـتعمالات القـرآن بوصفـه كتابًـا مخطوطًـا» عـن الأصـل الفرنـسي لواحـد مـن أبـرز المختصّـين في المخطوطـات القرآنيّـة فرنسـوا ديـروش François Déroche، والترجمـة الثانيـة أنجزهـا الباحـث المغـربي عبـد العزيـز بومسـهولي لمقدّمـة مهـدي عزيّـز الـتي وضعهـا لكتـاب جماعـي أشرف عـلى نـشره؛ كتـاب شـارك فيـه باحثـون متمـيّزون في مجـال الدراسـات القرآنيّـة مـن أمثـال فرنسـوا ديـروش، وجاكلـين الشـابي، وفريديريـك لمبـار، جيليـو ومحمـد عـلي أمـير معـزّي، وأنجيليـكا نويفـرت، وآن مـاري بوازيفلـو، وبيـار لارشـار، وجونياف جوبيلـو، وميشـال قيبـارس. أمـا الترجمـة الثالثـة، فهـي للباحـث المـصري حاتـم زكريّـا محـيي الديـن، لمقدّمـة كتـاب يوهانـس جانسـن الـذي نـشر عـام ١٩٧٤ حـول «تفسـير القـرآن في مـصر الحديثـة ١٩٧٠/١٩٠٠»، وهـذه المقدّمـة مهمّـة لا بالنظـر إلى محتواهـا فحسـب، بـل لأنّهـا تكشـف جوانـب مـن مشـاغل الاسـتشراق في دراسـته للقـرآن في فـترة مهمّـة جـدًّا بالنسـبة إلى الدراسـات القرآنيّـة.

ويقـدّم الباحـث المغـربي عبـد الله هـدّاري قـراءة في كتـاب «الله والإنسـان في القـرآن: علـم دلالـة الرؤيـة القرآنيّـة للعالـم»، فصـل فيهـا وجهـة نظـر الكاتـب والباحـث اليابـاني توشـيهيكو إيزوتسـوبكلّ. إلى جانـب الباحـث خالـد طحطـح الـذي قـدم قـراءة في كتـاب غادامـير «التلمـذة الفلسـفية»، والباحثـة التونسـية هاجـر خنفـر الـتي قدمـت قـراءة حـول كتـاب «الرجولـة المتخيلـة: الهويـة الذكريـة والثقافـة في الـشرق الأوسـط»، للكاتبـين مـي عصـوب وإيمـا سـنكلير.

ويتضمـن العـدد أيضـا ثـلاث دراسـات، هـي: «أثـر الفـارابي وابـن رشـد في صياغـة مـوسى بـن ميمـون للأصـول الثلاثـة عـشر للديانـة اليهوديّـة» للباحـث المـصري أشرف حسـن منصـور، و«الـذات المتعـدّدة لـدى بـول ريكـور» للباحـث التونـسي مصطفـى بـن تمسّـك، و» مقدّمـة معجـم الرمـوز» للباحـث التونـسي فيصـل سـعد.



العدالة: ما الجدير أن يُعْمَل به؟



صدرت حديثا عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث» وعن «دار جداول للنشر» بلبنان، الترجمة العربية لكتاب الفيلسوف والسياسي الأمريكي مايكل جوستيس ساندل، تحت عنوان «العدالة: ما الجدير أن يُعْمَل به؟»، قام بالترجمة العربية الباحث العربي مروان الرشيد.

هذا الكتاب لا يُقدِّم حلولًا للمشكلات التي تعاني منها البلدان العربية، كذلك هو لا يقدِّم حلًّا للمصاعب التي تواجه البلدان الأوروبية؛ إنما يُقدم طريقة للتفكير بهذه المشكلات. يمكن أن نسمي هذه الطريقة بالطريقة الجدلية، وهي جدلية من وجهين: فأولًا تعتمد الجدل والنقاش، كما يبدو في طريقة تدريس وإلقاء الدكتور ساندل مؤلف الكتاب، وهي طريقة شديدة الشبه بالتجاهل السقراطي، الذي يظهر في المحاورات الأفلاطونية، حيث يستدرج السائل المناقش لتفنيد نفسه من خلال طرح سلسلة من الأسئلة والأمثلة. ومن ثم هي جدلية من جهة العلاقة التي تُقيمها بين المبدأ والواقع، حيث يتبادلان تقويم بعضهما البعض.

ويقدم الكتاب، أيضًا، طريقة في قراءة المدونات الفلسفية الكبرى، ووصلها بالواقع، وتطبيقها على الطوارئ والمشكلات التي تواجهنا، وتستوجب تفكيرًا واضحًا ورائقًا، وتصورًا لجميع أوجه المسائل، ووزنًا لأثرها الأخلاقي.

ومايكل جوستيس ساندل، فيلسوف سياسي أمريكي، وأستاذ في جامعة هارفارد، يشتهر على وجه الخصوص بمحاضراته ومؤلفاته حول مفهوم «العدالة»، وحول انتقاداته لكتاب نظرية العدالة لجون رولس.

«العلمانية وحرية الضمير» في العدد ٧ من «يتفكرون»



يتناول العدد السابع من مجلة «يتفكرون»، المجلة الفصلية الفكرية الثقافية الصادرة عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، موضوع «العلمانية وحرية الضمير»، ليتجاوب مع مستلزمات الظرفية التاريخية التي تمر منها الثقافة العربية وتجلياتها على الواقع العربي الراهن؛ إذ إن ما يعيشه العالم العربي الإسلامي اليوم، حسب افتتاحية العدد التي حررها رئيس التحرير الدكتور حسن العمراني، من «فوضى وتنام للنزعات التكفيرية وانتشار فاحش للتأويلات الدموية للدين التي باسمها تهدر الأرواح وتستباح الأعراض وتصادر الحريات، يجعل التفكير في فك الاشتباك بين الدين والسياسة ضرورة ملحة وحيوية»، مما يعني أن «قضية العلمانية تتحدد ماهيتها والموقف المتخذ منها بالنسبة إلى الدين والموقع الذي يحتله في المجتمع». وبالتالي، «يتعين ربط العلمانية بالدين وما يزخر به من إمكانات». وهنا لا بد من الالتفات إلى «أن الحمولة النفسية الثقيلة للمفهوم جعلته عرضة لسوء الفهم ولكثير من الرفض والإنكار بدعوى أنه معاد للدين مجاف لروحه ومقاصده».

ويتضمن العدد ثماني عشرة دراسة لباحثين ومفكرين عرب تمركزت حول إشكالية ملف العدد، حيث فرضت أهميته وراهنيته إفراده بملف ضخم «يتميز بتنوع مقارباته وتباين زوايا نظره». ونجد من

ضمـن المشـاركات الـتي أغنـت الملـف دراسـة للباحـث التونـسي محمـد الخـراط بعنـوان «أخبـار التحريـر عـن حريـة الضمـير»، والجزائـري محمـد شـوقي الزيـن بعنـوان «العلمانيـة وثقـف الجوهـرة النـادرة»، كمـا حـضر المفكـر المغـربي كمـال عبـد اللطيـف بحـوار خصـه للمجلـة أجـراه معـه الباحـث منتـصر حمـادة، وشـارك أيضـا الناقـد الفلسـطيني فيصل دراج بدراسـة في موضـوع «العلمانيـة في احتمالاتهـا المتعـددة»، وتقـدم المفكـر السـوري خالـص جلـبي بمشـاركة موسـومة بــ «العلمانيـة وحريـة الضمـير والتعبـير»، كمـا نطلـع عـلى مشـاركات أخـرى لزهـير الخويلـدي وحمـادي ذويـب ونـورة بوحنـاش وغيرهـم.

ومـن جهـة أخـرى، يتضمـن العـدد مشـاركات أخـرى خـارج موضـوع الملـف منهـا حـوار مـع الشـاعر محمـد السرغيـني ضمـن بـاب «حـوارات»، ومقـال لعبـد السـلام بنعبـد العـالي، وآخـر لسـعيد بنسـعيد العلـوي في بـاب «مقـالات»، كمـا يشـتمل بـاب «أدب وفنـون» عـلى عناويـن لباحثـين وباحثـات عـرب في مواضيـع مختلفـة، ونقـرأ في بـاب «فنـون وثقافـة» مقـال ليحـي اليحيـاوي، وفي بـاب «قطـوف» حـوارا مـع المفكـر الكبـير عبـد اللّه العـروي حـول حياتـه وأزمنتـه.

٣٥٪ من النساء حول العالم يتعرضن لمظاهر العنف الجسدي

ذَكرت منظمة الصحة العالمية أن العنف ضد المرأة يعد واحدا من أبرز المشاكل الصحية والنفسية التي تواجه المرأة حول العالم، وتسلبها أبسط حقوقها الإنسانية، وأضافت، وفق إحصائيات حديثة لها بمناسبة اليوم العامي لمكافحة العنف ضد المرأة (٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني)، أن نحو ٣٥ في المئة من النساء حول العالم تتعرضن لأحد مظاهر العنف الجسدي، سواء كان ذلك من قريب، كالزوج، أو من غريب، كما تؤكد التقارير أن ٣٠ في المئة من النساء حول العالم تعرضن في حياتهن مرة واحدة على الأقل لشكل من أشكال العنف الجنسي.

وتشير الأرقام إلى أن واحدة من أصل ثلاث نساء اختبرت العنف بأحد أشكاله - على الأقل - خلال حياتها، وعادة ما يكون الأمر على يد شريك الحياة. وتشير منظمة الصحة العالمية كذلك، إلى أنّ شركاء الحياة يرتكبون أكثر من ٣٨ في المئة من جرائم القتل ضد النساء في العالم. ويترافق الأذى الجسدي مع حمل غير مقصود (وغير مرغوب فيه غالباً)، واحتمال الإصابة بأمراض جنسية (الإيدز)، بالإضافة إلى إصابات نفسية، ومنها الاكتئاب، وقد يصل الأمر إلى الانتحار أو محاولاته.

وترجع المنظمة الدولية، حسبما ورد في موقع المنظمة، أسباب العنف الجسدي الذي يتسبب



بـه شـخص قريـب إلى سـجل سـابق في العنـف لهـذا الشـخص، أو عـدم رضـاه عـن العلاقـة الجنسـية مـع المـرأة، أو صعوبـة التواصـل بـين الطرفـين.

أما العوامـل المرتبطـة بارتـكاب العنـف الجنسي ضـد المـرأة، وفقـا للمنظمـة، فتنـدرج في خانـة الإيمـان بأهميـة ارتـكاب جرائـم كجرائـم الـشرف، والسـيطرة الذكوريـة عـلى النسـاء، إضافـة إلى ضعـف الرقابـة القانونيـة عـلى مرتكـبي مثـل هـذه الجرائـم.

وتؤمـن المنظمـة الدوليـة بـضرورة تسـليط الضـوء عـلى جميـع العوامـل الـتي تميـز ضـد المـرأة، والترويـج للمسـاواة بـين الجنسـين، ومسـاندة المـرأة في جميـع جوانـب الحيـاة، إضافـة إلى التركـيز عـلى إيجابيـات التعامـل مـع المشـاكل الاجتماعيـة كبديـل لاسـتخدام العنـف.

ويتمثـل العنـف ضـد النسـاء في ثلاثـة مسـتويات بحسـب الأمـم المتحـدة، أولهـا العنـف الجسـدي، وثانيهـا العنـف الجنـسي، وثالثهـا العنـف النفـسي، وكلّهـا أشـكال تمييزيـة تـؤذي المـرأة، وتحـطّ مـن قدرهـا وتسـتعبدها، مـع مـا في ذلـك مـن اسـتبعاد لهـا عـن صنـع القـرار بمختلـف مسـتوياته.



حقائق وأرقام

- **تعرضـت أكـثر مـن ١٣٣ مليـون امـرأة وفتـاة إلى تلـك الممارسـة في ٢٩ دولـة بإفريقيـا والـشرق الأوسـط، حيـث تعتـبر ذلـك ممارسـات معتـادة.**

- **وتشـير التقديـرات إلى أن أكـثر مـن ١٣٠ مليـون فتـاة وامـرأة - عـلى القيـد الحيـاة اليـوم - قـد تعرضـت لتشـويه أعضائهـا التناسـلية (فيمـا يُعـرف بالختـان)، ولا سـيما في إفريقيـا وبعـض دول الـشرق الأوسـط.**

- **عـلى الصعيـد العالمـي، يقـدر عـدد الأحيـاء مـن النسـاء اللـواتي تزوجـن ولا يزلـن صغـيرات بــ٧٠٠ مليـون امـرأة، منهـن ٢٥٠ مليـون تزوجـن دون سـن الخامسـة عـشرة، ومـن المرجـح ألا تكمـل الفتيـات اللـواتي يتزوجـن تحـت سـن الثامنـة عـشرة تعليمهـن، كمـا أنهـن أكـثر عرضـة للعنـف المـنزلي ومضاعفـات الـولادة.**

- **تستمر عواقب العنف ضد المرأة وتكاليفه لأجيال.**


Helsinki
(Finland)
Oslo
(Norway)
Stockholm
(Sweden)
Tallinn
(Estonia)
Riga
(Latvia)
Copenhagen
(Denmark)
Vilnius
(Lithuania)
Moscow
(Russia)
Minsk
(Belarus)
Berlin
(Germany)
Amsterdam
(Netherlands)
Warsaw
(Poland)
Brussels
(Belgium)
Prague
(Czech Republic)
Kiev
(Ukraine)
Paris
France)
Bratislava
(Slovakia)
Vienna
(Austria)
Vaduz
(Liechtenstein)
Chişinău
(Moldova)
Bern
(Switzerland)
Budapest
(Hungary)
Ljubljana
(Slovenia)
Zagreb
(Croatia)
Bucharest
(Romania)
Sarajevo
(Bosnia and Herzegovina)
Belgrade
(Serbia)
Podgorica
(Montenegro)
Sofia
(Bulgaria)
Rome
(Italy)
Skopje
(Macedonia)
Tirana
(Albania)
Ankara
(Turkey)
Athens
(Greece)
Nicosia
(Cyprus)

العنف ضد النساء في أوروبا



العنف ضد المرأة موجود في الدول الأوروبية كما في كل أرجاء العالم، لكن تطور القوانين وآليات العقاب، خففت من نسبه ومعدلاته بالمقارنة مع دول لا تزال تسعى لتعديل قوانينها لضبط العنف الذي يستهدف النساء.



فقد نشرت أخيرا، وزارة الشؤون الاجتماعية الفرنسية بمناسبة اليوم العالمي لمكافحة العنف ضد المرأة، دراسة عن «الوفيات العنيفة بين الزوجين»، وسجلت مقتل ١٣٤ امرأة و٣١ رجلاً على يد شركائهم أو شريكاتهم السابقين أو السابقات خلال عام ٢٠١٤.



وأحصت الدراسة مقتل ٢٤ شخصاً و٣٥ طفلاً بقضايا تتعلق بالعنف بين الأزواج، ووقوع ٦٠ ضحية انتحاراً، مشيرة إلى أن إجمالي عدد الوفيات الناتجة عن العنف الأسري بلغ ٢٢٤ وفاة، مقابل إدانة ٣٥ شخصاً فقط (من الزوجين) بتهمة القتل.

ووفق الدراسة الوطنية الفرنسية، تعرضت ١٦٤ ألف امرأة للعنف الجسدي، و٣٣ ألف امرأة للعنف الجنسي، و٢٦ ألفاً لهذين النوعين من الاعتداء، وأن ٧ من ١٠ نساء يطالهن الاعتداء بشكل متكرر، في حين واحدة من النساء المعتدى عليهن من بين كل أربع حالات تتقدم بالشكوى للشرطة. كما أن ١٤٣ ألف طفل ينشؤون في منزل تتعرض فيه أمهاتهم للعنف على أنواعه، وفي عام ٢٠١٤ كان ٢٥ طفلاً في المنزل أثناء مقتل أحد الوالدين.

ووقعت ٦٣ ألف حالة اغتصاب في ٢٠١٤، وتقدمت ١٠ في المئة من الضحايا بشكوى، ٢٥ في المئة منهن زرن الطبيب، و٣٣ في المئة حصلن على استشارة نفسية. كما يتعرض سنوياً نحو ١٤ ألف رجل للاغتصاب أو محاولة الاغتصاب، وهذا الموضوع لا يزال الحديث عنه من المحظورات.

وكانت وكالة الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية قد أنجزت دراسة استقصائية، شملت الدول الأعضاء في الاتحاد، واستقصت فيها واقع نحو ١٥٠٠ امرأة من كل دولة عضو في عام ٢٠١٤. وأظهرت الدراسة أن نحو ١٣ مليون امرأة في الاتحاد الأوروبي تعرضن للعنف الجسدي خلال ١٢ شهراً، ونحو ٣،٧ ملايين امرأة تعرضت في دول الاتحاد للعنف الجنسي، وما نسبته ٣٣ في المئة من النساء اللواتي شملهن الاستبيان تعرضن للعنف الجنسي وأو الجسدي منذ أن بلغن ١٥ سنة من العمر، في حين أن ٨ في المئة من نساء العينة تعرضن لنوعي العنف خلال ١٢ شهراً قبل البدء بالاستبيان.

وخلصت نتائج الدراسة الاستقصائية الأوروبية إلى أن واحدة من كل ٢٠ امرأة تعرضت للاغتصاب منذ سن ١٥ سنة، كما أن ٣٤ في المئة من ضحايا العنف الجسدي تكررت بحقهن الاعتداءات لأكثر من أربع مرات وبأنواع مختلفة من الاعتداءات.

العنف ضد النساء في الوطن العربي

كشفت المندوبية السامية للتخطيط في المغرب، عن أرقام صادمة تهم العنف ضد النساء، مؤكدة أنه يمارس بامتياز في إطار الزواج أو من طرف العائلة، في الوقت الذي يُعتقد أنه ظاهرة الفضاءات العامة.

وأوردت المندوبية، في بيان أصدرته تزامنا مع اليوم العالمي لمناهضة العنف ضد النساء، في هذا الصدد، بأن البحث الوطني حول انتشار العنف ضد النساء الذي أنجزته سنة ٢٠٠٩ لدى عينة من النساء والفتيات تتراوح أعمارهن بين ١٨ و٦٤ سنة، كشف حينها أن أكثر من نصف النساء المتزوجات (٣،٧ مليون ضحية) أي ٥٥ في المئة تعرضن، خلال ١٢ شهرا السابقة للبحث، إلى شكل واحد على الأقل من أشكال العنف بالفضاء الزوجي.

كما أشار البيان إلى أن البحث أظهر أن العنف الممارس على النساء والفتيات بالوسط العائلي خلف ١،٣ مليون ضحية بمعدل انتشار بلغ ١٣،٥ في المئة.

وبينت نتائج البحث، كذلك، عدم وجود فوارق ملموسة بين المدن والبوادي بشأن انتشار ظاهرة العنف، إذ بلغت نسبة المتزوجات المعنفات ٥٦،١ في المئة بالمدن مقابل ٥٣،٣ في المئة في البوادي، في حين بلغت نسب العنف العائلي ١٤،٣ في المئة و١٢،٣ في المئة على التوالي.

وفي الإطار الزوجي، يعد العنف النفسي (السب والشتم والتحقير وغيره) الشكل الأكثر انتشارا ب٣٨،٧ في المئة، تليه انتهاكات الحرية الشخصية للمرأة (المنع من الخروج من البيت، وحرية اللباس، وحرية العمل، وغيرها) بـ ٣٠،٣ في المئة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإطار العائلي الذي يحتل فيه العنف النفسي المرتبة الأولى (١٠،٣ في المئة).

وحسب نوع الأفعال، أظهرت نتائج البحث أن السب والشتم والتحقير من طرف الزوج (٢٢،٤ في المئة

أو أسرته (٦،١ في المئة) هو الأكثر انتشارا في الإطار الزوجي، تليه الاعتداءات الجسدية كالصفع والضرب المبرح والركل (٥،٧ في المئة)، أو التهديد بهم (٦،٦ في المئة).

وأكدت المديرية العامة للأمن الوطني الجزائري في تقريرها الأخير حول ظاهرة العنف ضد المرأة، أن أزيد من ٧ آلاف حالة اعتداء ضد النساء، قد تم تسجيلها منذ بداية سنة ٢٠١٥، خاصة العنف الجسدي، والقتل، والاغتصاب...، وأشارت إلى أن ظاهرة العنف ضد المرأة أصبحت من أكثر المظاهر السلبية والخطيرة في المجتمع الجزائري، وهذا بسبب الارتفاع المخيف جدا لهذا النوع من العنف سنويا في حق المرأة الجزائرية، حيث سجلت مصالح الأمن الوطني الجزائري أرقاما مرعبة جدا لمختلف أشكال العنف التي تتعرض لها المرأة الجزائرية يوميا.

وحسب الأرقام التي كشفت عنها المصالح نفسها بمناسبة احتفال الجزائر باليوم العالمي لمناهضة العنف ضد المرأة، فإن المرأة الجزائرية تعرضت منذ سنة ٢٠١٥ إلى ٧٣٧٥ حالة عنف، منها ٥٣٥٠ حالة عنف جسدي، و١٧٠٦ حالة تتعلق بسوء المعاملة، و٢٢ حالة قتل عمدي، و٤ حالات تخص الضرب والجرح العمدي المؤدي إلى الوفاة، و٨١ حالة تحرش جنسي، و٦ حالات زنا المحارم، و٢٠٦ حالة اعتداء جنسي.

وفي مصر، يصل عدد حالات الاغتصاب سنويا إلى أكثر من ٢٠٠ ألف سيدة، وفقا للمركز المصري لحقوق المرأة، وقد ارتفع عدد هذه الحالات مع المشاكل السياسية التي شهدتها مصر في الآونة الأخيرة.

أما في الأردن، فقد سجلت السلطات ارتفاعا في أعداد حالات الاغتصاب، إذ يتم اغتصاب نحو سيدتين في كل ١٠٠ ألف سيدة، وفقا لمكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجرائم.

وفي قطر، أشارت اللجنة الأممية ضد التعذيب إلى وجود حالات كثيرة من العنف المنزلي الموجه ضد الخادمات والمساعدات المنزليات، اللاتي يتعرضن للعنف الجسدي، والاغتصاب، والأذى الجنسي.

ترقبوا

في العدد القادم

«واقع البحث العلمي في الوطن العربي»

